رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد الحادي عشر
تشرين ٢ (نوفمبر) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 11 Nov. 1957
5ème année

خواطر عربية أمام القمر الجديد

بقلم رئيف خوري

وقفت عند كلمة قرأتها منذ ايام لفقيد الادب العربي نجيب الحداد يعلن فيها: « ان العلم وجهل الاستبداد لا يجتمعان والمدنية ووحشية الاستعباد لا يأتلفان ».

فقلت حبذا لو صحت القاعدة! العلم وجهل الاستبداد لا يجتمعان، والمدنية ووحشية الاستعباد لا يأتلفان؟ وأنى؟ وكيف؟ وماذا يصنع اذن اسياد الحضارة وسباق البشرية في مضمار الثقافة، منذ الحرب الاخيرة، ولا اذهب الى ابعد؟

ماذا يصنعون سوى ان يبشروا في كل يوم بمن بنى منزلاً، او حرث ارضا، او كتب كتابا، او ربى طفلا، بانهم قد بلغوا من العلم مبلغا يستطيعون معه ان يجعلوا من كل ما عمل، أو حلم بان يعمل، هباء منثورا ويحققوا العمران ويريحوا البشرية من عناء وجودها!

العلم قد هشم الذرة. العلم قد سخر من الطاقة والآلات ما يستطيع به ان يحول مجاري الانهر، ويصفي مياه الابحر، ويستخرج ما في المحيطات من ذخائر وكنوز، ويجعل من القطبين، ومن الغابات والآجام غير المأهولة، مساكن صالحة لعباد الله، ويسمو بانتاج الغذاء والكساء الى ما يسد به حاجة كل انسان ويكفل له الحياة المطمئنة الرافهة المثقفة، وينمي قواه المبدعة فكرا وعملا الى اقصى غايات نموها. العلم قد اشرف على الساعة التي يتحرر فيها الانسان من القيود التي تشده الى هذا الكوكب، الارض، لينتقل الى الكواكب الاخرى يعمرها ويفيد منها، ويصير ما كان يحسب من هذيان المحمومين حقائق كلها يقين!

هذا ما فعله العلم. ومع ذلك فما زال في الارض، في كنف هذا العلم، وهذه المدنية، جياع لا يظفرون بلقمة، وعراة لا يجدون السبيل الى خرقة، وعطاش حرموا حتى قطرة من المعرفة. ما زال في الارض امم وشعوب غريبة في اوطانها يغزوها الغزاة، وينهبها الطغاة، ويتحكم في رقابها العتاة.

ومن عجيب امر هذا العلم، وهذه المدنية، انك ترى العلماء والمتمرنين جادين في البحث عن دواء يقتل بعوضة مؤذية، ويقيموا المختبرات والصيدليات والمستشفيات ودور النقاهة، لينقذوا عايلا، او يطيلوا اياما في عمر مريض، او يخففوا من مصيبة معوه او مشوه، وفي الوقت نفسه يكشر بعضهم في وجه بعض كالذئاب ويتبجحون بوسائل التدمير والافتراس ويتنافسون في افتكها واضراها.

اذا فالعلم والاستبداد يجتمعان، والمدنية ووحشية الاستعباد يأتلفان. والمنطق والحماقة والذكاء والغباوة يتجاوران ويتخالطان.

ولكن ماذا ترانا نفعل؟ هل نكفر بالعلم والمدنية وبالمنطق والذكاء؟

اقول: لا! لا نكفر بالعلم والمدنية! لا نكفر بالمنطق والذكاء! بل فلنؤمن بها رغم كل شيء، لانها وان هددت العمران والبشرية تبقى هي السبيل الى حفظ العمران والبشرية وتعبر الطريق امامهما الى ما هو افضل واجمل واكمل.

كثيرون تشاءموا، واصطبغ في نظرهم الوجود بلون اسود، حين سمعوا حديث القنابل الذرية التي تملكها الولايات المتحدة الاميركية، وتستطيع بها ان تدمر المدن وتزهق ارواح الملايين في لحظة عين. ولم ينخفض تشاؤم المتشائمين حين ايقنوا ان الاتحاد السوفياتي يملك من هذه القنابل ما تملكه الولايات المتحدة وقالوا: بئس المصير بين الجبارين! ثم كان حديث الصواريخ، فاذا المتشائمون لا يخف عنهم ثقل الكابوس وما اظنهم قد سعدوا اليوم بهذا القمر الاصطناعي، الذي سبق اليه السوفيات وارسلوه يدور حول الارض، ويشرف عليه اشرافا قد يستطيع به ان يمطر ما شاء من كوكبنا قنابل تحرقه احراقا.

حبذا لو كان هذا القمر من نوع آخر، لسمعنا فيه بعض هؤلاء المتشائمين ولو قصيدة غزل!

الا ان جميع هذه الاسباب التي تغرق المتشائمين في الجزع والقنوط، وتقنعهم بان الحرب واقعة لا محالة، هذه الاسباب نفسها جديرة بان تدعو الى تفاؤل صحيح متين.

لم كانت كل هذه الفترة من الحرب الباردة ضرورية لو كان باستطاعة من يريدون الحرب ان يقدموا حقا على حرب



كبرى حارة ؟ لم هذا الاحجام ، مع هذه التلميحات والتصريحات المتوالية بالتفوق على العدو والقدرة على سحقه؟

لست اكتب مستفزا من يريدون الحرب . وانما اكتب للمتشائمين مقنعا اياهم بان من يريدون الحرب غير موقنين الا بنتيجة واحدة : انها لن تسفر الا عن دمار يجهلون ما يكون نصيبهم منه،ولا يعلمون هل يفي به النصر، ان انتصروا.

ولذلك هم يكتفون بالحرب الباردة ، يقفون عند حد التهديد ، ولا يجسرون ــ اذا جسروا ــ الا ان يحركوا حروبا صغيرة موضعية . انهم يسوِّفون ريثما يتم لهم ذلك اليقين الذي يفتقرون اليه ، اليقين ان النصر سيكون لهم !

وفي زعمهم ان هذا اليقين يمكن ان يتم لهم برغم ارتياع الشعوب من الحرب وتوقها الى السلام . يمكن ان يتم لهم هذا اليقين في زعمهم بوسائل الابادة الشاملة التي يهيئها لهم العلم ، وبها يستطيعون ان يسبقوا الى الضربة القاصمة ، والضربة لمن سبق .

على انهم قد فاتهم شيء ، ان كان فاتهم . فهذا العلم نفسه قد اصبح امنع سر دون ذلك اليقين الذي يلتمسون. العلم قد اثبت انه لم يبق سرا محتكرا لاحد . فوسائل الابادة الشاملة ، التي يهيئها ، اصبحت تملك منها الدول الكبيرة القادرة على الانفاق ، مقادير ، ربما تفاوتت ، لكنها تتقارب من ناحية انها تكفي لجعل الحرب صفقة خاسرة حتى مع النصر ان كان ثمة من نصر.

وهذا في رأينا هو مغزى ظهور القمر السوفياتي في الآونة الراهنة . ان الاتحاد السوفياتي ان لم يكن متفوقا بوسائل الابادة الشاملة ، فهو ليس متخلفا . وان لم يكن النصر نصيبه يقينا فهو قادر ان لا يجعله من نصيب احد.

وهكذا يبعد القمر السوفياتي الحرب ، ويقصيها عن المحتمل ، او هو يثبت ان نصرا يُنال على الاتحاد السوفياتي بمجرد التفوق في وسائل الابادة العامية مستحيل .

وهنا ، قد يقال لنا اننا نتكلم وكأننا واثقون من ان الاتحاد السوفياتي نفسه لا يقدم على الحرب ، حتى ولو غره من نفسه شعور بالتفوق في وسائل الابادة على خصومه .

والواقع اننا نثق مثل هذه الثقة . الاتحاد السوفياتي لن يقدم بحال على حرب يكون هو بادئها ، لان الاتحاد السوفياتي يسري عليه ما يسري على غيره وهو ان العلم لا يطيق ان يبقى سرا محتكرا لاحد، وان وسائل الابادة العلمية التي تملكها الدول الكبرى كافية، وان تفاوتت، لجعل الحرب صفقة خاسرة ، جنونية ، انتحارية ، حتى مع النصر !

وثمة سبب آخر مهم ، ان الاتحاد السوفياتي قادر ، اذا استمرت الظروف والاحوال ، ان يحرز نصرا من طريق غير طريق الحرب .

كثيرون لا يحبون ان يروا الحقائق الصارخة . ويفسرون هذا الرأي مني بانه بقية لاشعورية من بقايا احتكاكي بالشيوعية في يوم من الايام . ويرضيهم هذا التفسير ويغنيهم . ولست اكلف نفسي عناء دفعه ، فاذا كان جواهر لال نهرو ، وجمال عبدالناصر ، وشكري القوتلي ، وخالد العظم ، وحميد فرنجية ، وعبدالله اليافي ، وصائب سلام ، منجرفين بالشيوعية حقا وجدا في نظر هؤلاء ، فما اراهم اذا رموني بالشيوعية مسرفين ! ولكن ما بال هذا المزاح يستوقفنا ! افضل لو نبحث كيف يتسنى للاتحاد السوفياتي ان يحرز من غير طريق الحرب نصرا يكفيه .

ينبغي للانسان ان يكون مصابا بالعمى ، او بالتعامي وهو شر من العمى ! حتى لا يبصر ان الاتحاد السوفياتي يقف في سياسته الخارجية موقفا ادنى الى الحق والمنطق والى ادراك الاماني القومية التي تجيش بها جماهير الشعوب العربية ، بينما تسلك الولايات المتحدة زعيمة الجبهة المناوئة للاتحاد السوفياتي ، مسلكا ينبو عن الحق الصريح والمنطق البدهي .

تتمسك الولايات المتحدة باسرائيل التي قامت على محو الوجود العربي في جزء عزيز من وطننا ، واعتدت امس على مصر العربية ، وما زالت تضمر نيات الاعتداء على باقي البلاد العربية ، ولاسيما الاردن وسوريا ، ثم تطمع الولايات المتحدة بان يصالح العرب اسرائيل ويسيروا معها في جبهة مضادة للاتحاد السوفياتي !

ولا يبدو على الولايات المتحدة سوى موقف المتفرج حين تتحرش تركيا بسوريا ، ولا تتحمس الولايات المتحدة لتقول شيئا الا حين يحذر الاتحاد السوفياتي تركيا من عاقبة مغامراتها الوخيمة على نفسها قبل غيرها ، فتصرح الولايات المتحدة بانها تنفذ عندئذ تعهدها بمساعدة تركيا ، اي تحميها اذا اعتدت ، ثم تريد الولايات المتحدة ان تضمنا اليها والى تركيا في جبهة لمعاداة الاتحاد السوفياتي !

وتعرض الولايات المتحدة معاونتها المالية والاقتصادية للبلدان المتخلفة ، فاذا طلبت منها مصر مثلا ، بعض هذه المعاونة لتبني سدها العالي ، الزمتها ان تتقيد بشروط سياسية تؤدي بها الى المشاركة في حرب على الاتحاد السوفياتي ، فلا يختلف موقف الولايات المتحدة عمن يخير انسانا ليبني مطبخا في بيته ، ثم يكلفه ان يبذل له بيته كله ليجعله تحت القنابل !

مرحى لهذا الحق ! مرحى لهذا المنطق ! لسنا والله نعلم اي معجزة يمكن ان تحققه ! لتطمئن الولايات المتحدة انها ستوفق الى اصطناع القمر قبل ان تقنع عربيا ، حتى من المكسوبين لها ، بهذا « الحق » و « المنطق » .

ينبغي للولايات المتحدة ان تتخلى عن اسرائيل ، ان تعترف بالاماني القومية العربية وان لا تعرقل سير هذه الاماني نحو الاستقلال والسيادة التامة ، والاتحاد والحرية والرفاهية .

ينبغي للولايات المتحدة ان تكف عن تشجيع عناصر الانقلاب والرجعية ، وعمال الفتنة الاثيمة في البلاد العربية . ينبغي لها ان تمسك عن تحريك دُماها : اسرائيل وتركيا ، للاعتداء او التفكير في الاعتداء . ينبغي لها ان تستعمل نفوذها مع حلفائها الفرنسيين في الجزائر والبريطانيين في شبه الجزيرة العربية ، ليسلموا بالواقع ويمنحوا الحق شعوبا هضموا حقها طويلا . وينبغي لها ان تبذل معاونتها المالية والاقتصادية لمن يريدها خالصة من القيود السياسية .

هذا ، والا فلن تحقق الولايات المتحدة من المعجزات غير زيادة في تمكين الصداقة العربية السوفياتية ، وعلى حساب الولايات المتحدة نفسها ! وسيتنكر لها حتى اصدقاؤها اما راضين واما كارهين ، او هم سيجدون انفسهم في عزلة تامة عن الشعوب العربية .

ان كل تحويل في مجرى السياسية العربية من خط الحياد والاستقلال والحرية والاتحاد اصبح مستحيلا ، لانه لن يمكن الا بتدخل عسكري . ومعنى التدخل العسكري اشعال حرب يكون المعتدي فيها هو البادىء بالتدخل العسكري وبالتالي، لا يجد له معتمدا يعتمد عليه سوى وسائل الابادة التي يهيئها له العلم .

ولكن الم نقل ان وسائل الابادة هذه اصبحت بعيدة عن ان تكون سرا محتكرا لاحد بعد ظهور القمر الجديد !؟

رئيف خوري

العرب والشيوعية في عهد جديد

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

السيد م. ب. مهندس بحري امريكي يقيم اليوم في اشبيلية من المدن الاسبانية بعد ان اقام مدة في بيروت وزمنا في مراكش ، وهو يعتبر نفسه صديقا للعرب محبا لهم . وقد تلقيت من السيد م. ب. في غمرة الاحداث التي تتالت على العالم العربي بعد العدوان الثلاثي على مصر في العام الفائت ، رسالة يحذر فيها من عواقب الارتباط الذي بدأ يتوثق بين البلاد العربية ، وسورية منها على وجه خاص، وبين البلدان الشيوعية ، فكان مما قاله في رسالته:

« ما من احد استطاع ان يستخدم الشيوعيين في اغراضه ، وان يفيد منهم،بل كان الشيوعيون هم المستفيدون دوما من الآخرين . ان التاريخ الحديث مليء بالامثلة من هذا القبيل : الهند الصينية ، غواتيمالا ، كوريا ، المجر .. فلنصلِّ لله كيلا يكون كذلك مصير سورية » .

وفي الحق ان التعقل يقتضينا ان نحل هذا التحذير محله ونحن نرى ان علائقنا بالعالم الشيوعي وبالاتحاد السوفياتي بوجه خاص آخذة في الازدياد والتمكن يوما بعد يوم ، وفي ميدان بعد ميدان . فالنظام الشيوعي الذي يعتقد المادية التاريخية اساسا فلسفيا له ويتخذ النفعية المادية له غاية ، والذي حفل تاريخه القصير بالمذابح ومحاكمات التصفية وحركات التهجير الجماعية ، قد اقترن نشوؤه وتطوره في اذهاننا بمكيافيلية لا هوادة فيها، الغاية فيها تبرر الوسيلة مهما بلغت الوسيلة من القسوة ، والنفع فيها هو الاساس الذي تزوَّر له الحجج وتخلق له المبررات ويحوَّر من اجله المنطق والمعقول . فاذا عملت الشيوعية التي هذه هي بعض خصائصها فانها تعمل بدراسة وحساب ، واذا اعطت فانها تعطي لتسترد ما تعطيه اضعافا . فمن الفطنة اذن ان نضع نحن العرب تحذير السيد الامريكي م.ب. وكل تحذير يطلقه مواطنوه موضع التقدير ما دمنا نجد انفسنا في هذا الموقف الغريب الذي قل ان وقفت فيه دولة او مجموعة دول في هذه الحقبة الاخيرة من الزمن . ففي الحين الذي يناصب فيه عدد من الدول العربية الاتحاد السوفياتي العداء صراحة قاطعة علاقاتها السياسية معه مهاجمة اياه في كل مناسبة ومحفل ، وفي الحين الذي يصر فيه كل عامل في الحقل السياسي العربي في كل الدول العربية على براءته من الشيوعية وتسفيهه لها والطعن فيها كنظام سياسي واجتماعي ، في هذا الحين وذاك ، نجد الدول العربية ممعنة في الاستفادة من التأييد المعنوي للاتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي ، مستمرة في الاستفادة من معونتهما المادية ماضية في توثيق عرى صداقة غريبة تهب الشيوعية فيها عونها وتأخذ لقاءه سبابا في بعض الحالات وطعنا في النظام الشيوعي او عدم اعتراف به في أيسر الاحتمالات. فكيف يصح كل هذا اذا لم يكن وراء الاكمة ما وراءها ، واذا لم يكن المبيت لنا يفوق بكثير ما قدم الينا على انه هبة بينما هو عارية لا بد يوما مستردة؟ من هنا كان تحذير السيد م. ب . في مكانه : احذوروا الشيوعيين ، فان احدا لم يستخدمهم في اغراضه ، بينما استخدموا هم كل انسان في أغراضهم ..

في الواقع ان بال كل مهتم بأمور السياسة في العالم العربي ، وبال القائمين على الحكم في البلاد العربية بصورة خاصة ، لم يخل ابدا من موضوع هذا التحذير . فالقادة في كل البلدان العربية حتى في تلك التي ارتبطت مع البلدان الشيوعية بأوثق الصلات ولمست منها العون الصادق في ساعات المحنة ، لا يزالون في وجل من مغامرة الصداقة التي يباشرونها مع بلدان هذا ماضيها ، محكومة بنظام تلك هي سمعته . فهم يترددون ، لدافع او لآخر، عن الاعتراف بتعاون سافر بين بلادهم وبين المعسكر الشرقي ، واذا ذكروا هذا التعاون قدموا بين يديه الاعذار ليبينوا انهم لم يلجأوا اليه الا مضطرين ، كأنهم يشعرون في قرارة انفسهم انهم في هذا التعاون انما يأتون امرا ادًّا . في خطب الرئيس جمال عبد الناصر ، مثلا ، التي تتصف بالصراحة والواقعية نجد ذكر الشيوعية مغفلا وحق بلدانها مغموطا ،وان الرئيس مع اعترافه بكلمات حاسمة بفضل الاتحاد السوفياتي يفضل ان يمر على ذكره مرورا خاطفا او ان يوميء اليه ايماء ولا يسميه . ونجد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية ، وهم الذين يمدون الى التعاون مع المعسكر الشرقي ذراعين مفتوحتين ، نجدهم يصرون في كل مناسبة على التأكيد على الخلاف العقائدي بين الفكرة القومية والشيوعية ، وعلى التذكير بأن المعركة القادمة هي بين القومية العربية والشيوعية الدولية . كل هذا يدل على ان الحذر من الشيوعية وما تبيته وراء عونها للعرب في نضالهم ضد الاستعمار وقواه واعوانه واذنابه كامن في نفوس الحاكمين والقادة في العالم العربي ، يسيطر على اذهانهم ويتدخل في أحكامهم وقد يعرقل بعض الاحيان تصرفاتهم. ولكن هذا الحذر الذي يتصف به القادة والحاكمون لا يجد له مكانا في نفوس سواد الناس في الشعوب العربية ، في بلدانها المختلفة وطبقاتها المتفاوتة . فهذا السواد الذي له من القدر والاثر ما يفوق قدر القادة

والحاكمين واثرهم ، والذي تسير نزعاته وميوله العاطفية سياسة اولئك القادة والحاكمين ، قد حقق تحولا كبيرا في نظرته الى بلدان العالم الشيوعي ، وانتقل بعواطفه من ذروة التوجس والنفور والكراهية الى ذروة التودد والاعجاب والحب نحو بلدان المعسكر الشرقي وما تمثله هذه البلدان وما يتعلق بها من نظم وطرز حياة واخلاق جماعات . واذا كان هذا التحول قد اتخذ ميدانه العاطفة اليوم ، فقد يكون نقطة انطلاق الى تحول مثله في ميادين اخرى ، وقد يتلو التودد والاعجاب والحب للانظمة وطرز الحياة واخلاق الجماعات في ذات يوم او ذات ظرف الى ما تتصل به كل هذه العناصر من عقائد سياسية او افكار فلسفية واجتماعية .

ان هذا التحول العاطفي في نظرة العرب الى الاتحاد السوفياتي وبلدان العالم الشيوعي حقيقة واقعة نلمس اثرها في انفسنا وانفس طبقات امتنا من فلاحينا الى مثقفينا . كان العامل الاول في هذا التحول سلبيا مرده الى يأس العرب من انصاف الدول التي تسمي نفسها دول العالم الحر ، والى نقمتهم على مواقف هذه الدول تجاه قضايا العرب الحيوية ومثلهم العليا . فكان كافيا ان يكون الاتحاد السوفييتي خصما عنيدا لفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة لتشمل الروس من رجل الشارع العربي نظرة الاهتمام والعطف . ألم يكن هذا العامل السلبي هو السبب في ما كان لهتلر في قلوب عامة العرب من منزلة ، على الرغم مما كانت تبشر به النازية وما كانت أفعالها تنذر به من طغيان عنصرية حمقاء وشوفينية ميغالومانية تهون امامها افاعيل الاستعمار واساليبه الاخطبوطية ؟ على ان هذا التحول اخذ يزداد بازدياد العناصر الايجابية بين عوامله ، واغلبها عوامل خطا خطوتها الاولى الاتحاد السوفييتي ودوله اللاحقة . بدات بشراء مصر الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا وبلغت ذروتها في تلك الليلة الحاسمة حين اصدر بولغانين تحذيره المنذر مهددا بتدمير عواصم العدوان بالصواريخ البعيدة المدى . فأي عربي لم تدخل روسيا الى قلبه في تلك الليلة وكل العرب حينذاك كانوا يعيشون على اعصابهم وهم يتتبعون لمع الاخبار عن عدوان لا تكافؤ فيه من دول عظمى على مصر العربية ، مهدد بالقضاء على املهم الطالع وحقهم الابلج وقضيتهم العادلة ؟ لقد قرر دالس في الكتاب الذي صدر مترجما لحياته انه اراد برفضه معونة مصر في بناء السد العالي ان يبين للرئيس جمال عبد الناصر ان الاتحاد السوفياتي غير جاد في عروضه لتقديم المعونة المالية لمصر . ولكن هذا السياسي العجوز ، واكاد اقول المأفون ، اتاح للاتحاد السوفياتي ان يبين لمصر انه جاد فيما هو اكبر خطرا من معونة المال ، جاد في اثارة حرب عالمية لا تبقي ولا تذر انتصارا لقضية حقة وشعب حر لا يريد ان يفرط في حريته . وهكذا ، بينما كانت خطب شيبيلوف تلقى في مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة ، وكتب بولغانين تتوالى الى رؤساء الدول المعتدية والصور الاذاعية للمظاهرات في انحاء الاتحاد السوفياتي صائحة « ارفعوا ايديكم عن مصر » تذاع على العالم من محطة موسكو ، كانت حواجز التوجس والريبة في نفوس العرب من النظام الشيوعي وبلدانه ومن الشيوعية الدولية ونواياها تتهدم ويقوم مقامها نبت جديد من عرفان بالجميل وشعور بالصداقة الصادقة ومن الاكبار والحب .

وفي الحقيقة ، ما الذي كان في نفوس العرب من الاتحاد السوفياتي وبلدان النظام الشيوعي فنفرهم من الشيوعية واهلها ؟ وما هي العوامل التي باعدت بين الشيوعية كنظام اجتماعي وسياسي والقومية العربية كفكرة ومثل اعلى ؟

لقد غبر على الشيوعية زمن كان كل العالم فيه يناصبها العداء . ولكن اسباب هذا العداء لم تكن واحدة لدى كل امم العالم . فائن كانت دول الغرب في اوروبا وامريكا مدفوعة الى ذلك بدوافع مادية اقتصادية وبالحرص على الحرية الفردية ، فان نفور العرب من الشيوعية كان مصدره عوامل اخرى ترتبط بالمعنى والروح اكثر من ارتباطها بالمادة والاثرة الفردية ، وتتصل اتصالا شديدا بالفكرة القومية العربية ومثلها العليا . فالفكرة القومية العربية ، على انها تسعى الى خلق واقع عربي قابل للحياة في القرن العشرين الذي هيمنت عليه الحضارة الغربية الحديثة وانطبع بالطابع المادي الوضعي ، لا تستطيع الاستقلال عن عناصر معنوية وروحية ترجع في اصولها الى اربعة عشر قرنا على الاقل . اهم هذه العناصر اثنان : القومية بحد ذاتها ، والدين . فالفكرة القومية العربية هي فكرة العروبة والامة العربية التي ضربت اصولها في التاريخ القديم ثم تكاملت شخصيتها في الحقبة قبل الاسلام وبرزت بالاسلام الى الوجود العالمي . تصل الفكرة القومية هذه عند المتطرفين في عروبتهم الى حد العنصرية ، وكل مذهب سياسي او اجتماعي لا يحسب لهذا العنصر حسابه يعتبر في نظر القوميين العرب شعوبيا تجب مجانبته ، فكيف اذا سفه هذا المذهب الفكرة القومية او دعا الى مناهضتها ؟ وكذلك الحال في الدين ، فهو ان لم يكن من العناصر الاصيلة في الفكرة القومية العربية ، فانها تتجنب مناوأته وتلتمس فيه حليفا بل وتعتبره احدى العرى التي شدت أواصر القومية في اشكالها البدائية وفي عصورها الاولى . لذلك يحرص القوميون العرب على ان يتخذوا من الدين ، لا من التعصب الديني ، حليفا طبيعيا يتجنبون به على الاقل نفور الجماهير العربية التي تنفرس فيها جذور التدين عميقا . فكل ما يحارب الدين ، سواء كان الدين اسلاما او نصرانية ، او يدعو الى تهديمه ، يجد صدا وممانعة من دعاة القومية العربية ومن كل العرب . وقد كان لموقف الشيوعية كمذهب فلسفي ونظام سياسي نحو هذين العنصرين المعنويين ، القومية والدين ، اكبر الاثر في نظرة العرب الى الشيوعية والى الاتحاد السوفياتي كرأس

الدول الشيوعية . فلقد عرفت الشيوعية بانها تدعو الى امية تمحى فيها مميزات الشعوب وينسكب فيها الناس قوالب طبيعية متماثلة لا عزة لقومية فيها ولا كرامة لوطن وعرف عن الشيوعية انها تقول بأن الدين هو افيون الشعوب وانها تسفه القيم الروحية التي نشأت الانسانية وترعرعت على تقديسها ، وانها جهدت بعد ثورتها الكبرى في روسيا في تقويض كل ما اقامه الدين من مؤسسات ومعابد وما نظمه وقام على رعايته من علاقات اجتماعية . فكان طبيعيا اذن ان يكون نصيب الشيوعية ، وهذا هو موقفها من القومية والدين ، النفور والعداء الصريح من جانب العرب . وكان طبيعيا ان يستغل اعداء الشيوعية في الغرب هذه النواحي الحساسة في اثارة عواطف العرب ضد الاتحاد السوفياتي تأليبهم عليه كلما سنحت لذلك فرصة او دعا الى ذلك داع . وكان طبيعيا كذلك ان لا يكون تقارب بين العرب والشيوعية ، وبين العرب والاتحاد السوفياتي ، ما لم يتغير موقف احد الطرفين من هذين العنصرين الاساسيين، القومية والدين ، فاما ان تكشف الشيوعية عن مناصبتهما البغضاء والعداء ، واما ان تتغير نظرة العرب اليهما فيكفوا عن اعتبارهما من مقومات حياتهم السياسية والاجتماعية ومن دعائم مثلهم الاعلى الاساسية .

ولكن هذا التقارب بين العرب والعالم الشيوعي قد حدث فعلا . حدث لان تغيرا كبيرا في مواقف الدول الشيوعية ، والاتحاد السوفياتي بوجه التخصيص ، تجاه هذين العنصرين قد جرى ، ولان عناصر جديدة قد ولدت في محيط العلاقات العربية السياسية جعلت العرب يدخلون في مفاهيمهم اعتبارات جديدة لا تقل عن الاعتبارات القوميّة والدينية اثرا في سلوكهم السياسي . اما الاتحاد السوفياتي فقد اضطرته الحرب الشاملة التي خاضها ضد المانيا حليفا للدول الرأسمالية الى التراجع عن تصلبه في ميادين عديدة لم يكن يعرف فيها تهاونا ، فكان ان ظهرت النعرة القومية والاعتزاز بها في الوجود الشيوعي بعد ان كانت العقيدة الاجتماعية هي الجامعة الوحيدة للشعوب المعتنقة مذهب كارل ماركس ، كما بدأ التسامح الديني يجد له مسارب على هوامش التيار الشيوعي الجارف ولم تلبث هذه التطورات الجديدة على نظم الحياة الشيوعية التي بدأت في داخل الاتحاد السوفياتي ان امتدت الى علاقة روسيا الشيوعية بما حولها فارتفعت اصوات القادة الشيوعيين بالدعوة الى التعايش السلمي بين الدول المعتنقة مذاهب سياسية مختلفة بعد ان كانت الشيوعية تعني المذهب الذي لا يطيق ولا يتقبل ولا يعتقد ببقاء مذهب غيره في الوجود ، ويدعو الى تغيير نظم الحكم في البلدان غير الشيوعية بكل الوسائل ، والثورة اهون هذه الوسائل . وقد تلقى عالم الغرب ومن يسير في فلكه ويعتقد بأرائه ويصدق اقواله دعوة الاتحاد السوفياتي الى التعايش السلمي على انها دليل ضعف او وسيلة خداع تدعو الى مهادنة موقتة بين العالمين المتطاحنين يكون الكسب اثناءها من نصيب الشيوعية التي يعمل الزمن في صفها .

ولكن التطورات المحسوسة التي بدت في سلوك الاتحاد السوفياتي بعد موت ستالين دلت على ان الامر ليس مجرد خدعة بل هو خطة جدية مستقيمة . فقد بدأ التسامح بتقبل السوفيات للاجتهادات الخاصة في تطبيق النظام الشيوعي على الدول الشيوعية نفسها . وهكذا اعيدت العلاقات مع تيتو بل اعتبرت القطيعة معه احدى خطيئات ستالين الكبرى الذي اخذ يقرع عليها بشدة ، ولو متأخرا ... بعد مماته . وتقبلت روسيا بعد ذلك النزعات الاستقلالية التي برزت في البلدان اللاحقة بها في بولونيا اولا وفي المجر ثانيا ، لولا ان الانحراف الشديد الذي اتخذته المجر في استقلالها عن الاتحاد السوفياتي اخذ يهدد بخروجها عن الشيوعية نفسها ، مما اهاب بالقادة في روسيا ان يعيدوا النظر في سياستهم المتسامحة وان يبطشوا بالثورة المضادة ، كما اسموها ، بطشة جبار اعادت الى الاذهان الغافلة ان للين نهاية وللتسامح حدودا . اما فيما عدا بطشة الجبار هذه فان سلوك الاتحاد السوفياتي قد خلق ثقة في النفوس برغبته الصادقة في انتهاج سياسة التعايش السلمي ونزوعه الى السلام بين الامم وسعيه الى استقرار الامن في العالم . واذا كان ، في قلب الفئة الحاكمة لروسيا ، انصار لسياسة ستالين الفولاذية التي تجعل من الشيوعية شبحا رهيبا عابسا يخيم على العالم بظل ثقيل من القلق والخوف يفضلونها على سياسة خروتشيف ، الضاحك بسخرية ، الواثق من نفسه ، فان التطهير الاخير الذي اتى على كاغانوفيتش ومولوتوف قد رجح كفة السياسة الروسية الجديدة المنطلقة الصريحة التي حملت لواء المبادهة في القضايا الخيرة : الدعوة الى نزع السلاح، الدعوة الى سحق العدوان بأقرب الوسائل وانجعها، الدعوة الى اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها . ولعل الذين اصابهم التطهير لمقاومتهم هذه السياسة هم اول من نعم بمزاياها . ففي هذا العهد الجديد من السلوك السياسي للاتحاد السوفياتي ، غدا التطهير ان يصبح مولوتوف سفيرا في منغوليا ، وكاغانوفيتش استاذا في جامعة ، بينما كان التطهير في مذهب مولوتوف وكاغانوفيتش محاكمات مذلة واعترافات قسرية مهينة ثم نفي الى سيبريا واعدام ومصائر سوداء كالتي انتهى اليها تروتسكي وبوخارين وتوخاتشيفسكي .

اذن ، فقد حدث تغير لا شك فيه في العقلية التي تنظر من خلالها بلدان النظام الشيوعي الى البلدان الاخرى ذات النظم السياسية المغايرة للنظام الشيوعي . فاذا كان الاتحاد السوفياتي والشيوعية يدعوان الى التعايش السلمي ، ويصدقان في هذه الدعوة ، فان معنى ذلك ان تصديهما لمعاني الروحية والمثل العليا في الدين والقومية ، اصبح تصديا نظريا على صعيد الافكار ، لا حربا شاملة تستخدم اسلحة الاثارة والتآمر والتهديم .. وبهذا تتلاشى حواجز

عديدة كانت تفصل العرب عن الاتحاد السوفياتي، ويصبح الناس في العالم العربي قادرين على التفريق بين روسيا كدولة والشيوعية كمذهب سياسي ، بينما كانوا قبلا يعتبرونهما واحدا يؤخذ كلا او يهجر كلا . وهذا ما جرى فعلا . واذا كانت الخطوة الاولى للقضاء على هذه الحواجز قد خطاها الاتحاد السوفياتي فقد اتى عليها بل مهدها تمهيدا اكتشاف العرب ان عنصرا رئيسيا من عناصر مقوماتهم كأمة ، بل العنصر الاساسي في كل هذه المقومات قد اصبح موضوع تهديد لم يكن يخطر لهم على بال ، الا وهو وجودهم كأمة بين امم العالم لها وطن يعد بين الاوطان . لم يكتشف العرب هذا التهديد او لم يفتحوا اعينهم عليه الا بعد ان اصبحت اسرائيل حقيقة تعيش بين ظهرانيهم ، على حقهم ، تحتل ارضهم بعد ان تطردهم منها او تفتك بهم فيها . منذ ظهور هذه النبتة الشيطانية تبين العرب ان عليهم ان يعيدوا النظر في كثير من الاعتبارات التي كانت تطبع بطابعها افكارهم وتصرفاتهم فينظرون اليها من خلال علاقتها بنشوء اسرائيل ونموها وامكانية اجتثاثها والخلاص من شرورها . ادرك العرب ان عليهم تقييم مزايا كل فرد منهم حاسبين حساب اسرائيل وشرور وجودها وخطر بقائها ، فكيف بمذاهبهم السياسية وعلاقاتهم الدولية ؟ وان علاقة العرب بالشيوعية وبالاتحاد السوفياتي وبدول المعسكر الشرقي ، مثل علاقتهم بالدول الراسمالية والعالم الغربي ، هي بعض ما يجب تقييمه من جديد على ضوء هذا المقياس ، مقياس قيام اسرائيل قياما ظالما فاسدا خطرا في قلب الكيان العربي والموطن العربي والامة العربية .

يحمل العرب ذكرى مريرة لمساهمة الاتحاد السوفياتي في بناء اسرائيل واظهارها الى عالم الوجود ، وذلك في تأييده ودوله اللاحقة به لقيام هذه الدولة المسخ وفي اعترافه بها بعد دقائق قليلة من اعلان قيامها ، محتلا المكان الثاني بعد الولايات المتحدة التي اعترف رئيسها ترومان باسرائيل في الدقائق الثماني الاولى التي تلت منتصف ليل ١٥ أيار ١٩٤٨ . وللشيوعيين العرب حججهم الكثيرة في تبرير هذه الطعنة التي سددها الاتحاد السوفياتي للعدالة الانسانية وحق تقرير المصير وحقوق الانسان ، الا أن هذه الحجج لا تنسينا انقيام الشيوعية كمذهب وكنظام وان الحكم الشيوعي في روسيا السوفياتية كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا باليهودية العالمية التي تولت فكرة الوطن القومي اليهودي وهي حلم ، ثم اخرجت اسرائيل الى الوجود كدولة . ولقد طرحت قضية فلسطين على البحث في هيئة الامم المتحدة في وقت كان فيه ستالين متزوجا من يهودية ، وكذلك كان وزير خارجية الاتحاد السوفياتي مولوتوف القوي العنيد، وكان ، حينذاك ، اليهودي لازار كاغانوفيتش في مكانه كعضو قوى النفوذ في المكتب السياسي لم تستطع كل حركات التطهير التي جرت ايام ستالين ان تنال من مركزه ، فظل اقرب الناس الى الدكتاتور الجبار الذي كان متزوجا اخته روزا كاغانوفيتش ومزوجا ابنته سفتلانا من ابن كاغانوفيتش هذا . وليست هذه العلاقات امورا هينة ولا ما تشير اليه من اثر اليهود واليهودية العالمية في سيرة الاتحاد السوفياتي مما يتغاضى عنه . والدليل على ذلك انه حين بدر من ستالين رد الفعل الذي ينتهي اليه كل حاكم يطول تمرسه بسياسة بلده اذا كان لليهود يد في سياستها ، وحين ادرك الى اين تحاول اليهودية العالمية ان تسوق الاتحاد السوفياتي فأخذ منصفا او مغرقا يحاول القضاء على النفوذ اليهودي في دوائر القيادة العليا من روسيا ، بادئا باعتقال بضعة عشر طبيبا ثمانية اعشارهم من اليهود ، داعيا الى تهجير كافة اليهود من جمهوريات الاتحاد السوفياتي الى قلب آسيا ، حين حاول ستالين ذلك ، انفجر احد شرايين دماغه في رأسه وقضى بين عشية وضحاها رجل روسيا ، بل رجل القرن العشرين ، المخيف ! (١) من المنطقي اذن ان نقدر الاثر الكبير للنفوذ اليهودي في سياسة الاتحاد السوفياتي وسياسة الشيوعية بصورة عامة ، وان نرجع اليه اكبر القسط من انحياز روسيا الى جانب اسرائيل ومناصرتها باطل الصهيونية ضد حقوق العرب . فاذا اتخذ

---

(١) ـ في اواخر ايام ستالين كانت الاحداث والاخبار في الاتحاد السوفياتي تنم عن الاتجاه اللاسامي الذي اخذ يندفع فيه دكتاتور روسيا الحمراء . وكانت قد سرت شائعات بان ستالين ينوي الطلاق من زوجته اليهودية روزا كاغانوفيتش ليتزوج من مغنية في الاوبرا ، حسناء تترية من استراخان . كما ان ستة عشر طبيبا ، اغلبهم من اليهود ، اوقفوا بتهمة محاولة اغتيال طبي لقادة روسيا العسكريين في مستشفى الكرملين ، وبدأت في البرافدا حملة على مؤامرات صهيونية تحاك ضد الاتحاد السوفياتي.

وفي شباط من عام ١٩٥٣ جمع ستالين اعضاء البريزيديوم الخمسة والعشرين ، وهو ما لم يكن يحدث الا نادرا ، وعرض عليهم مشروع قرار كان في الحقيقة قيد التنفيذ يقضي بتهجير يهود الاتحاد السوفياتي الى اواسط آسيا . فلما اعترض كاغانوفيتش على هذا القرار وطالب كاغانوفيتش بان تطوى قضية الاطباء اليهود وان يلقى القبض على ريومين رئيس قسم التحقيقات في الشرطة السرية ، انفجر ستالين في وجه كاغانوفيتش مغرقا اياه بالشتائم مهددا بالقاء القبض عليه حالا . حينئذ اخرج لازار كاغانوفيتش بطاقة عضويته في الحزب الشيوعي من جيبه ومزقها امام عيني ستالين وهو يقول : « لقد الحقت العار بحزب لينين .. ما انت الا مجرم سافل ! » وما كان كاغانوفيتش يجرؤ على هذا القول لولا انه كان واثقا من مساندة اعضاء البريزيديوم ذوى النفوذ، وعلى رأسهم مولوتوف له وواثقا من ان خطوط التلفون التي تصل الحراس بقاعة الاجتماع مقطوعة . فلما ادرك ستالين انه عاجز عن البطش بخصومه وانه اصبح وحيدا معزولا تملكته ثورة الحنق التي فجرت تلك الشريان في دماغه والقته على بلاط تلك القاعة غائبا عن الرشد دون مسعف طوال ليلة كاملة .

وهكذا قضى ستالين ، وقال ايليا اهرنبورغ : ان الذي انقذ الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي الروسي وبلادنا هو لازار كاغانوفيتش !..

الاتحاد السوفياتي موقفا جديدا من هذه الحقوق اقرب الى التفهم والانصاف ، فان من المنطقي كذلك ان يقدر العرب هذه الردة الى الخير وان يعيدوا النظر في موقفهم من روسيا وان تتبدل بذلك عواطفهم نحوها . ولقد قامت دلائل وبراهين على ان هذا الاتجاه من جانب الاتحاد السوفياتي نحو الحق قد اصبح امرا واقعا ، وان القادة السوفيات الذين كانوا يناصرون اسرائيل امسوا معلمين في اواسط آسيا وسفراء في منغوليا ، كاغانوفيتش نفسه ومولوتوف الراسخ النفوذ ، فلا غرابة بعد هذا اذا حدث التطور السريع العجيب الذي وصفته في بدء هذا المقال في علاقة العرب وفي عواطفهم تجاه الاتحاد السوفياتي والشيوعية ، من ذروة التوجس والنفور والكراهية الى ذروة التودد والاعجاب والحب .

في هذا التحول السريع العجيب يجد المغرضون والشكاكون والحذرون من المخلصين مجالا للتساؤل والتخوف والترويع ، فيصيحون الصيحة التي اطلقها في رسالته صاحبي المهندس الاميركي : « حذار ان يكون في هذا منزلق الى هاوية الشيوعية العميقة المظلمة ، الشيوعية كمذهب مادي ونظام اممي ودعوة شعوبية ملحدة .. حذار من الشيوعية ! »

والحق انه اذا كان الاسلوب هو الرجل فان العمل ، او التنفيذ ، هو المذهب . ولقد اصبحت قيمة الشيوعية كمذهب في نظر السواد من ابناء الامة العربية في ظروفنا العصيبة هذه هي قيمة تصرفات الشيوعيين واعمالهم وانتصاراتهم للحق المسلوب وحمايتهم للضعيف يناضل من حريته وكرامته ضد قطعان الذئاب من الدول المستعمرة المعتزة بأنيابها المحددة . واصبحت اقرب الوسائل تناولا في تقدير الشيوعية هي مقارنتها بغريمتها الرأسمالية . فبينما نجد الشيوعية مذهبا غايته خير الجماعة الانسانية ولكن وسائله الى هذه الغاية وسائل ظالمة للحرية الفردية ، مناهضة للمعاني الروحية ، نجد ان الرأسمالية ، وتصرفاتها شاهدة عليها ، تدعو الى صيانة الحرية الفردية وتدعي التعلق بالقيم الروحية لتصل الى غاية هي الشر كله : امتصاص الخيرات واستعباد الشعوب واحتلال الاوطان ، ممثلة بالاستعمار ولا سيما بالصهيونية. ذلك ان الصهيونية في كل هذه الشرور ، هي الاساس ، على الاقل من وجهة نظر العالم العربي وفيما يتعلق بهذا العالم .

ان الصهيونية هي الاساس في كل ما حاق بالعالم العربي من شرور العالم الغربي ، عالم الاستعمار والرأسمالية الذين يسمونه العالم الحر . فقد يعتبر ساسة الاتحاد السوفياتي اسرائيل اداة الاستعمار للعدوان ولاثارة القلق في الشرق الاوسط ، وقد ينادي قادة العرب بأن اسرائيل هي ذنب الاستعمار وربيبته ، ولكن الحقيقة كل الحقيقة هي ان الاستعمار نفسه اصبح ، في هذا العصر ذنبا لاسرائيل وعبدا مسخرا لقوى اليهودية العالمية . تظن الدول الغربية ، مقتنعة او متظاهرة بالاقتناع ، انها للحفاظ على مصالحها والدفاع عن نفوذها تجيش جيوشها وتعبىء اساطيلها وتعرض كيانها وكيان العالم للتلاشي والفناء في حين انها تفعل كل ذلك في الواقع لتدافع عن باطل اسرائيل في دعوى حد او لتقطع اسرائيل ارضا او لتطيل في عمرها يوما. فكيف يمكن ان يصفو ما بين العرب وهذه الدول ما دام العرب يعتبرون كل دولة وكل قوة ومذهب باعتبار علاقتها بالصهيونية العاملة على بناء دولتها على انقاض كيانهم وعلى خلق وجود لاسرائيل بافناء وجودهم ؟ ان كل اعتبار في نظر العرب يأتي بعد هذا الاعتبار في المحل الثاني . فاذا حل الاتحاد السوفياتي محلة من التقدير في نفوس العرب فلأنه، على كونه عالماشيوعيا، قد تحرر من نفوذ الصهيونية والتزم جانب العدالة والانسانية . وسيظل هذا مكانه من التقدير ما دام هذا موقفه من الحق .

أو ليس من خطر في الانسياق وراء هذا التقدير الذي اخذ العالم العربي يفصح به حيال الاتحاد السوفياتي والذي تلا مبادلات وتلته علاقات تزداد توثقا يوما بعد يوم ؟ يجدر بي أن أعود في هذا الى تلك الرسالة التي تلقيتها من السيد م.ب. والتي ذكرت امرها في مستهل هذا المقال. فقد كان جوابي على تحذير صاحبي المهندس البحري الاميركي المقيم في اشبيلية رسالة طويلة قلت له في ختامها :

« .. بقي شيء واحد : الخوف من ان تنقلب المعونة الشيوعية التي تبدو الآن مجردة من الغرض ، الى تدخل واحتلال . ان هذا الخوف كان مصدره دوما الى نفوسنا دعاية العالم الحر . ولكن شكوكا كثيرة اخذت تنتابنا في ما كانت تقوله لنا بلاد العالم الحر هذا الدمقراطية : ففي اثناء العدوان على مصر كانت فرنسا وانكلترا تشنان حربا سافرة وتدعيان انهما تصنعان بذلك سلما ، وكانتا تقترفان على ارضنا الجرائم البربرية وتقولان ان هذه هي المدنية . ومع ذلك ، وبافتراض ان الخوف من التسرب الشيوعي مبني على حقائق ثابتة فان علينا ان نختار بين امرين : بين الغرب الذي بحمايته لاسرائيل وتقويته لها يهددنا في وجودنا ، والشيوعية التي بتدخلها في بلادنا وامورنا تهددنا في حريتنا . وسنختار الامر الثاني ، لانه حين يبقى لنا وجودنا موفرا فسيظل لنا امل النضال من اجل حريتنا والحصول عليها . اما حين نفقد الوجود فاننا نفقد معه كل شيء : الحياة كلها ، والحرية معها » .

عبد السلام العجيلي الرقة « سورية »

قصيدة مصر

للشاعر نقولا قربان

مهداة الى جمال عبد الناصر في ذكرى المعركة المنتصرة

هذا نهارُ النصرِ يا مصرُ الكريمه
تزيّني بالغارْ
ومسّحي بالنارْ
جبينكِ المحروقَ بالشمس العظيمه

★

هيّا اجمعي النيلَ على الكفّ السخيّة
وأترعي قلب العربْ
ولتسكر الأرض الصبيّه
وتربةُ الأطيانْ
والروضةُ القمراء في الريف ، الغنيّة
والمتجرُ الملآنُ باللعبْ
والموسمُ الملآنْ
بالقمحِ والقصبْ ...

★

وليهزجِ الشّبانْ
مع الصبايا الهازجاتْ
في موكبٍ باركهُ قلبُ الحياةْ
في دبكةٍ مجنونه
في كورسٍ تشعلهُ جنّيةٌ مفتونه

★

ولتكتب الريحُ على الرمالْ
وليصرخ الأطفالْ
والامّهات إذ يطرّزن العلمْ
وليزأر الأبطالْ
والنسرُ باسطاً جناحيه على الهرمْ :

يحيا جمالْ !
يحيا جمالْ !

★

ولتغزل العرائس الجميله
بشعرها الشلاّلْ
إسم جمالْ
تحفظهُ للأعصر الطويله

★

وليزدهِ العجيانُ من أهل الصعيدِ
وبالأزاميلِ التي تجوع للحجرْ
فليحفروا ملامحَ الفجر الجديدِ
على إرادات الرجالْ
على مرايا الابتهالْ
على مجاذيف القمرْ
على مواويل الرعاةِ الشاردين في الجبالْ ...

★

وحين يفترّ الثمرْ
في كلّ شبرٍ إرتعاشيّ السؤالْ
فلتهتف الأجيالْ :
مات القدرْ
مات القدرْ ...

★

القَدَرُ الباغي
في جزمة الطاغي
في قدس أقداسهْ
وفي ضميره الصغيرْ
والقَدَرُ الباكي ظلامة الفقيرْ
والنيرُ في رأسهْ ...
والقدرُ الذي يبيعنا الدخانْ
يبيع منهُ للجماهيرِ الغفيره
كأنهم جمّيزةٌ منخورةُ الأغصانْ
في الشرق في الأرض الحقيره

★

القَدَرُ الحلوُ بقلبِ الفاتحينْ
ولْدُ الذئابِ الكاسره
النازلينَ من رجالٍ فاجرين
ومن نساءٍ فاجره
الآكلينَ التبرَ من أرض العربْ
الشاربينَ الخمرَ من جرح العراة البائسين
المكتسينَ من نثير الياسمينْ
الآكلينَ الخبزَ من غير تعبْ ..
والقَدَرُ المرُّ بقلب العسكريّين الصغارْ
حين يرونَ الانكليزْ
في البزّة الفخيمةِ التطريزْ
إذ يعبرونَ مثل جيزان الذهب
في صدرهم شرائطٌ مقصّبه
وينهرون المركبه
ويسعلونْ
ووجههم صورة نيرونْ

أو صورة الجنكيز ...

★

والقَدَرُ الكذّاب في أشكاله
الساكبُ الغدرَ على أذياله
حين يؤلّه الغراب
ويجعل الذئبَ غزالاً
خافياً طبع الذئاب
ويدلقُ العطر على انيابه
وينثر الزهر على جلبابه
القدرُ الأعمى الذي ينسى الشهامه
إذ يأخذ البومَ الحقير
يودع رجليه علامه
من فضّةٍ أو من حرير
ومن شبابيك غمامه
يرسله للشرقِ في زيّ حمامه ...

★

والقَدَرُ الصانعُ قطعانَ العبيدِ البشريه
الماضغينَ الخوفَ من غيرِ شهيه
والقاعدين في السلاسل
سلاسلَ الكذب المقدّس
حيث طقوس السحرِ
والفكر المدنّس
حيث يعيش الناسُ
في ظلّ الشبَق
حيث تموت الجاريات
في الحريمِ
في زَهَق
حيث التقاليدُ
وإجهاض الحوامل
حيثُ السماواتُ
تباع بالنقودِ والمآكل
حيث الأمير
يخلقهُ فرخ الأمير
كفرخةِ الحيّة

إذ تلدُ الحيه ...

★

وصارتِ الأقدارُ في الشرق صَنَم
ربّ سمينُ المنكبين
يحصدُ أجسادَ الضحايا
في نهم
يقتاتُ حتى
من جنازات الندم
ويخنقُ الأفكارَ في لمحةِ عين
ويُطفىء الأنفاسَ
في قيثارةِ الحسّ
حتى غدا الشرقُ الأشمّ
كأنه مقبرةُ الشمسِ

★

ثمّ استفاق الشرقُ في فجرٍ عظيمٍ
أرجوانيّ الشفاه
وقد نما في قلبه شوقُ الحياه
في قارة
حبلى بنار الثورةِ البكرِ
معمورة بجدائل الزهر
وراح في دوّامةِ النصرِ
يقطّعُ الأغلال
يشعلُ أتّون النضال
يغضبُ في عزمِ إلـه
يدحرج التيجانَ عن صُفرِ الجباه ...

★

وعانق الصبحُ جبينَ الأمّةِ
يسألها
عن سرّ هذي الفرحةِ
وعن معاني الانتصار
فتخايلت
في قوة الجبّار
ودلّت الصبحَ على معنى البطوله
معنى الضياء العبقريّ

في أقاليم الرجوله
في ميسلون
في بور سعيد
في كلّ إعصارٍ جديد
وفي الجزائر
حيث الدمُ الفائر
يغسلُ أظفارَ المنون
يبني إلى الشمس قناطر
يسمّر العدلَ بأجفان الوليد
ويحرق القيدَ باضلاع العبيد ...

★

وهكذا قام نشيدالقادرين
يعمّر الاعصارَ في كل جبين
ويستعيدُ في أغاريد الصغار
والقادة الثوّار
وموكب الأحرار :
هذا نهار النصرِ يا مصر الكريمه
تزيّني بالغار
ومسّحي بالنار
جبينكِ المحروق بالشمس العظيمه ...

★

هذا نشيد العدلِ في أرضي
يحمله الحصّادُ في قلبه
والنهرُ في موجه الفضي
والنورُ في صُلْبه ...
يحمله الفلاّحُ في حضن البطاح
والعامل البائس
يحمله الملاّح في عصف الرياح
تحمله كلّ العرائس
كالموعد المزروع في قلب الصباح ...
تحمله الأزهار في الوادي
يحمله أهل بلادي
مثل الرياحِ الهادره
على الجفون السادره ..
يحمله العصفورُ
في عشه ←

والفاتح المقهورُ
في نعشه.

★

وأنصتَ الشرقُ لأنغامِ النشيدِ
وهي انتصاراتٌ لها إطلالةُ العيدِ
ومع الأعاصير العجيبه
مرّ رجالٌ
كالارادات الرهيبه
لهم جباهٌ ثائره
ومحاجرٌ فيها شموسٌ ساحره
وحناجرٌ منها هديرُ الأنهرِ
وأنفسٌ تضحكُ للحبّ بصدرِ الأعصر
مرّوا كإعصار الحمائمْ
كنهر عاج متلاطمْ
كغابةٍ مشبوبة الأعناقْ
كثورةٍ ضمّت ملايين الرفاقْ
مرّوا كسيلٍ من هديلِ
كالضحكِ في عرس المناديلِ
وحينما استفاق الجائر صوتْ
راحوا يدقّون طبولَ الموتَ ...

★

وفي تهاليل البطولات الغنيه
قمنا مع الشمس الفتيّه
نخطّ هذي الكلماتْ
نحفرها على الجباه القاهرات
على جباه الثائرين
على رخامٍ في صدور القادرين
على نحاسٍ شامخٍ فوق الجبين
على مناقير النسورْ
على قوارير الزهورْ
على أسارير الحفاةْ
على تماثيل العراة
على نواجيل الطغاة
على أساطيل الغزاة
على قناديل القصورْ
على أناجيل الدهورّ :

الأرض هذي أرضنا
وكلّ ما فيها لنا
حروفها نحن غرسناها هنا

نحن سقيناها الدماءْ
يوم تحرّرنا
ونحن شئناها سماء
حين تكبّرنا

أنهارها البكرُ لنا
والصيف والريحُ وضوضاء المطرْ
وقمحها العسجدُ
والذهب الأسود
والموسم المخزون في ظنّ القمر

لنا القتالُ الطاهره
لنا مداميكُ الجَلَدْ
والصاريات الساحره
والأمل الباسقُ في قلب الولدْ

وإن محا طاغيةٌ أسماءنا منها
فاستفسروا عنها
تروا لنا فيها علامه
مكتوبةً بالدمْ
على أظافير الحمامه
وفي سجلات الكرامه
وفي جراح كل فمْ

ثمّ اسمعوا هديرنا .
ألجاري مع النهر العميقِ
في طلّة الشمسِ
على الوادي السحيقِ
في صبغة الأسحارِ
بالنور الرشيقِ
في جُذُرِ القمحِ
وفي عيدانهِ
في شهقة الليلِ
وفي تخزيقةِ
قمصانه
في كرّة الحسّونِ
وفي تزويقةِ
جنحانهِ
في هتكِ
انجيل التقاليد العريقه
في هدم
أركان الطواحين العتيقه
في ذلّة المستعمرينَ
الراكعين للحقيقه
هديرنا الصافي
الفتيّ النبراتْ
الخالق الرعدةَ
في قلب الغزاةْ
الناشر السلْمَ
بأحلى نبراتْ
هديرنا القلوعُ
من قلب نبي
الزارع الثورةَ
في جهر الصباح الذهبي
والمبتني ناسوت شعبٍ عربي

نقولا قربان

شعر نزار قباني

وثيقة اجتماعية هامة

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

ان دراستي اليوم عن الشاعر نزار قباني ليست دراسة كاملة لشعره ولا تتناول كل ملاحظاتي عنه ــ بل انني حاولت ان اعالج فيها ثلاث نقاط فقط ــ تتعلق الاولى بالنقاش « الخالد » عنه ــ بموضوع المرأة ــ وتتناول الثانية ازدواج الشخصية الفنية ــ اما الثالثة فانها تبحث عن القيمة الاجتماعية في شعره وعن موقفه من الحياة العربية المعاصرة كما اراه انا . وكان بودي ان استرسل اكثر في بحث النقاط الثلاث المذكورة وان اتحدث عن مزايا فنية عند الشاعر لم اتعرض لها في بحثي ــ ولعلي فاعلة ذلك في يوم آخر .

سلمى الخضراء الجيوسي

لا شك ان جيل نزار قباني قد احاطه اجمالا بالاعجاب رغم السخط الذي أثاره « موضوع » شعره في أوساط المصلحين الاجتماعيين ودعاة الادب الملتزم . وسوف يظل هناك خط فاصل دائم بين ذلك الاعجاب وذاك السخط ــ اذ ان ما يعجب القارىء المتذوق في نزار هو شيء يختلف عن ذلك الذي يثير سخط المصلح ، ولهذا فانه لم يكن صعبا ان نجد المعجب ساخطا في الوقت ذاته .

ان اول ما عيب على نزار قباني موقفه من المـــرأة . ولنحاول هنا تهدئة اعصابنا كي نتمكن من ان ندرس هـــذا الموقف بشيء من الهدوء والرصانة . انني اذ اقرأ شعره تتضح في مخيلتي شخصية تقفو خطى المرأة لسببين : الاول للرغبة الحسية ، والثاني حبا بالجمال الحي الـــذي يصوره الفن . ان السبب الاول هو « الخطيئة » العارمة التي على مذبحها اراق المصلحون الاجتماعيون دماء نزار ، والسبب الثاني هو الشعاع الخالد الذي في هيكله احرق القراء له بخورهم ــ وليس هناك شاعر عربي معاصر هوجم كما هوجم نزار وعُبد كما عبد .

ولم يستطع نزار قط ، بالطبع ، التخلي عن حسيته في وصفة للجمال ، او نسيان الجمال الرائع النادر في تعبيره عن اشواقه الحسية ــ ولكن الخط واضح بين عابد الجمال للفن وبين عابد الحب الجميل ــ وقد تتحد العبادتان اتحادا كليا عنده وقد تمتزجان بين بين فتتغلب واحدة منهمـــا على الاخرى . ولعل « شمع » (ص ١١٢) هي اكبر مثال على الحسية العارمة في الغريزة و « وجودية » (ص ١٣٢) هي افضل مثل على تلك العبادة التي يكنها النظر والذوق الفني للجمال الحي الخارجي في المرأة . انها لا تتحدث عن موقف الشاعر من الفتاة الجميلة ولا توحي للقارىء بانـــه اضمر لها رغبة ما بل تكتفي بتصوير جمالها ورشاقتهـــا البارعة . وقد بحثتها في مكان آخر من هذا المقال .

لو كان نزار بطبيعته كرجل اقل حسية مما هو لكان احب الى جانب المرأة الجميلة ــ وبقدر ما احبها ، كل انواع الجمال في الطبيعة ، ولكن قوة الحسية عنده جعلت حبه للجمال ينسكب على جمال المرأة الحي المتحرك ــ الذي راح ينثر عليه كل جمالات الطبيعة والوانها وعطورها ويسخرها له .

لو كان في نفسه القدرة على التألم والحزن ، او التفاني والعطاء في حبه لتمثاله الحي المتحرك لبدا هـــذا التفاني شيئا من طاقة الغريزة النابضة في الدماء ــ ولكنه لا يظهر لي قادرا على الحزن ابدا (١) او على العطاء العاطفي العميـــق لها ــ ولذلك فان حبه للمرأة ليس حبا على الاطلاق وليس غاية مطلقا .

فما هو حب نزار الحقيقي ؟ ان نزارا ، شاعر المرأة ، لا يحبها . انه يرغب بها ولكن الرغبة وحدها ليست حبا ولا تفانيا ولاعطاء ، ، والحب لا يعيش الا بالعطاء والتفاني ــ اما عبادته لجمالها فانها وسيلة لغاية هي حبه الوحيد ــ الشعر ، الكلمة التي تمتص عروقه ــ لقد اعترف صراحة بهذا الحب في « رسائل لم تكتب لها » (ص ١١٧)

فكري تغلي ولا بـــد لطوفان ظنوني مـــن قناة
ارسم الحرف كما يمشي مريض في سبات
فاذا ســـودت في الليـــل تلال الصفحـــات
فلأن الحرف ، هـــذا الحرف ، جزء مـــن حياتي

ثـــم :

فحيـــاتي كلهـــا شـــوق الى حرف جـــديد

ونوه بهـــذا الحب ودافـــع عن وجوده في « لن تطفئي مجـــدي » (ص ١٢٥)

لن تفهمي معنى العذاب   بريشـــتي .. لن تفهميني
مزقت اجمـــل ما كتبت   وغرت حتى من ظنوني
وكســـرت لوحـــاتي ...

وقصة الشاعر في هذه القصيدة واضحة ــ انه يدافع عن حريته كفنان ضد امرأة غيور ، ويرفض ان يتركهـــا تطفىء مجده الشعري ليعيش على هرائها ــ على تفـــاهة الحياة الخالية من الخلق والابداع الفني ــ بل يفضل انهاء

---

(١) حتى في رثائه لابيه يظهر ذلك العنفوان والشموخ والتحدي الذي ينكر الموت . انه لم يذرف دمعة واحدة بل راح يؤكد ان اباه لم يمت « اشيلك حتى نبرة صوتي ــ فكيف ذهبت ولا زلت بي ؟ ثم « فتحنا لتموز ابوابنا ــ ففي الصيف ، لا بد يأتي ابي » .

ان نزارا يترفع على الحزن والشكوى ــ والفرق شاسع بين رثائه هذا لابيه ورثاء الشابي لابيه ، ذاك الرثاء المندى بالدمع والكآبة والحزن العميق . ولا بد من التنويه هنا ان هذه الخاصية لم تفقد مرثية نزار قيمتها فانها من اروع ما كتب .

علاقته معها ، وهذه النهايات التي تكثر في ديوانه الاخير، تبدو لنا امرا محتوما في حياة الشاعر الذي يشعر باضطراره الى السعي وراء الوجه الجديد في سبيل ابداع جديد وتصوير متلون . ولكن مزلقه هو ان الفنان في بحثه عن وجه جديد يرسمه بالحرف كثيرا ما يخضع للرجل في شوقه الدائب وراء اشباع الحس .

اود ان احيل القارىء الى مقال ممتاز عن أبو ريشة بقلم توفيق صائغ تحت عنوان « ابو ريشة والحب المجزأ » (الآداب - السنة الثالثة - العدد التاسع) حيث يعالج الكاتب ببراعة نظرة ابو ريشة الى المرأة . فأبو ريشة في « جزء » من حبه عابد آخر للجمال ولكن الجمال عنده غاية والمرأة الجميلة تصبح الها وشعلة علوية وفكرة موحية . وهنا فرق حاسم بين نوعين من العبادة للجمال. فعبادة نزار للجمال هي كعبادة بعض الناس لله وسيلة للوصول الى الخلود وضمان الجنان .

★

واذا تقصينا صفات الشخصية الفنية عند نزار بدا لنا ازدواج هام فيها . فان الرسام والشاعر يتزاحمان جنبا الى جنب . ان لنزار نظرة الرسام وذوقه مما جعله يعامل الشعر احيانا كما لو كان فن الرسم ، فله قصائد كثيرة لا تعنى الا بالمظهر الخارجي للوحة - اي « بالصورة المادية » متناسية الى درجة كبيرة « الصورة النفسية » - ومن قرأ « سامبا » فهم ما اعني ، لان القصيدة رغم بروز القدرة الفنية عند الشاعر ، تخلو من التجربة الانسانية العميقة . ولعل نزارا الرسام قد وصل في « وجودية » الى درجة كبيرة من الرقي الفني - فصورة هذه الفتاة الرمادية العينين ليست مجرد تصوير حسي لصبية جميلة وهي لا توحي فقط بالرشاقة والخفة والجمال ، بل تعبر عن الشوق الكامن عند كل انسان للحرية والانطلاق - فالحلق المهسهس الطويل ، والخف المقطع ، والشعر المقصوص قصة غلامية ، والبنطال الطويل ، والكيس المعلق كل هذه بأوصافها المبتكرة تكون اطار الصورة الخارجي . ثم لننظر الى هذا الانطلاق الطائر ..

تقول للحن انهمر
اريد ان اطير
مع العصافير الشتائيه
الى مسافات خرافيه
اريد ان اصير
أغنية او جرح أغنيه
اريد ان ارود
جزائرا في الارض منسيه
ليس لها سور ولا باب ولا حدود .

ورغم هذا الايحاء الرائع بالانطلاق فان التجربة النفسية مفقودة بالقصيدة . وهي لوحة رسام مبدع اكثر منها اي شيء آخر .

واذا اردنا ان نرى كيف يتغلب الشاعر على الرسام في قصائد اخرى فلنقرأ « عند واحدة » (ص ١٤٣) التي اعتبرها اروع قصائده الشخصية تعبيرا شعريا مؤثرا ، تصور - كما لا تصور قصيدة عربية معاصرة - موت الحب وتلك المرارة التي يحدثها في اعماق النفس . انها قصة طلاق وفراق ومرارة سبقها فتور وجمود وموت . وها هو البيت الذي عرف باكورة اتصالهما وامتلأ بأنغام حبهما اصبح باردا صامتا . وهذا سجل الرسوم ترب وممشى البنفسج قفر في الحديقة والمعزف القديم ابكم والكتب مهجورة لا تقرأ - وها هو يقلب سجل الرسوم المكسو بالغبار فيرى صورة قديمة لهما .

هذا الفلام انا وانت معي ممدودة في جانبي .. لحنا
لا ليس يعقل ان صورتنا .. هذي ولسنا من حوت لسنا

هذه القصيدة هي واحدة من سلسلة قصائد اشعر انها كتبت لنفس المرأة هي ايضا « لن تطفئي مجدي » و « نفاق » و «الى ميتة» - ولكني اعتبر «عند واحدة»(١) ارقى القصائد الاربع شعرا وابدعها وصفا لهذا الموت في الحياة ، موت الحب .

وهكذا فان الاستاذ نزار يملك نوعين مختلفين من الشعر : الاول هو مجموعة صوره الجمالية الملونة المسربلة بالموسيقى والتي يقرأها الانسان فيشعر بجمالها ويحس بالغبطة ثم ينسى موضوعها بعد ذلك - والثاني هو ذلك النوع من الشعر الذي يعبر عن تجارب الشاعر ويعكس صورة نفسية لانسان في حالة معينة . وقد وجدت ان قصائده هذه لاسيما « حبلى » و « الى أجيرة » و « خبز وحشيش وقمر » قد عمرت طويلا في نفوس القراء، فليس هناك ، على مارأيت ، من نسي موضوعها او تحرر من تأثيرها عليه، على اختلاف نوع التأثير باختلاف شخصية القارىء. وهذا شيء غير مألوف ، اجمالا ، بالنسبة لجماعات القراء.

★

ليس من الضرورة ان يكون الشعر الذي يصف المجتمع،

(١) لا بد من التنويه بان عنوان القصيدة يوحي بشيء من الاستخفاف والعرضية لا يتفق مع اهمية العاطفة التي تعبر عنها القصيدة ولا ينسجم مع المرارة المنطوية عليها .

اجتماعي الموضوع – وفي نزار ، لم يكن ضروريا له ان يدخل المجتمع من النافذة لانه كان منذ البداية في قلب الصالة . فاذا كان نزار في شعره لم يصف جزءا من مجتمعنا ، فمن هم اذن هؤلاء الشباب والرجال الذين طالما عرفناهم والتقيناهم في صالات مجتمعنا وفي مقاهي لبنان واوروبا وحتى على بعض مقاعد الجامعات في الشرق والغرب ؟ وهل يظن القارىء ان ابطال « الحي اللاتيني » هم من ولائد مخيلة الدكتور سهيل ادريس ؟ وان الجوع الذي وصفه وابدع في وصفه هو من اختراع الفنان ؟ ان اهمية « الحي اللاتيني » تقع في انها تصور بدقة وصدق مدهش قصة فئة معينة من رجالنا، لا تختلف كثيرا عن تلك الفئة التي قدم نزار نماذج لها في شعره – نماذج ليست كلها نزار قباني .

وليقابل القراء بين موقف بطل « الحي اللاتيني » وتخليه عن صديقته القديمة وبين موقف بطل « حبلى » .

نحن العرب نميل تقليديا الى تمجيد شعرائنا ، وطالما اغرى هذا التمجيد الشعراء عندنا على ان يعيشوا نفاقا وان يجعلوا وجودهم كشعراء كذبة طويلة واهية . ولقد كان نزار رجلا عندما استمر يعيش حياته التي خلق ليعيشها دون ان يحاول تزييفها ارضاء لاي نقد او دعوة او درءا لتجريح . فان كان شرا ما يفعل بحياته فانه راض بهذه الحياة وليس هناك بلبلة وضعف في موقفه وهذا يكفي . اننا لا نستطيع ان نرفضه كشاعر لسبب على غاية من البساطة وهو انه صادق في ما يكتب كل الصدق – ولو « شمع » شعره بمثالية كاذبة كما يفعل عدد من الشعراء، لما أقنعنا ولا أثار اهتمامنا . ان شعره في المرأة يحرك في نفس كثيرين من القراء السؤال الملهوف ابدا « لماذا كل هذا الركض وراء المرأة ، لماذا كل هذه الحسية ؟ اهذه نظرة نزار قباني وحده ام انها نظرة مجتمع معين الى المرأة فيه؟» واذ تدرس هذه الاسئلة بأمانة وواقعية ، لا بد من التقرير بأن نزار قباني ليس غريبا عنا وليس شاذا في مجتمع مثالي .

فلنعرف جزءا من مجتمعنا من خلال شعر نزار قباني . انني أراه وثيقة اجتماعية هامة . والمرأة النزارية ، بطلة دواوينه الاولى ، التي تسيطر عليها التفاهة والغنج والدلال ، كانت الى سنين قليلة خلت مطمح انظار طالبي الزواج – وكانت الفكرة ان المتعلمة خطرة وكان الركض وراء الجمال القشري المحلى بزينات المدنية الحديثة – وهذه حقيقة مؤلمة في مجتمعنا ما زال لها انصار حتى بين بعض المتعلمين الى يومنا هذا . انه لن يكون بناء في مجتمعنا على مثالية منخورة الاساس .

واذا كان القلق هو اهم ما يسيطر على المجتمع العربي في الآونة الحاضرة فانه لا بد من الاعتراف بأن هناك ، في مجتمعنا ، فئات كثيرة لم تدخل بعد في دوامة القلق المعاصر ، الى درجة التحسس العميق . وعن هذه الفئات عبر نزار تعبيرا صادقا في دواوينه الاولى يوم وقف وقفة القبول من الحياة . انه عبر لنا عن روح جزء من مجتمعنا نحن نعرفه ولنا فيه اصدقاء واهل ومعارف . فالتنين الهائل الذي يمخر في أجوائنا لم يلتف بعد على جميع الرقاب بل استعبد بالدرجة الاولى الكتاب المفكرين منا ، والمحاربين المجندين للكفاح بطبيعتهم ، والفقراء ، وليس نزار ، أصلا ، واحدا من هؤلاء – ولكنه شاعر حسي رسام في شعره وعابد للجمال والالوان بطبيعته كانسان فنان ،

– التتمة على الصفحة ٩٤ –

الألفاظ

فليبعث حلقك بالالفـاظ ، فانَّ الالفاظ
هـواء
من يمسكه أو يمسـكها .. تلك الالفاظ الجوفاء
لكنْ هذي الالفاظ تهب هبوب الريح على وجهي
آناً تدفيني الالفـاظ الحرى
وتقفقفني الالفـاظ الباردة الصمـاء
آهٍ يا عمري ، ايامي توسم بالالفاظ
لفظ حـالم
قـد يولـد في ليـل ناعم
في حضـن النيـل الباسـم
لفظ مُصْمِت
واكاد اصيح بقائلـه : اصمت
فالجرح تدغدغـه الالفـاظ
لفظ قاتـل
لفظ ذو الف يد تلتف على عنقي
ذو الف لسـان تنفث سـما
لفظ يرديني .. لا قطرة دم
والسكّينُ الالفاظُ تشق اللحم
واظل أسائل ما تعني في خاطرك الالفاظ ؟
الفاظ قاتلة في رفق خالصة الكفين من الدم
أشياء تافهة هي عندك .. الفـاظ
كفّي ! كفي ! ان الالفاظ ثمـار الاشجار
أبهى ما تحمل من نوار
وكما انَّ الشجر الطيب
يعطي ثمرا طيب
فالانسـان الطيب
لا ينطق الا اللفـظ الطيب
يا سـيدتي ! يا بنت الصحراء الجرداء
فلتقتصدي ! فلتقتصدي في الالفاظ
الالفـاظ الجوفـاء ..

صلاح عبد الصبور القـاهرة

الى أصدقاء الشمس

مهداة الى الصين الشعبية ...وشعبها العظيم ...

يا أصدقـاءَ الشمس .. يا صانعي — براعِمِ التاريخِ .. منذُ انْثَغَرْ !

عُذْراً ، إذا غنيتُ في موطنٍ — كلُّ ارتعاشٍ فيه لحنٌ عَطِرْ

تَفَتَّحَ الفكرُ علـى دربكم — فالأرضُ غرقى بشهيِّ الثمر

والفن ، هـل يقرع محرابه — شعري ، وحولي مُعْجِزات السور ؟

فرائدُ الابداع .. مـا يشتهي — القلبُ ، وتستحلي الرؤى والفِكَرْ

حلَّيْتُمُ الدهرَ ، فكم روعـةٍ — على خطى الدهر ، وكم من أثر

يا صين .. يا أعـرقَ أنشودةٍ — باح بهـا ثغرٌ ، وغنّى وَتَرْ !

تحيةٌ ظمأى ، ولن ترتوي — وفي الثرى عن أي قيدٍ خبر

قـد كنتِ أحلامي وفجرُ الصبا — يغدو خيالي بأحبِّ الصور

بالروح أبناؤكِ هل صغتهم — جميعَهم من نَفَحات الزَهَرْ ؟

يكاد يندى اللفظُ في ثغرهم — أهوى على الثغر نسيمَ السَّحَرَ

ألناعماتُ الدلّ .. جاراتُنا — تقدّسَ الدلُّ ، وعاش الخَفَرْ

وأصدقـاءُ الشمس جيراننا — والمبدعو عالمنـا المنتظَرْ !

يا مطلع النور .. هوى شاعرٍ — يحلو الهوى في أرضه والسَّمَرْ

سأغمس الأوتـار في عبقرٍ — قـد يبلغ الظمآنُ بعضَ الوطر

جنانكِ نستلهم حمرَ الخطى — والدربُ مزروعٌ بدامي العِبَرْ

تباركَ النبعُ .. ولو شابه — في غفلة التاريخ بعضُ الكدر

فجّرتِـهِ الآن .. ولن ينثني — أو ترتوي أنتِ .. وتروي البشر

ألثورةُ الكبرى .. وفي أضلعي — يا أختُ منها عربيُّ الشرر

يضيئها عَبْرَ الدجى شاعر (١) — من لي بخيطٍ من ضياء القمر !

ألثورةُ العطشى .. خذي مهجتي — واسقي بها البركان أنّى هَدَرْ

لن تحملي وحدكِ أعباءَها — تأبى المروءاتُ ، وتأبى الذِكَرْ

تعرفكِ الصحراء .. يا أختها — والشعرُ والحبُ ، وأشياء أُخَرْ

كنا ، وما زلنا ، جناحَيْ ضحىً — حجولُنا مـلءَ الدنى والغُرَرْ

علـى الرمال السمر إعصارنا — يزلزل الطغيان أنّى زأر

في النيل من إخوتنا ماردٌ — وفي ذرى (الأوراس) منا نَفَرْ

لنا غدٌ .. نصنعـه مثلما — تَهْوىَ السواقي ، والندى ، والزَّهَر

غدٌ كدفـق الفجر ، لا يلتقي — فيه سوى الأحرار ، رغم القدر

في كل أرضٍ هيأتْ أمة — له ، كما هيأتِ ، عُرسَ الظَّفَرْ

بكين ـ آب ١٩٥٧ **سليمان العيسى**

(١) اشارة الى شاعر الصين وقائدها ماوتسي تونغ .

نمو تجربة قومية

بقلم مطاع صفدي

ان وعي القضية العربية من داخل (١)، بحيث تكون عملية الوعي ذاتها عاملا فاعلا في هذه القضية، بقدر ما يكون منفعلا بتغيراتها من نمو وفشل، من تبلور وتبعثر، هذا الوعي عندما يلتصق بوجود الفرد، من حيث هو فرد مناضل، وكبؤرة مشخصة لفاعلية الامة في جيلها الطليعي، نسميه تجربة قومية. ويصح عندئذ ان تدرس هذه التجربة كما يدرس أي سياق حياتي تتفجر خلاله خصائص فردية، تطل على عمق قومي وجودي يشمل بذرة التطور في الامة.

فالتجربة القومية هي معاناة تاريخية حية لا يمكن ان تتشخص الا من خلال الفرد. الفرد الذي هو ذروة بارزة على عمق الوجود القومي. ويصح ان نقول ان التطور الحي لوجود الامة هو للامة ككل. وهو بالاخص للموجة المتحركة منها، للجيل الموار. وهو كذلك، بخصوصية اكثر، للذرى النموذجية من هذا الجيل، لافراده الذين، بما لهم من اصالة قومية، وحساسية تاريخية بمفاصل التغير وتمثيل هذا التغير بدور طليعي، وبما لهم من قدرة على اختصار المخطط النفسي للازمة القومية، انما ينقلبون بذلك الى مطلق، أي يخرجون عن كونهم أفرادا نسبيين. وبالتالي يمكن ان يعتمد على وعيهم كينبوع للتقييم القومي.

ولا يكفي الفرد من خلال نموذجه النضالي، من خلال جيله المطور، ان يكتشف عمق التجربة القومية، وان يسبر تحولاتها المفصلية كمتفرج، وكمعان خارجي. ان المعاناة في التجربة القومية تفترض كون الفرد ذاته مصدر اغناء لها، وتحقيق لامكانياتها.

ومن الواضح ان اكثر الامم المتحضرة انما كشفت عن قيمتها وجدارتها، بالرجال الذين مثلوا فكرها وروحها وصنعوا لها اطارها التاريخي، وأبرزوا ملامح شخصيتها. فالعباقرة من فنانين وعلماء وقواد، هم البؤرة النيرة لروح الامة. ولكن بالنسبة لامة تمر في مرحلة بعث لوجودها ولقيمها، لا يكفي بالفنان والعالم والقائد فحسب كيما يحقق شخصيتها الجديدة. ان البعث القومي بحاجة الى جيل المناضلين أكثر من حاجته الى جيل العلماء والفنانين. وهذا الجيل هو الممهد، هو المقدم، هو الباذر بذور الحضارة الجديدة، التي لا يمكن ان تتضح الا بمحصول فني علمي صناعي فيما بعد.

ان وجدان الجيل المناضل هو محل التجربة القومية. هو خالقها، وبالتالي هو مؤصلها في وجدان الامة عامة.

عرفنا اذن ان معنى التجربة القومية هو المعاناة الحية لقضية الامة، وان هذه المعاناة ليست صحيحة الا بالقدر الذي ينيرها وعي مسؤول. وقلنا ان محل هذه التجربة هو الفرد من الجيل المناضل الفاتح.

فلنفحص بينة هذه التجربة عن قرب:

قد يظن لاول وهلة ان التجربة القومية توجد دفعة واحدة. وان وجودها هذا انعكاس حياتي لمبدأ ذهني، يأخذ به الفكر بعد قناعة وجدل عقلي خالص. حتى ان المبدأ ذاته لا يتأتى الا بعد تأمل طويل. والواقع ان معنى كلمة تجربة في الاساس يفهم منه هذا التحصيل المستمر لثمار المعاناة الحية، لجزئيات العمل وردود الفعل، سواء منها العقلية او الشعورية، هذه الجزئيات التي تؤدي اخيرا الى ردود موقفية واضحة.

فاذا كانت التجربة تحصيلا وترسيبا لمكتسبات التفاعل بين الانسان وملكاته من جهة، كالخيال والخصب العاطفي والتركيز الفعلي، وبين العالم الخارجي من جهة اخرى، بما فيه من افراد آخرين وقيم جمعية وحوادث شاملة تؤثر على قابلية هذا الفرد المعاني في التنبه والتكون بحسب التنبه ومادته في وجوده الخام، فان دور الفكر هنا لا يكون في الانارة المنفصلة عن الموضوع المستنير. ان من صفات التجربة القومية أن نضج عناصرها الواقعية هو الذي يجعل هذه العناصر ذاتها تشع بما فيها من معنى، بحركة استنباطية تكشف حقيقتها. ولكن نضج هذه العناصر يحتاج بدوره الى مقياس سابق عليه. فما هو هذا المقياس الذي يمكننا من معرفة قوة هذه التجربة، قوتها على الوجود المشروع، قوتها كحقيقة؟

ان هذا المقياس في الواقع هو الذي يؤلف المشكلة الحقيقية في فهمنا للتجربة القومية. وهو ما لا يمكننا الآن أن نتصدى له مباشرة. ولكن لنبين منذ الآن أن هذا المقياس ليس شيئا متعاليا عن التجربة ذاتها. وليس هو ابدا من مستوى المنطق العقلي الصرف.

انه وان كان صائر حتما الى ان يتشكل ضمن صيغة المبدأ، او ما نسميه العقيدة، فان المبدأ ذاته هو مخلوق تجريبي، هو المحصلة العقلية المتوازنة موقتا، في سبيل تجاوز نحو محصلة لها توازن آخر. وذلك كله لان التجربة القومية هي عمل الحرية في معطيات الواقع. وهي كذلك من طرف آخر، الواقع وقد استجاب لحرية حقة فاعلة. وفعل الحرية في معطيات الواقع لا يفهم الا اذا تصورناه على طريقة تأثير الانسان الصانع في المادة القابلة. وتأثير الحرية في الواقع هو عملية تأنيس له بواسطة تكوينه مرة ثانية حسب قيمة معقولة.

فالتجربة القومية اذن تتوحد — ان صحت الكلمة — وكل فهم لها، او تقييم لخطوطها ينبغي ان ينبجس عن معطياتها لذاتها. وكذلك فان وعيها لن يكون الا أقرب الى الحدس الفني بانتاج مبدع. اذ ان التجربة في حد ذاتها ميزة نادرة، كالانبجاس الفني سواء بسواء. وصحيح ان التجربة قد تشمل القسم الاعظم من الامة، الا ان الامة من حولها هي كيان كلما ابتعد عن صميمها، كلما تشيأ، وأصبح تخثرا عاميا وبالعكس كلما اقترب من هذا الصميم، كلما شف وتركز كله اخيرا في نقطة ضوئية واحدة، هي حياة الامة عبر خالقيها من الجيل الفاتح.

ولكن التجربة القومية بقدر ما يستقطبها وجدان الفرد المناضل، فانها

(١) فصل من كتاب «فلسفة البعث العربي» الذي يصدر قريبا

هي ذاتها تنبيء عن خلق الامة ، لا باعتبار الامة مجموعة افراد ، وانما باعتبارها هذا المجال الوجودي لنمو شخصية الرسالة . ان الامة ككوين وجودي ، ورسالة انسانية ، هي التي تعايش تجربة قوميتها ، من حيث هي مبدأ صالح لان يحتذى من قبل أجيال ، ولان يبني في تاريخ العالم حرية مسخصة مبدعة ، كذلك التي تحققها امة مشروعة عند أبنائها ، مشروعة عند أبناء الانسانية .

ولقد كان العرب القدامى ، عرب الجاهلية - عصر البداءة - دونما اطار اجتماعي واحد ، يقيمون صلة الوصل بينهم على اصالة الدم . والدم العربي في حدسهم آنذاك ليس هو الدم المادي الاحمر الذي يجري في عروق الآباء الى الابناء والاحفاد . كان الدم تعبيرا مشخصا عن مدى مشاركة الفرد لتجربة المثالية المستمرة التي كان الروح العربي يهيمن بها على نفوس الاجيال الصاعدة لان يكونوا عربا .. أي لان يكون الفرد منهم نموذج حريته . هذه الحرية التي يقدم الواقع العربي دائما عنها امثالا حية في الشاعر والخطيب والكريم والذائد عن حياضه والحكيم .. كانت مثالية مجسدة في الواقع . وما على الشاب الجديد الا أن يبحث له عن ابداع آخر من خلال تجربة حافلة ترددها القبيلة في عشياتها حول النيران الكريمة .

كان مقياس الاصالة ، مقياس تمثل الفرد للتجربة القومية عند جاهليتنا ، واضحا مشخصا في الابعاد اليومية لحياته . بل كانت التربية نوعا من التلقي الطبيعي لنزوع الذات ولتجسيم الجماعة لهذا النزوع ضمن نموذج من الوجود . وما كان وجدان العربي ليحس حقا بالتعارض بين نزوعه وبين تجسيم الجماعة لهذا النزوع . وما كان العالم الخارجي يشكل عقبة اليأس ، والردة الى فردية متجانسة كيفا مع الكل ، الا من التعداد الكمي ، كما هو في مجتمع آسن . فالمقياس ، مقياس أن يكون الفرد اصيلا ، جاهز في معطيات الحياة اليومية ، وفي وجدان الجماعة كما في وجدان الشاب الصاعد . ومن هنا لا يصح ان نقول أن هناك أزمة او تعارضا او انقساما في صميم الفرد ، ثمة تناقض بين نزوعه وبين تلقي الواقع لهذا النزوع ، بين مثاليته الفطرية وبين قصور العالم الخارجي عن فهم هذه المثالية وتربيتها ، والارتفاع الى مستوى امكانية الحرية الخبيئة خلال ألسنة اللهب .. القلق العارم الذي يجتاح اليوم وجدان أجيالنا الصاعدة .

فالتجربة تفترض هذا التلمس الشيق المكافح لمقياس مفقود موجود معا ، عبر غابة من الارتدادات والفتوحات ، من الهم واليأس والامل الشيطاني ، من الشك والصمود امام الشك ، من الهدم والارتفاع فوق الركام .

ولكن تجربة الجاهليين لم تكن من هذا التأزم ، من هذا الاحتمال الواجف لانتصار او لانكسار ، لفرح او فشل ، لنمو او بور مفاجيء ، وان كان مع ذلك ثمة بذرة للقلق فيها نوع من التوثب الذي يحرق نفسه في سبيل متابعة الطريق ، المفتوح المعروف ، للوصول الى أقصى ذروة . ثمة قلق لتحقيق طبيعة واقعية في أبعد امتداداتها . وهذا هو سبب الهوس المحموم بالتفاضل والتفاخر والتكارم الذي لا ينتهي . كان انسان الخيام يتحول الى مطلق صغير ، ومن هنا كان لا بد من تطور حاسم في نمو هذا التضخم الانساني عبر حدود ضيقة من انفساح العالم ، الاقتصادي والانساني منه . كان صراع الابطال يكاد يتحول الى جحيم أرضي تأكل ناره نوره . ان تضخم الحرية عند عرب البطولة العنيدة الواحدية - أي التي ترفض المشابهة والمماثلة - يجب ان يقود في النهاية الى عقيدة من القيم والتفاؤل بين النزوع الفطري والجسيم الواقعي الخارجي . كانت السماء هي الطرف المفقود من التجربة العربية. والسماء هنا هي رمز العقيدة الثابتة في نظم وقواعد . وما كان للعربي ان يحد من طفوح كرامته ، ان يطامن من تعاظم شعوره بالقدرة على الوجود الى اسمى وجود وأقواه ، الا تجسيد هذه الحرية في مطلق اعلى . ولهذا جاء الاسلام ، في اصالته العربية - قبل التهجين الشعوبي - تعقيلا لفلسفة العربي في الانسان من حيث هو ينبوع قيم ، وتأليها للنموذج الاخلاقي العربي ، مما يجعله نموذجا انسانيا عاما . كان العرب في الفتح الاسلامي ، جيلا جديدا من الانسانية ، على الانسانية ان تحتذي به سلوكا وروحا . كانت فلسفة الفتح عند العرب ان يلعب دور القائد بالنسبة لانسانية .. هي دون عظمة العقيدة .

ولا نريد الآن ان نتابع هذه التجربة الى أقصى تطوراتها عبر التحولات التاريخية التي عانها الاسلام ومن خلفه العرب ، فذلك يحتاج الى مقال آخر . ونكتفي بالقول ان التجربة القومية ، من حيث هي هذا السياق الحياتي المطبوع بالتمزق والتأزم ، وهو في سبيل تلمس ما هو حق ومشروع ، ما هو مقياس للوجود على مستوى المثل والواقع معا ، قد بدأت ببدء الصراع الخفي داخل الاسلام . وهو صراع واحد اتخذ اشكالا منضدة بحسب قربها أو بعدها عن مطلق الازمة الوجودية التي يمكن ان تثار لدى كل شعب يحاول حرية جديدة في العالم . فهو صراع سياسي بين عربي وشعوبي ، وصراع فكري بين عقيدة انسقت الى عقائد . وصراع بين ارادة الخلق ومادة مطاوعة وقاسية معا. وصراع

- التتمة على الصفحة ٦٥ -

عشرون الف قتيل ... خبر عتيق !

(يقول سارتر ... « انه حديث لا يلذ احدا ولكن لنثبت المسمار »

ومنذ امد بعيد ونحن نتحدث بأحاديث غير سارة حتى تعودنا هذاالحوار المتأزم وتعودنا هذه الوحشة التي لا تقبل الامتزاج بشيء وتعودنا ان نتمشى لوحدنا على ساحل دجلة كل امسية بتراخ مؤلم ونحن نمسح عرقا ونطرد ذبابا ونتحدث مع انفسنا حديثا غير سار .. وليست تلك هي المشكلة .. فالمشكلة في هذه الارادة هي في ان نثبت المسمار ولماذا وأين ..؟

في هذه القصيدة محاولة .. في الماضي كنا نصمم موتنا لحد ما .كنا نموت ونحن نجاهد من اجل دين ، وكنا نموت ونحن نريد ان نثأر ، ونموت ونحن نحب. اما اولئك الذين ماتوا في هيروشيما واولئك الذين سيموتون في غيرها .. أتراهم صمموا موتهم ؟ أتراهم أدركوا ضرورة موتهم ؟ واولئك الذين الفو بالقنبلة ، كيف برروا لانفسهم قتل طفل غير متحيز وام غير واعية وقتل شخص محايد ، وآخر ربما يؤمن معهم ..؟ انه قتل من نوع جديد .. لقد ماتوا أرقاما بلاصفات انسانية .. ماتوا كقطيع من الغنم .

اعتذر لهذا التوضيح .. انه ليس توضيحا ولكنها الحاجة الى التحدث بحديث غير سار .)

صوت المذيعْ
متخشب شاءوا له ان لا يُحسَّ بما يذيع
(لنـــدن)
وتدق بك بن
دن دن
(لنـــدن)
(عشرون ألف ..)
ــ لا كفى ، خبر عتيق كالمذيع
وتقول انت ــ من الحفاةِ
وتقول انت ــ من القطيع
وعلى شـفاه اخريات
صوت يتمتم كالصلاةِ
امي تتمتم في صلاةِ ــ رباه احفظ لي حياتي

✻

امـاه .. يا امي رصاصة في جنبي المدمي
لا تبعـدي عني
كالكلب هـا اني أموت مـن اجلك يا امي
لا تبعـدي عني

✻

وحدي انا وغدا أموت مع القطيعْ
وحـدي
رأسـي هنـــا
رجـلي هنـــاك
ويدي تشد على يدي .. الم" فظيـع
ومـن هنـاك ومـن هنـا
صــوت المذيـع
متخشب شاءوا له ان لا يحس بما يذيع
(لندن)
وتدق بك بن
دن دن
(عشرون الف ..)
ــ لا كفى ، خبر عتيق كالمذيع
(قُتلوا ليحيــا الاخرون)
فتقول انت ــ من القطيع
(قُتلوا لتزدهر السنون)
فتقول انت من الحفاةِ
وعلى شـــفاه اخرياتِ
صوت يتمتم في صلاةِ ــ رباه احفظ لي حياتي

✻

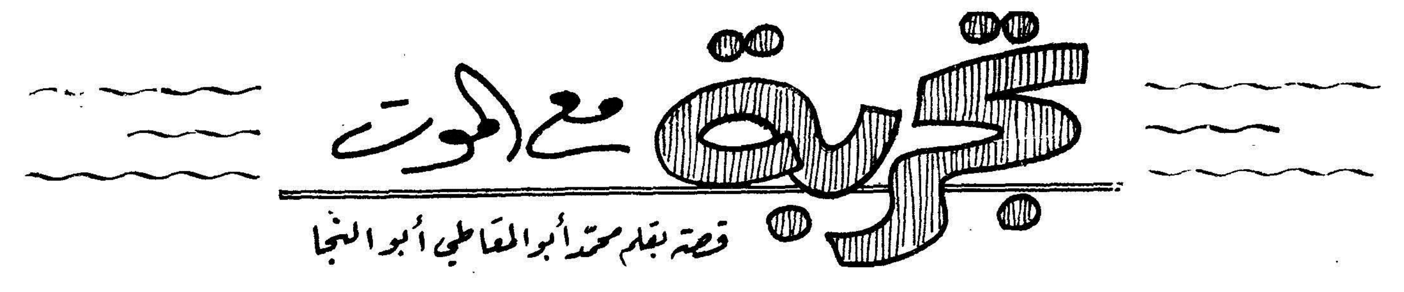
اماه ... يا امي هنا بلا حبي ولا بسمتي
اغـور في الطـين رغم السـنا المطفأ في غرفتي
وسـوف تنسيني رغم الغـد الفارغ يا امي
اغـور في الطـين

✻

وحدي انا ويدي تشد على يدي .. الم" فظيع
ومـن هنـاك ومـن هنـا
صـوت المذيـع
متخشب شاءوا له ان لا يحس بما يذيع

بغـداد

بلنـد الحيدري



(الى أرواح شهداء معركة بور سعيد)

« هناك في الحياة اشياء كثيرة يمكن ان نحددها وان نؤكد موقفنا حيالها. فبمقدور انسانما أن يرفض ثروة مفاجئة او يضع حدا لقصة حب او ينفق جزءا من حياتهعبدا لفكرة او شخص . ولكننا حيال تجربة واحدة . تلك هي التجربة التي نواجه فيها الموت بنوع من الاختيارلا يمكننا ان نحدد شيئا او ان نؤكد موقفا ، لان المشاعر والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجزحتى عن ان نحدس به ونتسـاءل دائما ونحن داخل التجربة وحتى بعد ان نخرج منها كيف كان ذلك ، واحيانا قد لا نظفر بجواب . »

كانا يتحدثان ، وقد افترشا قطعة كبيرة من المشمع ، وفك كل منهما بندقيته الى اجزاء يسهل تنظيفها ، وبينهما جردل صغير مليء بالكاز ، يغمسان فيه بين لحظة واخرى قطعة القماش التي تستعمل في التنظيف . وفوق الارض الرملية التي جلسا عليها كان يمتد ظلان يحجب احدهمـا مساحة من الارض اوسع مما يحجب الآخر ، وبينما تبدو المساحة الكبرى هادئة تميل الى الاستقرار كانت المسـاحة الاخرى تبدو متحركـة لا تكاد تستـقر ...

كنت انا صاحب الظل النحيف المتحرك .. وفي اللحظات التي كان ينقطع فيها الحديث مع صديقي ، كنت أعدو بخيالي الى ارض المعركة التي سنخوضها بعد ايام ضد الاعداء. كنت اجد لذة غريبة في تلك الصور التي يرسمها خيالي للمعركة التي سنصفي فيها حسابنا مع اسرائيل . على انني اكون اقرب الى الحقيقة اذا ما قلت ان هذا الاحساس السار لـم يكن هو ما شعرت به في البداية ، اعني في صباح الاربعـاء الذي ذهبت فيه الى الكلية لأجد فوق لوحتها الاخبارية تلك العبارة : « قف فالوطـن يناديك . بادر بالتطوع . التخلي عن المسؤولية جريمة » لقد احسست وقتها انه ليستقدماي وحدهماهما اللتان توقفتاوانما كلحياتي،كلمشاريعي للمستقبل ، كل ذلك قد توقف واستدار الى ناحية اخرى يكمن خلفهـا المجهول ، وغمرني شعور رهيب بالقلق .. ثم لم يلبث ذلك المجهول ان تكشف عن معسكر بمدينة بور سعيد يموج بمئات من الشبان وبملابس صفراء وبنادق واصوات آمرة ووجوه تضحك في صلابة وانا وصديقي صبـري .

وفي لحظات الراحة كنت اجلس مع صبري ننظف البنادق ونثرثـر . اما في فترات الصمت التي قد تتخلل الحديث ، فقد كنت اقفز بخيالي الى ارض المعركة . لم أكن قد شهدت حربا من قبل.. كنت اتصور نفسي ازحف في الرمل ويداي مشدودتان على البندقية ، وعيناي تخترقان الظلام، وأصوات الرصاص تمزق السكون حولي ، وانا اعـوق زحف الاعـداء ، واحيانا كنت اتمادى في الخيال فأتصور ان رصاصة اصابتني وأنني بدأت أحس دمائي تنزف وتصبغ ثيابي وخواطري بلون احمر . ومع ذلك فقـد كنت استمر في اطلاق الرصاصات . فالرصاص يعوق زحف الاعـداء حتى

ولو كان الذي يطلقه يطلق معه آخر أنفاسه . كنت اجد لهذه الصـورة الاليمة جمالا خاصا ، واحس فيها لونا من النبل لا يوصف . ولم تكـن هذه الصور تفارق خيالي في لحظات الصمت العارضة خلال أي حديث .. كنت أتمنى ان افرغ من التدريب حتى احمل بندقيتي واخرج لأوقف زحف العدو ، ولكن الاحداث كانت تتطور بأسرع مما كنت اتصور . لقـد حملت الانباء اول بلاغ حربي عن اشتراك انكلترا وفرنسا في المعركة ضـد مصر . ولم يغير النبأ كثيرا من موقفي حيال الصورة التي كنت لا أزال أعيش في جوهـا الغريب . وقلت لنفسي : ماذا يتغير في الموقف حـين يشترك كل هؤلاء الاعداء ؟ لا شيء . فاذا كانت قصة المأساةان يموت الانسان فان الموت لا يختلف ـ حين يقاتل ضد دولة او عدة دول لا يهم ، ما دام الموت نفسه لم يعد امرا مخيفا ! الحق انني حتى تلك اللحظـة لم اكن قد خضت تجربة مع الموت ، لم اكن قد رأيت ظله عـلى وجـه انسـان .. ولكن الذي كنت اعرفه تماما ان علينا ان نقاتل ما دام الاعداء قد وضعوا قضية حياتنا في هذا المستوى الذي يفقد فيه الاختيار كل معناه .. كأن الموت لا يزال يبدو دائما في تلك الصورة التي لا تخلو من سحر ومن خواطر تتناسب مع الدماء النازفة .. وعيون تمتص في نهم وقبل ان تغمض كل جمال الحياة ..

ـ سنقاتل ، اليس كذلك يا صديقي صبري ؟ سنقاتل الى آخر قطرة مـن دمائنـا .

نطقت بهذه العبارة دون ان ارفع رأسي عن أجزاء البندقية المبعثـرة أمامي ، ودون ان أرفع رأسي ايضا سمعت صوت صبري :

ـ لن نكون وحدنا يا عزيزي .. سيقاتل معنا كل الاحرار في العالم .

ويضحك صبري وهو يقول :

ـ ان تقدم وسائل المواصلات في العالم هو الذي سينقذنا . لا تضحك فبدون تقدم هذه الوسائل كان من الممكن ان تستبد الدول الكبـرى بالشعوب الصغيرة كما كانت تفعل في الماضي . ان المواصلات لا تنقل فقط البضائع ولكنها تنقل ايضا الافكار . ان الافكار التـي تدافـع عن السـلام وعن حرية الشعوب الصغيرة هي التي سوف تساعدنا ، لان هذه الافكار توجد داخل رؤوس ، وحين تتحرك هذه الافكار تتحرك معها هـذه

الرؤوس . أفهمت ؟ انا لا اخاف لهذا السبب . اننا لن نقاتل كل هـؤلاء الاعداء وحدنـا .

كنت أعرف أفكار صديقي جيدا ، والحق اني كنت أختلف عنه كثيرا .. كان يعرف جيدا وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا، ويلذ له دائما انيتحدث عن جدوى تقدم المواصلات في العالم ، الشيء الذي لم اكن اطيـق الاستماع اليه كثيرا . كنت أحب الادب وأتذوق كل ما في الحياة مـن شعر . وكنت احب أيضا صديقي صبري . كانت علاقتي به حصيلة عشرة اعوام من الزمالة الطويلة في المدرسة والكلية والبيت والشارع . وكـان صبري في تلك اللحظة ينظف ماسورة البندقية وقد انكفأ برأسه الى الامام ففطى شعره اعلىجبهته وبدت اصابعه الغليظة وهي تقبض فيصلابة على البندقية .. ورفع صبري رأسه فبدا وجهه الممتلىء يتالق بنظـرة جادة صارمة ، وقال :

ـ اسمع .. سأقول لك شيئا .. انا سعيد بهذه الحرب لا تدهش . نحن شعب في حاجة الى ان نخوض هذه التجربة . هذا ما كان ينقصنا منذ زمـن بعيد .. ان الشخص الذي يحمل البندقية ويأتي الى هنـا ليواجه الموت يتبدل شخصا آخر تماما .. ان حياتنا في هذه البقعة من العالم يقتلها ذلك الطابع العجيب : طابع الهدوء والامن والرتابة . ان كل شيء هنا هادىء ، الطبيعة والارض والناس .. تصور انت طريقة مواجهتنا للمشكلات ، اعني انت وانا . هل تذكر نوع المشكلات التي كانت تؤرق حياتنا في الاشهر الماضية ؟ تأملها الآن : هل تساوي واحدة منها ان تفقد حياتك ؟ ان وزنها يخف يا صديقي ، اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس وغالبا ما نكتشف ان مخاوفنا الماضية لم تكن تليق ابـدا بكبريائنا البشرية ، تلك التي لا نكتشفها الا في تلك المواجهة . اننا هنا نكتشف امكانياتنا . ان الذين يعودون من الحرب غالبا ما يبدأون حياة جديدة ، حياة يشعرون انهم كسبوها من الموت بعرقهم وانها ليست منحة، لذلك فانهم غالبا ما يشعرون بقيمتها . اننا يجب ان نكتشف قيمة حياتنا من خلال هذه التجربة ، ان ...

ولم يتم صديقي حديثه فقد انطلقت صفارة الانذار تعلن عن بدء غارة جوية ، ولم نكن قد أعدنا تركيب البندقية ، وهممت بالتحرك للجوء الـى المخبأ القريب .. وهمس صديقي :

ـ لا تخف .. سوف اعيد تركيب البندقية بسرعة .. ان هذه الغارة في طريقها الى القاهرة . ان دورنا لم يأت بعد .. ثم ان الغارات قـد اصبحت شيئا طبيعيا لا يجب ان يقطع مثل هذا الحديث .

كان صديقي يعمل بسرعة لانهاء تركيب البندقية .. اما انا فقد كنت أرقب هدوءه بغيظ وصمت .. « دعها يا اخي ، سوف نعود بعد انتهاء الغارة . » وقبل ان اتم عبارتي كنت اهرول نحو المخبأ ، كنت جبانا اذ ذاك، لست ادري فقد خيل الي ان عيني صديقي كانتا تقولان ذلك حين التفت اليه لاطالبه مرة اخرى بأن يسرع قبل ان اغيب في المخبأ

لا زلت اذكر كل شيء . فقد بدأ يختلط صوت الطائرات المغيرة بطلقات مدافعنا المضادة . وبدا واضحا ان بور سعيد هي المقصودة في هـذه المرة .. كانت طلقات المدافع تشتد ودوي الطائرات يقترب ، وعينـاي مثبتتان فوق مدخل المخبأ في انتظار صديقي . وفجأة دوى صـوت انفجار هائل ، وللحظات لم اكن اشعر بشيء . كانت الانفجارات تتابع وكنت عاجزا عن وعي الموقف . لقد تصلبت يداي فوق الكتف المجاورة لي وتحولت الى شيء .. شيء ممكن ان يشعر به أي كائن سواي .

ومرت لحظات رهيبة كنت خلالها قطعةمن الرعب.وظلت عيناي مغلقتين، بيد انني لا زلت اذكر شيئا .. اذكر ان اول ما رأيت حين اغمضت عيني كان صديقي وهو يحاول ان يعيد تركيب البندقية .. لماذا لم يعد ؟ لعله عاد . ولم اجرؤ على فتح عيني حتى لاتأكد من ان صديقي لا يزال فـي الخارج .. كانت الانفجارات لا تزال تتابع ، وكنت في كل لحظة اتحسس الكتف المجاورة لي وبدأت أحس ان ارض المخبأ صلبة تحت قدمي وانهـا لـن تسمح لنا ابدا بأن نختبىء في داخلها اكثر .. ولم اعد اشعر بالزمن فقد كنت اكتشف باستمرار انني لا ازال حيا لا ادري كيف مر بنا الزمن. فحين اطلقت صفارة الامان تعلن انتهاء الغارة احسست كأنني اوشك ان اسقط في هوة عميقة . لقد كنت قبل لحظة احس بأنني تحولت الىجزء من هذه الكتلة البشرية التي جمدها الخوف . وحين انتهـت الغـارة بدأت هذه الكتلة تنحل الى افراد يغادرون المخبأ ، اما انا فبدأت اتهاوى فوق الارض . وخلا المكان ولم اجرؤ على الخروج .. لقد تذكرت صديقي ولم اكن في حاجة الى ان استنتج انه بقي في الخارج ، وكنت ابصـر الاشـياء خارج المخبأ في وجوه رفاقي الذين خرجوا ..

لا يمكن ابدا ان انسى هذه اللحظة ، ولا هذه الوجوه . كان احساسي بالعـار والخجل اعظم من ان يذوب في احساسي بأنني لا أزال حيا . ربما كان هذا هو الذي دفعني لكي اخرج في النهاية ، لكي أتعذب برؤية الاشياء في الخـارج . وجررت قدمي . ولاول وهـلة لم اتمكن من رؤية شيء في وضوح ، لقد غرقت في طوفان من الاشياء المختلطة . « حذار من القنابل التي لم تنفجر ... هناك طريق من الناحية الاخرى . لقد نسف خرطوم المياه في المعسكر ، المطافىء في الطريق ...» وشيئا فشيئا بدأت ادرك الاشياء في وضوح ... بدأ الطوفان ينحسر . وكان اول ما انطبع فـي نفسي انني في مكان آخر غير الذي كنت فيه قبيل الغارة . كانت معـالم المكان قد تغيرت تماما وتحولت ارض المعسكر الى حفر ضخمة تحجبهـا عن الاعين « اكوام » من التراب . وكانت مباني المعسكر قد تحولت الـى حطام . وكان بصري منذ البداية يفتش عن المكان الذي تركت فيه صديقي، ولم اجد المكان : كان قد تحول هو الآخر الى حفرة ضخمة ولم اجـرؤ على ان اقتربمن الحفرة . وتحدث في داخلي صوت مرير . اذا لم يكن صبري في اي مكان آخر من المعسكر ، فلن أذهب تجاه الحفرة . وفتشت في المعسكر كل مكان آخر ولم أجد صبري. وفي خطوات ذاهلة عدت لاستجيب لاوامر القائد الذي راح يعدنا لمواجهة الموقف . كنت انفذ الاوامر في ذهول ... كان الامر بشعا .. كانت تلك اول تجربة لي مع الموت . واحسست بسخف افكاري عن الحرب . وبدت لي صورة « البطل الذي يزحف فوق الرمال » مضحكة الى حد كبير . لا شك ان البندقية سـلاح انساني يسمح للمحارب بان يموت في بطء وبان يجد وقتا يبرر فيه موته ويتذوق فيه معنى كفاحه وان يودع الحياة بنظرة ... ان صبري لم يجد مثل هذا الوقت . لقد تحول في لحظة الى لا شيء .. واحسست بسخط هائل يجتاح نفسي وكره عميق اسود . لماذا ؟ وعلى اي شيء ؟.. فـي تلك اللحظة لم اكن ادري . فقط كنت احس انني اكره كل العالم ، حتى ... نفسي .

★

لم يكن ما اشعر به في تلك اللحظة هو الخوف ... كان شيئا آخر تماما ، كنت جائعا !. وبدأت اتذكر انني لم اذق طعاما منذ .. لا أكـاد اذكر.لم اكن اتصور انه من الممكن ان يشعر الانسان بالجوع في مثل هذه الظروف. لم اكد احاول القيام حتى احسست بمعدتي كأنها قطعةمن الفراغ في داخلي

... كان توازني يختل ، وتهاويت فوق قطعة من الحصير التي كنت ممددا فوقها ونسيت ساقي تماما، نسيت انها ما كانت بمقدورها انتحملني لو حاولت القيام ، وتلفت حوالي : كان كل شيء كما هو ـ منذ غفوت. كانت عيناي قد الفتا الظلام وحفظتا مكان كل شيء في الحجرة الصغيرة المعتمة ، واطمأننت الى ان احدا لم يأت الى هنا . وابتسمت لسذاجة خواطري ، فلا ريب انه لو قدم احدهم الى هذا المكان لما استيقظت الى الابد ... وامتدت يدي الى البندقية المجاورة ، وحاولت ان احرك ذراعها فلم استطع . كانت صلبة تماما . لا بد ان مجرى الذراع قد تلوث بالغبار ، لكني مع ذلك كنت استعملها بسرعة جدا ونحن نصطاد جنود المظلات في الجبانة والغبار يملأ حتى عيوننا . وبدأت ادرك انني مرهق تماما . كانت البندقية تثقل على ذراعي فالقيتها جانبا وفي تلك اللحظة فقط شعرت بالخوف ... خيل الي انهم لو هاجموا هذا المكان لما تمكنت من الدفاع عن نفسي ، وبلا شعور عدت اجذب البندقية الى جواري مرة اخرى . وعاودني الاحساس بالجوع حادا هذه المرة، واحسست فمي جافا تماما . متى يأتي حسن ؟ امن الجائز ان شيئا اصابه ؟ انه امر مفزع حقا الا يأتي هذا الصبي . لا ريب انه تأخر جدا عن موعده . ومن الممكن ان يحدث اي شيء .. ان يكون حسن قد اصيب وان استمر هنا حتى اموت جوعا. وعاودني الاحساس بالخوف . انه من المخيف جدا ان يشعر الانسان انه لم يعد متأكدا من شيء ، وان الاشياء القادمة سوف تقع بمحض المصادفة . ووجدتني بلا شعور ابتسم .. خيل الي انني كائن يدعو الى الضحك . لماذا افكر بهذه الطريقة ؟ لماذا ؟ ابدو امام نفسي كفار محاصر ..؟ ماذا حدثلي ؟ لا ريب انني اختلف تماما عن هذا الشخص الذي خاض معركة امس الاول والذي قبله.. لم اكن هكذا ابدا . وتسللت خفقة من الهواء البارد الى ارض الحجرة الرطبة من اسفل الباب المغلق، فشملتني رعشة طارئة ، وشعرت بآلام حادة تسري في ساقي مكان الجرح المضمد . وحاولت ان اتشبث بذلك الشخص الذي خاض معركة امس الاول والذي قبله ، وظل يقاتل دون ان يشعر بالدماء تنزف من ساقه .. كان قويا جدا .. وظللت اتأمله كما لو كان شخصا آخر تماما ..

✶

كان الجرح ملوثا بالتراب .. وكان كل مكان يقف فيه يلعق ذلك الجرح ... لا زلت اذكره واذكر في وضوح تلك اللحظات . كان احساسه بالجرح قد تلاشى تماما منذ بدأ يذوب في تلك الجماهير التي اندفعت في شوارع المدينة كسيل مجهول المنبع . كان يحس ان هناك كائنا ضخما يملأ شوارع المدينة . كائن ظهر فجأة وفي كل مكان . خلف النوافذ الواربة ، وراء بقايا البيوت المهدمة . في كل مكان من المدينة كان يوجد لهذا الكائن الضخم ذراع تقاتل الاعداء في شراسة . واحس انه يتلاشى ، هذا الكائن وانه أصبح مجرد ذراع في جسد هذا العملاق.. ربما كانت كانت تلكهي المرة الاولى التي احس فيها ان بور سعيد ليس مجرد اسم لمدينة ... انه شيءحقيقي..شيء ضخم .وبدأ يشعر بنوع منالامن لاحتمائه بهذا الكائن الكبير .. كانت بور سعيد كلها تقاتل .. النوافذ والحارات والابواب المواربة والاسطح وبقايا البيوت المهدمة .. واحس وقتها ان بور سعيد كبيرة جدا . كانت هناك بيوت كثيرة لا تزال ترتفع في شموخ . كان يبصرها كلما رفع رأسه . واذرع لا حصر لها تحمل البنادق . صحيح انه كان يحس بالارهاق في لحظات خاطفة ، ولكن من المستحيل ان يصيب الارهاق كل هذه المدينة ، انها كبيرة جدا .. ان بعض رفاقه يسقطون الى جواره ولكن هذه المدينة تبدو شيئا آخر غيرهم . انه لا يمكن ان تموت هكذا كما يموت البشر .. ان الطائرات تدكها منذ ايام ولكنها تبدو شيئا آخر غير البشر . واحس بحب عميق لمدينته .. كانت نظراته تذوب فوقها تضيء الظلام ودوي الرصاص لا ينقطع لحظة والاحجار تتطاير في كل مكان. وكان هناك سؤال يضيء في رأسه : ماذا بمقدور الاعداء ان يفعلوا اكثر من ذلك ؟. وفي ضوء هذا السؤال كان يدرك ان هناك فرقا هائلا بين ان تحتل مدينة وبين ان تستسلم .. حقيقة ان دبابات الاعداء تقتحم بعض الشوارع ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟. ما دام على هؤلاء الاعداء ان يدافعوا عن كل لحظة من وجودهم . كان قويا جدا . كان يشعر ان اي قوة في العالم لا يمكن ان تهزم مدينته .ومعذلك فقد فتح عينيه ذات لحظة ليجد نفسه في تلك الحجرة المعتمة والى جواره صبي في الخامسة عشرة من عمره مهوش الشعر يلبس جلبابا قذرا ويتحدث في صوت خفيض بعبارات مفككة :

ـ أخويا جابك هنا . علشان مفيش تفتيش في الحتة دي... و ...

ومن خلال كلمات الصبي البطيئة المتقطعة فهم ان حالة اغماء اصابته اثناء المعركة بتأثير الجروح وان شقيق الصبي حمله الى تلك الحجرة او تلك الدكانة التي كان يبيع فيها السمك بعد ان ضمد جرحه احد الحلاقين...

ـ أخويا جلال بيشتغل صياد ولنا مركب في البحر . وكان بياخدني معاه جوا البحر نصطاد بالصنار . وفي اليوم اللي كنا نصطاد فيه كثير،كان أخويا يديني حته بخمسة ..

وظل يثرثر عن اخيه وكيف انه بعد ان يفرغ من بيع السمك يروح يشتغل في المينا.. « أصله ـ ويبتسم حسن في خجل وهو يتابع حديثه: عاوز يتجوز ، وعاوز يجيب فلوس كتير.. تعرف مين؟.. سعدية بنت المعلم حسنين صاحب قهوة المنظر الجميل ـ لما كنت اروح اوديلهم السمك في البيت كانت سعدية هي كمان بتديلي حته بخمسة ... » وينسى الصبي في غمرة حديثه عن سعدية وجلال كل شيء عن المدينة .. وعن الحرب ... ولكنه لا يلبث ان يتذكر فجأة ان عليه ان يذهب لانه يقوم بتهريب الذخيرة الى رجال المقاومة حيث ينتظره اخوه هناك ، ويصبح من مهمته بعد تلك اللحظة ان يأتي بالطعام الى هذه الدكانة ، وان يكون حلقة الاتصال الوحيدة بين هذه الحجرة وبين الحياة في المدينة التي تقاتل .. واغلق حسن الباب خلفه وادار فيه المفتاح ومنذ تلك اللحظة لم يعد !..

✶

كنت اشعر انني مختلف تماما عن هذا الشخص الذي كنت اتذكره .. كأنما اختفى هذا الشخص تماما في خطوات الصبي الذي خرج لينقل الذخيرة الى رجال المقاومة .. كنت اشعر ان ظلام الغرفة يثقل على صدري ويصبغ خواطري بلونه القاتم . ماذا حدث لي ؟ لم اكن اتصور انه من الممكن ان تتغير مشاعر الانسان بتلك الصورة . كنت عاجزا عن ان اغالب ذلك الخوف الذي بدأ يستبد باعماقي .. وتذكرت امي في تلك اللحظة. شعرت برغبة جارفة في رؤيتها .. صحيح انني لم اخبرها بسفري الى بور سعيد . ولكنها علمت بلا شك .. ترى ماذا تظن بي الآن ؟ وتصورتها في طرحة الصلاة البيضاء وهي تدعو لي . أيمكن ان يستجيب الله دعاءها ؟. واحسست بسخافة افكاري. فلا ريب ان صبري تلقى من امه دعوات اكثر ، كان ما يفزعني انه ليس بمقدوري ان اصنع شيئا . انني ملقى في هذه الحجرة كقطعة الحصير التي اتمدد فوقها ... لا ريب انه من المفزع ان يواجه الانسان الموت وهو عاجز عن الحركة .. لم اكن كذلك وانا اتنقل بساقي الجريحة خلف بقايا البيوت المهدمة. لماذا تأخر

حسن هكذا ؟. هذا الصبي اللعين . كنت اود ان اراه ليحدثني اكثر عن اخيه الشاب الذي أنقذ حياتي . ولكن عودة هذا الصبي اصبحت تعني لي شيئا اكثر ، اصبحت تعني كل حياتي . تعني انقاذي من هذا الخوف اللعين الذي يذوب في ظلام هذه الغرفة .. هذا الصبي القذر . ترى لو قابلته قبل هذه اللحظة في احد شوارع بور سعيد ، فماذا كان سيعني بالنسبة لي ؟ : لا شيء . وتذكرت ان في حياتنا اناسا كثيرين قد لا نشعر بمجرد وجودهم ... هذا الوجود الذي ينتظر فرصة كي يكتسب معنى جديرا به ..! وتذكرت كلمات صديقي صبري : « اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس ».

ومرة اخرى عادت موجة البرد تكتسح الحجرة الصغيرة . ان ساقي تؤلمني اكثر . من المستحيل ان تأتي امي الى هذا المكان . ان احدا لا يستطيع لي شيئا سوى هذا الصبي .. و .. وفجأة سمعت وقع خطوات وصوت مفتاح يدار في الباب . ولم تهدأ ضربات قلبي قبل ان ابصر حسن امامي . كانت عيناي قد الفتا الظلام وامكنني ان اميز لاول وهلة سمات الحزن على وجه الطفل . وفي عينيه كانت تلمع آثار دموع.

ـ ايه يا حسن . مالك . حصل ايه ؟

ـ أخويا ..

ـ ماله ؟

ـ مات .

وللحظات لم اتمكن من ان افتح فمي بكلمة ..

ـ لكن مات ازاي يا حسن ، وفين ؟

ـ ما اعرفش . الناس جابوه البيت وهدومه كلها دم. وكان بيتكلم. قال لي ما تخافش .. وروح للراجل اللي في الدكان ... وهو ..

ولم يكمل حسن حديثه فقد اجهش بالبكاء ..

وجذبت الصبي من يده وضممته الى صدري ورحت اهدئه .. كنت احس ان كلماته تخترق صدري في عنف . وعجزت عن ان اتكلم . وفي تلك اللحظة سقطت من ملابس الصبي صرة صغيرة كان يلف فيها الطعام الذي احضره لي. ووجدتني افك الصرة واضعها امام الصبي .

ـ انت جائع بلا شك . كلْ . سوف آكل معك . لا تبك . لن اتركك ..

وجلس الصبي . ومد يدا مترددة الى الطعام ثم اكل .. كان جائعا جدا . اما انا فقد فقدت رغبتي في الطعام . كنت ارقب الصبي وهو يأكل ويجفف دموعه احيانا بظهر يده واحيانا بشفتيه . كنت اتأمل ملامحه لاصنع صورة جلال الذي انقذ حياتي ومات دون ان اراه .. وسرى في جسدي تيار حاد من القلق . يجب ان اغادر هذا المكان . يجب ان يجفف ذلك الجرح اللعين . كنت احس بقوة عجيبة تمور في جسدي المرهق . كنت اشعر انني اتحول الى ذلك الشخص الآخر القوي الذي كان يقاتل في شوارع المدينة كانما عاد ذلك الشخص في خطوات ذلك الصبي الذي جاء يبحث عن بديل لاخيه الذي مات .. هذا الموت .. يا له من ثمن ! انه شيء رهيب حقا . ان بمقدورنا ان نقتسم البؤس والارهاق او العمل ، ان نتحمل معا اي شيء .. اما هذا الموت ، فان الموتى وحدهم هم الذين يدفعون كل هذا الثمن .. وبدا لي ان كل ما يمكن ان افعله لا يساوي شيئا بالنسبة لما فعله صبري وجلال . لم يكن واحد منهما يعرف الآخر ، ومع ذلك فقد فعلا نفس الشيء . كل على طريقته . كنت أشعر كأنما هناك اتفاق سابق بين كل هؤلاء الذين يموتون من اجل حرية بلادهم فجميعهم في كل بلاد العالم يصنعون نفس الشيء . ربما كان هذا وحده هو الدليل القاطع على ان الحرية هي القيمة الوحيدة في العالم التي لا يختلف حولها البشر .

سوف يخرج الانجليز من بور سعيد . بدأت أشعر ان هذه القضية حقيقية تماما ، كما ان موت صبري وجلال اصبح امرا حقيقيا . واحسست بقوة هائلة تهز كل نفسي . لم تكن قوتي بحال. خيل الي ان حياة صبري وجلال لم تذهب بعيدا، وانما عادت لتتسرب في جسدي المنهك ، لتقاتل بكل ما تبقى من أسلحة ..

كان حسن لا يزال يملأ فمه بالطعام وعيناه منداتان بالدموع . اما انا فقد كنت اشعر انني اتحول الى شخص آخر تماما ... لم اكن اتصور انه كانت تكمن في داخلي كل هذه القوة .. يا له من مخلوق ذلك الانسان: لا يكتشف قواه الكامنة الا من خلال بعض الاحداث والمواقف ، ولكن اي أحداث ومواقف :

هناك في الحياة اشياء كثيرة يمكن ان نحددها وان نؤكد موقفنا حيالها ، فبمقدور انسان ما ان يرفض ثروة مفاجئة او يضع حدا لقصة حب او ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة او لشخص ... ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك هي التجربة التي نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار ، لا يمكن ان نحدد شيئا او ان نؤكد موقفا لان المشاعر نفسها والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى ان نحدس به ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة ، بل وحتى بعد ان نخرج منها ، كيف كان ذلك ؟ . واحيانا قد لا نظفربجواب.

القاهرة — محمد ابو المعاطى أبو النجا

مسؤولية القارىء

بقلم محيي الدين محمد

الجسر بين ذهن الكاتب وذهن القاريء هو انتقال الاحرف السوداء من فراغ الصيحفة الى الوعي المترقب موصلا عناء الفنان الى لامبالاة المتطلع .

والكلمات ، هذه الرموز المثقلة بالمفهومات المشتركة ، لا تملك الا ان تدق نفسها في الذهن خلال المتابعة البصرية للجمل والاسرار المعروضة امام القاريء ، بيد ان ذهن القاريء حر في ان يقرأ الكلمة او يرفضها : وهذه الحرية المفتعلة هي اساس دلال القاريء الحديث ، هذا الاساس الوهمي الذي ظل يفرق بين المسئوليتين والذي عرف ادب العصور الحديثة كيف يتخلص من أسره بعد ان اطاح بفكرة التأثير التي كانت اساس الفن القديم .

الكاتبان العقلي والعاطفي(*) يؤلفان في كل موضوع ، ويكتبان ما تفرضه أيديولوجيتهما ، بدون ان يحاولا افتراض صلة بين ما يكتبانه وبين ما يقرأه الجمهور . ففي ذلك العصر لم يكن الادب الا امتاعا وجمالا صرفا ، فقد كان متذوقوه طبقة وحيدة شريفة اريستوقراطية ، وكان على الكتاب ان يتجاوبوا مع الاحزان العاطفية لهم ، ومع مسراتهم الحلوة : كان الكاتب موجها قلمه الى صدور النبلاء .. ولذلك كان القاريء العادي حرا في ان يقرأ هذا الادب ، او يرفضه لانه لم يكن موصولا به ، لانه كان يحس بنفسه فائضا وبدون داع ، ما دام حتى الكتاب والفنان قد ربطوا انفسهم الى ملذات النبلاء .. وبذلك يكتشف ان الفن كان ترفا بعيدا ، ومسرات بدون حدود ..

والجهد المبذول من الكاتب هو جهد الصناع الخبير الذي يعرف ما عليه عمله : كثيرا من التوابل ، ثم لا شيء بعد ذلك !!. وقد امسكت هذه التوابل بحسية القراء منذ (الام فرتر) حتى الصقيع الجليدي الذي يرتديه (شو) . وعملية التوصيل هذه ، ليست عملية مشاركة ، انما هي ارغام من جانب واستجابة من الجانب الاخر ، ولا يملك هذا الجانب المستجيب الا ان يبدد نقاءه الذاتي في سبيل ارتباطه القيدي بالعكارة العامة ، ولم يكن القاريء يملك الا ان يطيح بما قرأه منذ برهة ، فليست حياته ما رآها معروضة خلال الكلمات، وليست هي احزانه..

(*) نقيم هذه التفرقة المضحكة هنا ، على اساس التحديد ، علما بانه لا يوجد كاتب عقلي محض ولا عاطفي محض

التأثير اذن ما كان يبحث عنه الادب القديم ، اي تأثير ولذلك كان يكفي ان يوصل بسذاجة لا حد لها قلب الكاتب، بقلب القاريء لتنتهي مهمة الادب والفن : كان يكفي ان ينتحر الف شاب او تبكي الف عاشقة حزنا وصبابة ، ليدرك الكاتب فنيته وعبقريته !.

ولذلك كان القاريء حرا في ان يربط نفسه الى هذا الكاتب او ذاك ، او لا يرتبط على الاطلاق ، ومثل هذه العملية الناقصة : التأثير ، لا تتيح ابدا ان يجتمع كفان ليتحملا ثقل المسئولية التي هي معنى حياتهما ..

فما هو اذن الحجر السحري الذي يبحث الادب عنه ما دامت غاية التأثير تثبت فشلها ؟

يكتب الكاتب وفي ذهنه الجمهور ، في ذهنه قلق الجمهور وغضبه ، في ذهنه الثورة على الذي يثور من اجله الجمهور ... انه يكتب ليحقق الحرية ، وليعيد الى البشر روح البطولة والنبل التي فقدت منذ عصور الالم البعيدة ، ليحقق العدالة والخير ويسحق الشره والخسة، ولان هذه الاهداف هي امل الجمهور واخلاقه ، يصبح الكاتب قبضة الجمهور الساحقة ..

ومهما كان الكاتب مطموسا وغائما فهو اخلاقه الخاصة ، لذلك كان الاشتراط التالي للكاتب الحقيقي اشتراطا عاما : الاخلاقية ...

فالسبب الحقيقي لثبوت المنهاج الواقعي ليس كما يظهر هو الاختفاء الضروري لطبقة الاشراف بل هو ضمور الستار الزائف عن الحس الاخلاقي للكاتب ، والذي يثبت هذا ، وجود المنهج الواقعي تاريخيا في نفس الحقبة الرومانتيكية والكلاسيكية ، بل وما قبلهما ..

كل انسان موجود هو بالضرورة وجود لتطور . وكل فرد زائد يكوِّن معادلة متقدمة ، ولا بد ان يكون الغد اكثر تطورا من الامس ، فكل دقيقة تضاف الى اعوامنا هي سجل ما نفعله في سبيل تقدم هذا العالم ، الفرد هو الذي تحمل مسؤلية وجوده ، وتطوير وجوده ، اما الكاتب فهو يحس في قلقه الدائم بمسئوليتين: تطوير وجوده الشخصي ثم تطوير العالم والآخرين ..

ولذلك فالكاتب هو حصيلة عملية حسابية قد تضم اليها

((اذا كان الفنان يلاقي العناء والنصب والاجهاد والالم والمذلة والقرف والغضب والارهاق في سبيل تطوير القاريء ، فليس يكفي اذن ان يبدي هذا القاريء المدلل استحسانه واعجابه وجذله المفرط لتنتهي مهمة الادب والكتاب .))

الف فرد في قلقهم الوجودي ، مادام هو المسئول عن تطورهم الخاص .. وهذا العالم المسكين يحتوي من المآسي والمذلات والبغضاء ما لا يكفي ان نعلن فقط عن محض سخطنا ، لتغييره ، فقد حاول انبياء وقديسون ان يوجهوا سخطهم الى قلوب الحكام لاقرار العدل والنظام ، غير ان المشكلة زادت تعقد وصلابة ، لان الكلمة وحدها بدون صلة بينها وبين قلب وعمل لا تستطيع ان تنتج أثرا ..

الفعل والحركة والثورة هي التي تطور العالم ، تطور بؤس العالم ، والفرد يعرف ذلك ، غير ان العادة تقتل فيه نشاطه ، وهمومه الشخصية تزيد هذه العملية حدة وارهابا ، ولذلك يطلب السلامة والامن ، ويعزف عن الرجاء والعمل .

واما الكاتب فهو ضروريا ، ضد العادة ، وضد همومه الشخصية، لان الاخلاقية فيه ، هذه الاخلاقية التي طمست عند الفرد بتأثير العادة الاجتماعية ، والهم المادي ، لا زالت في توهجها الازلي ، ومن هنا لا يمكن ان يطلب الامان او اللافعل ، ولذلك يدافع عن الحرية ، ويرتبط بالاخلاق . بتغيير الوضع وبالتطور ، والامل ..

ويبدو الاثر الوحيد لاخلاق الكاتب في سلوكه الشخصي، فاذا كان الفن سلوك الفنان ، فأخلاق كل فنان اذن هي فنه الخاص ، ولا بد ان يكون سلوك مجموعة من الفنانين متفقا اخلاقيا ، اي مع البشر .. ضد الطغيان والفساد والاجرام، مع الاعتراف بالاختلافات الشكلية والاسلوبية ... فكل عمل فني هو رسالة وعت حتى المذلة بؤس الجمهور وغضبه المكبوت ، وفي محتواها الف الف شكاية وثورة ، فالذي يعرضه العمل الفني هو نفسه الذي يحس به الجمهور بدون ان يستطيع التعبير عنه ، فليس التأثير اذن ما يطلبه العمل الفني الحديث ما دام الرباط موجودا منذ البداية بين قلق الجمهور وقلق الفنان المزدوج ..

انها عملية ذات ثلاثة اوجه متداخلة حتى الامتزاج ، واولها التلقى ثم الانفعال ثم الحركة .. فبدون هذا الفعل الدينامي النهائي يصبح العمل الفني الراهن امتدادا للاثار الرومانتكية البليدة ،ويضحى وجوده شاهدا على عدم التجاوب اللازم بين الفنان والجمهور ، فمحض الانفعال هو عملية شعورية ضعيفة ، محددة زمنيا ، ينتهي اثرها في حدود اتفه مشكلة عارضة تواجه القاريء.. انه التبديد العبثي لمنطقية الواقع ، في محاولة يائسة للانضمام الملح الى واقعية مخالفة هي واقعية الكاتب : ان الانفعال الذي هو تبديل ظاهري للعالم من حالة الى اخرى يسوقنا الى سوفسطائية عقيمة تبدل الفعل المشروط به العمل الفني الى محاولة للمسايرة فقط ..

والانفعال هنا يقابل التأثير القديم ، وهو مجرد احالة الم او مسرة من قلب الكاتب الى قلب القاريء، وخصوصية هذا الالم او المسرة تبعد بهذين الاحساسين عن ان يصبحا في مواجهة قلوب الجمهور : انهما يثرثران مع احزان ومسرات قريبة الشبه باحزان ومسرات الكاتب ، وليس الجمهور كله يحس بهذا الاحساس الخصوصي جدا، فالادب الانفعالي يمسك اليه جمهورا من نوع الاديب وشكله وطبقته . الادب الذي يؤكد الحركة والفعل ، هو ادب الحرية ، الرسالة التي تفيض قوة وصلابة ضد اشكال عديدة من العبوديات التي تحجر تقدم الانسان وتربطه الى ماضيه ، هذا الادب يملك الخصائص الثلاث التي تشرك عمل الكاتب بعمل القاريء، بيد ان حرية القاريء تقيد حركته في سكونه اللامبالي، وتفوت النشاط النهائي لثلاثية الفن، وهو الحركة التي هي سر الثالوث بأكمله، فكأن على الكاتب مسئولية تكبيل حرية القاريء ، لا اقرار الحرية العامة ، وهذا يثبت لاحرية الكاتب نفسه في اقرار او لا اقرار الحرية .. واجب وقطعي ان يدافع الكاتب عن الحرية ، بدون ان يناقش حتى فرضيتها ، فأقل صور الوجوب عند الكاتب ، تصبح الواجب الوحيد المطلوب من القاريء ، وهو : ان يعزل حريته الشخصية ، بل ويفقدها ليتحرك بواسطة تأثير الكاتب لاقرار الحرية العامة والعدل.

القاريء فنان على مستوى التطلع .. لذلك فهو مسئول عن تغيير وضعه نفس مسئولية الكاتب ، بل واكثر منها تحديدا ، فلا يمكن ان تنتهي مسئولية القاريء عن حد القراءة والتمثل .. عند حد التطلع الحيادي لآلام ومضايقات وعذابات الفنان في توصيل قلقه اليه ، فكم يكون هزيلا ومؤسيا ان يكون المطلوب من القاريء هو الانفعال .؟!

فاذا كان الفنان يلاقي العناء والنصب والاجهاد والالم والمذلة والقرف والغضب والارهاق في سبيل تطوير القاريء

فليس يكفي اذن ان يبدي هذا القاريء المدلل استحسانه واعجابه وجذله المفرط لتنتهي مهمة الادب والكتّاب ..

ان اقل ما يطلبه الكاتب هو ان يبتر عن القاريء احساسه المفرط بالحرية ، ليصبح على الاقل مساويا للكاتب نفسه في الاحساس بالحرية العامة ... فحرية القاريء اللاواعي هي بالتحديد لامسئوليته ، اي لامبالاته ، لان الحرية تتطلب الوعي لتصبح على قدر من التنظيم والدقة ، فكما نعرف كلنا ، ليست حرية الحيوان الا فوضاه بالذات ..

ان الكاتب يوصل معاناته الى جمهور اقل منه وعيا وخبرة ، فاذا كانت تجربته هذه موجهة الى جمهور حر ، اصبحت عملا عبثيا جدا ولا طائل وراءه ، والمطلوب الان ، ما دام الكاتب نفسه وهو الوعي الاكثر لا يملك من الحرية الذاتية ما يجعله لا يدافع عن الحرية او العدل ، ان يصبح القاريء ، الاقل وعيا ، طليقا عن اسر حريته الخاصة وممسا بكل خلية فيه بتبعيته المطلقة الى عالم الكاتب الذاتي الذي هو عالم عام بالضرورة .

يجب ان ينزع القاريء حدوده ليكمل الحدود العامة التي رسمها الكاتب والتي ينتظرها العالم من الاثنين معا ، من حركة الاثنين معا ...

والحركة هي الخاتمة النهائية لفعل التطور الفني ، والفن واقع تعبيري حياتي ، لذلك فحركته الخاصة اسهام في حركة المجتمع وتطوره ، بيد ان تأثيره البطيء يشكك دوما في نتائج هذه العلاقة بين الكاتب والجمهور . فكلنا على علم بان الاشتراكي الثوري هو الذي يطور فعالية هذا العالم ضد الجمود والتقليدية والرضى والاحساس بالامان الميت ، فممارسة الفعل السياسي هي اقرار التطور السريع وخوضه هو بالذات الفعل المطلوب من الجمهور ، أفلا يصبح الانضواء في عمل سياسي موحد أكثر جدية للكاتب ، واقل تناقضا مع التزامه المذهبي؟ !

اذا كانت السياسة وسيلة سريعة ، والفن وسيلة بطيئة في سبيل مجتمع منظم ، فلماذا لا يتحول الكاتب الى اشتراكي ثوري ، رافضا الفن والكتابة ؟ !

والاجابة على هذا السؤال بالذات هي سره .. فليست مهمة الفن هي التطوير الحرفي للعالم ، انها على وجه الدقة الايحاء بالتطور ..

ان على الكاتب ان يحول هذا الجمهور الى فعاليات مشحونة بالحركة ، بدون ان ينزلق هو في دينامية الفعل .. فالعمل الاكثر جدية للكاتب في سبيل الدفاع عن حرية الجزائر ، ليس ان يتطوع كمحارب ، وان يموت فردا بنصف رسالة ، بل هو ان يطلق بواسطة عمله الفني الف كتيبة تموت من اجل الجزائر ..!! ان عمله هو اقرار العمل وشجب العمل واللاتحدد من خلال الوصول المر الى الاحساس باللامسئولية عند الجمهور ثم تفتيت هذا الاحساس .

ففي اللحظة التي ينتقل فيها العمل الفني من مجرد حس بالم الكاتب الى شعور طاغ بالحركة ، يصبح القاريء الى الابد من اسر الكلمة الحية التي تقذفه في سعيرها ، ليصبح خادمها واسيرها ، وتضحى الكلمة ، لاشعاعا او حكمة تنفذ الى الذهن الخاثر لمثقفين بلداء ، بل دعوة حانقة مغيظة دموية لتبركل اوصاب العالم ومآسيه ، بنوة جديدة تقلع في عسر وسط بحار الالم المشترك للوصول بكل هؤلاء الناس الى ارض جديدة يصبح فيها الامل بالسعادة عاما ومشرقا .

ولكن القاريء المطلوب فيه .ان يخدم شفافية الكلمة ودعوتها المحرقة بالثورة ، لا يشكل مطلقا فعالية نارية تفترضها فيه فيه الكلمة .. فالحساسية التي يطالع بها القاريء الحديث ، والتي تظل في اسر عنادها الخاص ولا تتطور الى دينامية حركية هي سر فشل العلاقة الراهنة بين الكاتب وجمهوره الكاتب يفترض ان تثير اخلاقيته حس الجمهور الخانع ، ورضاه المؤئس ، وهو لا يملك في دفاعه المضني ضد القرف والعبودية الا هذه الكلمة الشريفة التي يتقن اصولها وينشرها في صراعه المضني المميت ضد الجهل وعقلية رؤساء التحرير ومالكي الانصبة المرتفعة لارقام التوزيع من الكتاب التافهين الكبار ، انه وهو الكاتب الحقيقي لا يملك سوى كلمته ليعيد بها هذا العالم الذي يرفض ان يقوم من سقته . فاذا كانت الكلمة هي التي تمثل كل عنائه واحساسه بالسقوط وهي التي تمثل تمرده ودعوته العظيمة بالنمو والحياة والحرية .. فأي مهانة تلحقه ، اذا ارتدت هذه الكلمة — كلمته — اليه مرة اخرى بدون ان يكون بينها وبين الناس الذين كتبت من اجلهم مشاركة ما ..؟ اي مهانة يحس بها ، واي مذلة ؟!

ولكن الجمهور اللامبالي يقذف بعظمته المخبوءة وعظمة الكاتب معا الى جهنم نسيانه ، ذلك لانه ما زال يحسب الفن متعة ورضاء وحسنا ، فهو يطالع كلمة الكاتب بحساسيته اولا ثم بشعوره الخاص بالحرية ثانيا ، فحين يطالع القاريء عملا ادبيا ، وهو في قمة احساسه بالفردية يعطل بالذات ما يطلبه العمل الفني في قارئه ، فالاحساس بالفردية خلال قراءة او تذوق عمل فني هو شعور طاغ بالحرية الخاصة ، وشدة تمركز هذا الشعور تقلبه الى تحصن بالعزلة في قلب القاريء ، ثم لا تجدى ابدا صرخات الكاتب ولا شدة وضوحه ، لان العزلة هي بالذات الاحساس باللامبالاة واللا مسئولية .. فالادب يطلب ان يكون القاريء اقل حرية ، ليكون اقل شعورا بالفردية ، واقل شعورا بالوحدة، ليطيق النفاذ الى الم الجمهور ،وليصبح واحدا منه مغمورا في غموميته .

فالمؤلف الحالي يخاطب قراءه واحدا واحدا ، وهو تأثير رقمي وبدون طائل ، فحتى اذا وعى رسالته جيدا ألف



... ★ ...

أقبل ... نضجت حبات العنقود بأيدينا ..
انا أشربناها من دمنا وروينا
ارض محبتنا .. حتى نضجت عنبا .
كنا يوما .. نحن نزعنا الغضبا ..
قلبنا الارض ولم نترك فيها اعشاب عتاب ..
طهرنا اضلعنا :
أقسمنا نزرعها عنباً .. فلا .. ريحانا ..،
لا شجراً يؤتي ثمرا كرؤوس الشيطان ..
اقسمنا نسقيها الوجدانا .. ،
لا غسلينا ..
نسقيها فرحة أيدينا
امتدت من شوق مآقينا :
.. الحقد نزعناه ،
والقلب زرعناه ،
وسقيناه الوجدان ..
ونهر حنان
يجري .. حتى اورقت الكرمه ..
وتدلى العنقود....
انظر كيف تدلى العنقود !
مولود من كرم مودتنا .. ،
والحبات امتلأت بعصارتنا ..،
والشوق بنا يجري في قلب الحبات ..
اعصرها واسق الاحباب بجنتنا ..
اصنع كأسا من ضلعي ،
صبَّ الفرحة في كأسي ..،
واصنع مبخرة من دمعي المبتل بافراحي ..
– حتى لا يحسد كرمتنا الحساد –
حرِّك ريش جناحي ..
اطعم منقاري منقارك ...
اقبل .. لا تبعد عني ..
شُلَّت ايدينا
أترى تخشى كرمتنا تنفد
ان نحن سقيناه الاحباب ؟؟
في مطلع كل ربيع تنضج عنقودا
ما دام الحب بأعيننا معقودا ..
ام زال بقلبينا اعشاب عتاب
كنا بالامس نسيناها في تربة ماضينا ؟؟
شُلَّت ايدينا
ان كنا بالامس تركنا عشبا في وادينا ..!
... طهر قلبك ثم تعال :
نعقد جلستنا ، نُحي سهرتنا
نشهد كرمتنا ...،
تساقط منها حبات العنقود ...
نتلقفها في فمنا ، في ايدينا ..
لن تجدي كرمتنا ، جنتنا
ما دمت معي لست بموجود ..

القاهرة — **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

قاريء كان اثرهم ضئيلا ، ما داموا يحاربون متفرقـين وحيدين في الف ميدان ، وبألف وسيلة .

ان المطلوب هو ان يكون القاريء اكثر شعورا بالمسئولية والتبعة ازاء ما يقرأ ، ولا يكفي ابدا أن يكون الهضم معياره الوحيد ، فليس العمل الفني وجبة جيدة ، او مخللات حريفة .. ان على القاريء نصف الرسالة التي بين الكاتب وجمهوره ، فاذا عزف القاريء عن ادراك ذلك ، تعطلت اللغة المشتركة التي تقلب اللفظة الباردة جحيما من الفطنة والعمل

ومن هذا السيال العنيف مما تخرجه المطابع اليوم ، لا يجدى ان يحاول القاريء ابتلاع كل ما تصل اليه عيناه، فذلك بالذات هو الحس العقيم باللامبالاة ، فيكفي ان يختار له خطا مسئولا وجبهة معينة يحارب بها – مع الاعتراف بان الاختيار يتطلب فحص كل هذه المناهج ..

ان القاريء الحديث ليس هو الذي يختار الظل الرطب لسنديانة ضخمة ليمضي فترة الظهيرة في قراءة يقطع اوصالها الوسن ... او ذلك الذي يقرأ لانه لا يعرف ما الذي يفعله غير ذلك !!.

انه باستمرار ، ذلك الذي ادرك ان الكاتب هو وعي اخلاقه هو ، وانه بذاته فعل وعي الكاتب ، لا اقل ، ولا أكثر ...

القاهرة — **محيي الدين محمد**

مدارس الشعر العراقي الحديث

قيثارة الوادي

بقلم عبد الجبار داوود البصري

— ١ —

من الانتصارات الرائعة التي حققها النقد اكتشافه المدارس الادبية ، واستطاعته تصنيف الادباء ، وتبويب انتاجهم ، وايقاظ الوعي في ضمير الاديب .

فلولا النقد الادبي لم نسمع بمصطلحات الرومانتيكية والرمزية والواقعية الجديدة وغيرها ، ولولا النقد ـ الذي يدرك رسالته ـ لظل الادب ـ او الشعر كما يسميه تشارلتن ـ بضاعة ترف ، ولعاش الشاعر اداة من ادوات القصر .

وادرك الناقد العربي رسالته فكانت محاولات جادة لاكتشاف وخلق مدارس في الشعر العربي . ومن اهم المحاولات التي خفتت ارانينها تقريبا بحث الدكتور طه حسين عن مدارس الشعر الجاهلي كما حاول الدكتور شوقي ضيف تقسيم الشعر العربي الى مدرسة الصنعة والتصنيع والتصنع ولعله ارهق نفسه .

وكما بحثوا عن مدارس فنية في بطون الزمن حاولوا اكتشاف الملامح المدرسية في الادب العربي الحديث واختلفوا في التسمية . ففريق يسميها اتجاهات ، وفريق يسميها تيارات، وليتهم اقتبسوا لفظة الطبقات المتداولة في كتب النقد القديم فهي اكثر تلاؤما وتمشيا مع الروح العلمية الحديثة.

اما عن التأريخ الادبي في وادي الرافدين فلم يتعب الناقد اعصابه واكتفى بتقسيمه الى ادب ما قبل اعلان الدستور العثماني وما بعده ورأوا ميزات ما قبل الجمود وميزات ما بعد التجديد.

وبين فترة وفترة نلتقى ـ على صفحات المجلات الادبية ـ بنقاد يريدون ان يحاكموا شعرنا العراقي الحديث ـ قيثارة الوادي ـ امام قوانين غريبة وان يقيسوه بمقاييس لا تتناسب وطبيعته .

والذي رأيته بعد ان قررت البحث عن مفاهيم جديدة في الشعر العراقي الحديث انه ينقسم الى مستويات طبقية او مدارس ثلاث تتداخل فيما بينها قليلا وتتشابك جذورها واغصانها ولكن السمات السائدة مختلفة وواضحة في الوقت نفسه .

— ٢ —

والمجالات الدراسية كالمنازل لا تدخل الا من ابوابها. والتهريج هو الباب الذي يقودنا الى دهاليز وممرات المدرسة الشعرية التي عاشت قبل الحرب العالمية الاولى وفي القرن التاسع عشر .

ونعني بالتهريج كثرة العواطف والاحاسيس الكاذبة ، وكثرة الصور الصارخة الهائلة الخرافية ، وكثرة الافكار المبالغ فيها ، وادعاءات عريضة في مجالات الفن والحياة ترافقها موسيقى صاخبة مجلجلة بلا ضرورة .

فمن مظاهر التهريج في الحب قطعة للحبوبي فيما يلي وهو مشهور بغزله الذي قدمه في بدايات تهانيه ومدائحه وفيها نجد الموسيقى الصاخبة في رقصاتها حتى كأننا حيال جوقه زنجية بمجرد الاسراع في القراءة وتنتهي بقافية عنيفة جدا تذكرنا بهبوب الرياح العواصف .

واجد فيها من الخيال البعيد المضحك الكثير ، والصور الكاذبة . فالبدر الفلك الخالد المنير الحجري يستحي ويندهش من رؤية محبوبة الشاعر . وهو لا يكتفي بدهشته بل يرشح العرق من جبهته.

ويتمادى الشاعر فيفسر الظواهر الطبيعية تفسيرا ظرفيا كأنما القوانين العلمية كالالفاظ يحتطبها من هنا وهناك فيذكر ان هطول الندى ما هو الا سيل عرق البدر المستحي من حبيبته ولولاها لم يتكون الندى.

ومن الغريب ان يسمي غيره بالافاك لانه يوازي بين الشمس ووجه الحبيبة . والحق ان الشاعر افاك كبير اذ يفضل وجهها على الشمس .

مزقت ثوب الدجى في ثغرها	ثم حاكته له من شعرها
وانجلت سافرة عن نحرها	ما رآها البدر الا واستحى

واعترته دهشة المندهش

او ما تبصره لما أميط	برقع الحسناء امسى يستشيط
خجلا بات فذا الطل السقيط	عرق من وجهه قد رشحا

فهي لولاها الربى لم ترشش

قتل الافك ليسا بسواء	وجهها الذاكي التجلي وذكاء
تصبح الشمس ويخفيها المساء	وهو يمسي مثلما . قد اصبحا

باهرا اشراقه للمعتشي

وبدا التهريج في فخرهم ايضا فعبد الغفار الاخرس الذي تملق القاصي والداني ، ومدح الحقير والامير من نخيل البصرة الى جبال الشمال ومن حدود ايران الى رمال نجد وقال في سبيل اشباع مطامعه لاحدهم : « اجز لي بلثم يمنك » يدعي حينما يفخر ان المطامع لم تذله .

وعبد الغفار الاخرس الذي تغزل بالغلمان غزلا مفضوحا معيبا يقول حينما يفخر انه لم يكن به خصلة مخلة بالشرف ولم يدن من اشياء تشينه بل انه سبق غيره في مضمار الفخار .

وعبد الغفار الاخرس الذي قال لاحدهم : تجود على محبك كل عام بلبس عباءة وتقر عيني . ويقول حينما يفخر ان الاباء مذهبه والجهال هم المعرضون عنه .

أليس هذا هو التهريج ؟!

وما ملكت مني المطامع مقودا	لصاحبها في موقف الضيم اذلال
ولم ادن من اشياء مما تشينني	ولو قطعت مني لذلك اوصال
وما كان بي والحمدلله .. خلة	لها بالشريف الباذخ المجد اخلال

ولست ابالي والابـوة مذهبـي — اذا اعرضت عني مع العلم جهـال
هم سابقوني بالفخار وقصـروا — وهم طاولوني بالاباء فما طالوا.. الخ

وهرجوا في الوصف ، فمن قطعة لعبد الباقي العمري الفاروقي يصف الطبيعة العراقية الضاحكة فيأخذ بالصياح والعراك : لاتسل عما جـرى نهر الفـرات وسلن دجـلة ..

ويفسر الظواهر الطبيعية كزميله الحبوبي كما يحلو له فكأن عـلم الجغرافية وجد عبثا وان الشاعر حر في التمرد عليه ، وعدم الايمان بنتائجه فيفسر امواه الرافدين بأنها دموع ..

ثم يأتي بصور جامدة جدا وهي ان للانهار طربا تمشطها كف النسيم واذا نحن لم نوافق ذلك الشاعر الاندلسي وحبيبته على وصفهما الماء المترقرق بالدرع الذي لو جمد فكيف نقابل قول العمري الذي جعـل للانهار شعرا ولعل في الشعر شيبا ولعل في الشعر أشياء اخرى .

والمعروف ان الشاعر يعيد خلق الحياة وقد أعاد العمري خلق الحيـاة فجعل الورد يحيا ويفوح تحت عمائم الثلج وبرانسه وعجبا لهذا الموسم العمري الذي ينمو فيه الورد ويهطل الثلج ويتكون الندى.

والمعروف عن الشاعر انه عاطفي ، مرهف الحس يتأثر اسرع من غيره ولكن العمري يدعي المرض . فعينه لا تسكب الدمع بل تكسب العندم وهو ثمر نبات صحراوي كروي الشكل احمر اللون ولعله يشير به الى دموع الدم ومن هذا نفهم ان عينه جريحة او مصابة بالرمـد.

لا تسـل عما جـرى نهـر الفرات — وسلن دجلة عمـا قد جـرى
مـن عيـون نزحتهـا العبـرات — وعليهـا حرمت طيـب الكـرى
كم على الكرخ بقلبـي حسرات — عششت ، والحزن فيهـا وكـرا
عندما تخطر ابكـي عندمـا — فبيل الدمع مني ملبسـي
يا لايـام تقضـت بالحمـى — ذكرها في القلب لـم يندرس

ويقول :

طـرر الانهـار فـي أمشاطهـا — سرحتهـا كـف أنفـاس النسيم
وانبرت تختـال فـي أقراطهـا — ورق الدوح على الـدر النظيم
وغوالي الورد فـي أسفاطهـا — فحن وقت الفجر في طيب الشميم
بعدما الثـلج لهـا قد عممـا — وتفشت مـن حيـا فـي برنـس
والندى خـد الروابي غنمـا — فتلفعـن بثـوب السنـدس

وهرجوا في الرثاء، فمن يقرأ مراثي آل البيت عند السيد حيدر الحلي وهو مشهور بهذا النمط الشعري لا يرى فيها الا تهريجا . فصياح يتبعـه صياح واستغاثة تلو استغاثة وشتائم لهذا الخليفة او ذاك القائد . وحسبك ان تراجع قصيدته المبدوءة بقوله : كم ذا تطارح في منى ورقاءها وقصيدته الاخرى التي يقول فيها : أعد نظرا نحو الخلافة أيما.. أحق ..

ونود الاستشهاد بمرثية من شعر عبد الغفار الاخرس وفيها يذكر ان الميت كان ظلا على الاسلام ، وانه وحده له الهدى ولغيره التقليد وانـه طود زال بعد ثباته ولعله تجاهل انه بشر حان حين وفاته ولو كان طودا لما زال الا بقنابل ذرية او صاروخ روسيا الجبار .

ويستبعد ان يرفع للمدارس بعده علم ، ويورق للمكارم عود وليتـه نفض غبار السنين ليرى ان العراق رغم انف الشاعر تقدم فيه التعليم وماتت الكتاتيب التي علمته هذا التهريج وحلت محلها مدارس مهنيـة وكليات جامعية واصبحت الدراسة اكاديمية بعد ان كانت ملائيه . وان كرام العراق لم ينقرضوا فلكل عصر كرامه ومكارمه .

ثم يأبى الا ان يتجاهل ان جراح الارض تسع كل فرد ويأبى الا ان يغالط في احادثه فالذي مات ليس العلم بل الجسد

الله يـعلم والانـام شهـود — ان الذي فقـد الورى لفـريد
كان الامام بـه الائمة تقتـدي — فلـه الهـدى ولغيره التقـليد
ظلا على الاسلام كـان وجـوده — حتى تقـلص ظله الممـدود
فلفقده فـي كـل قلب لوعـة — ولذكره فـي حمده ترديـد
فزوال ذاك الطـود بعد ثباتـه — ينبيك ان الراسيات تبيـد
هيهات يرفـع للمـدارس بعـده — علم ويـورق للمكارم عـود
عجبا لمن ضـاق الفضـاء بعلمه — اني حوتـه من القبور لحود.. الخ

ونستطيع ان نحلل اكثر ابواب شعرهم على هذا النحو ، ولكننا نكتفـي بهذه الامثلة ، ونود بعدها ان نعرض افكارنا وملاحظاتنا التي عنت لنـا ونحن نقرأ تلك الكتب الصفراء التي تحتاج الى اعادة الطبع وتجديد العرض .

لاحظنا ان المديـح متشابه فـي جميع الاحوال يقصد به توفير المثـل العليا عند المدوح مع انعدام المدح الذي يستمد قوته من الخدمة الاجتماعية التي اسداها المدوح وسعيه من اجل الشعب .

ويخيل الي انهم اذ يمدحون انما يقرأون كتبا اخلاقية ثم يعودون فينظمون فصولها شعرا مع استبعاد الملامح الفردية المميزة واظهار المدوح فكـرة تجريدية من البطولة والعظمة .

ومن صفات المدوح التي تتكرر في كل قصيدة تقريبا الكرم والعـلاء والنبل والفضل والعلم بل ان اكثرهم من نسل الرسول محمد صـلى الله عليه وسلم . ولذلك فمن يقرأ مدحهم يشعر انهم لا يتحدثون عـن بشر بل عن انصاف آلهة وهذا ما يبعد شعرهم عن الواقعية والبسـاطة ويجعله خاليا من الحيوية .

وقد استطاع السيد حيدر الحلي ان ينظم مدائح لم يدفعه الى نظمها احساس ولكنه طلب من صديق. ومن العجيب ان هذه القصائد تحوي نفس المشاعر والافكار التي نظمها بدافع من نفسه .

وانني لا افهم من توجيههم الخطاب الى المدوح وتعداد مآثره امـام الشخص المعني بالذات الا معنى واحدا هو تجاهل الشاعر ان هذه هـي مآثر المدوح وصفاته فلا داعي لتذكيره بها بل يجب ان يسردها امـام اعدائه .

وتجمدت قصائد المدح على صورة واحدة فكل منها تحتوي على ذكر طيبة النسب ، وتعداد الاخلاق الفاضلة ، وترجمة الحياة ، وذم الخصوم ، وبيان المؤلفات ان وجدت مؤلفات وتطرق الى الاخوان والاقارب .

اما عن الرثاء ، فبالرغم من كثرة الاموات وتعدد المراثي لا نعثر عـلى صورة يتيم او امرأة ارملة او فتاة ضائعة في معترك الحياة او بيـت يتهدم وحريق يشب وفيضان يكتسح حياة الآمنين

وبالرغم من كثرة المراثي لا نجد ذكرا لمراسيم الدفن والتشييع والفاتحة ولا تصويرا حيا يبين نمو الحزن وانما المرثيه كما قيل مديح للميت لا غير . وخالف الحبوبي اخوانه بتوجيه الخطاب للميت بدلا من التحـدث عنه بلفظ الغائب .

واقرأ رثاء العمري لآل البيت فلا اجد الا تأريخا جعفريا منظوما خاليا من العاطفة النبيلة والتصوير المبدع ويبدو انهم شعراء طائفية لا شعراء

متفننون .

ورغم كثرة مراثي السيد حيدر فانه لم يع شيئا من جوهر الماضي وسر التاريخ ، فقد كان يمدح الحسين لقرابته واخلاقيه الشخصية ، اما حبه للعدل ومحاربته الظلم فشيء لا نعثر عليه بسهولة.

وانت تشعر بعبث الشاعر في انتاجه لانه ينشد وينشد ولكن بلا غاية فهو لا يريد الاقتداء بالحسين ولا يريد السعي من اجل المصلحة العامة ولا يريد انعاش الدين ولا يريد استرداد البلدان المضاعة ولا اقامته العدالة الاجتماعية وانما يريد ن يدرك الثأر من آل اميه .. اتراه لا يعلم انهم في بطون التراب ..

ولا اغالي ان قلت لم اعثر على صورة شعرية متكاملة للحسين الذي الهمهم المراثي بل اشارات وافكار يتساوي فيها مع اي ممدوح من ممدوحيهم ما عدا فارق النسب الذي يكثر ترداده التاريخي وانهم كما قال المعري ارادوا مدح شيء فشغلوا بذم شيء آخر ..

وفي مجال الشعر الوصفي ، لا نجد وصفا — في اشعار هذه المدرسة — للاذلاء والعبيد وتصويرا لمآسيهم الى جانب كثرة المدوحين من النبلاء والمشايخ ورجال الحكم والاثرياء .

ولو فتشت جميع اشعارهم لم تجد عنصر الشعر الطبيعي متميزا بل تجد هنا وهناك وصفا متكلفا لناقة او حمامة او ربيع وكلها في طريق المرأة والكأس والممدوح .

ونستطيع القول ان ابواب الفن الشعري كانت المديح والرثاء ، والنسيب والمراسلات ، والتواريخ والموشحات ، والتشطير والتخميس .

وكثيرا ما عالجوا موضوعات شعرية بروح غير شعرية .

ولو فتشت دواوين هؤلاء الشعراء لم تعثر على ما يسمى بالشعر الوطني او الشعر العلمي او الشعر الفلسفي بالمعنى الصحيح .

ولا يمكن للقاريء ان يقدر هذه المدرسة ويعطيها ما حلمت به من المجد الا بنسيانه تاريخ التعابير والالفاظ وايمانه ان ما قالوه لا علاقة له بالامس وانه مجرد توارد خواطر بريء .

وان دل التخميس والتشطير على شيء فعلى انعدام الملامح الذاتية والشخصية المتميزة بل على انعدام التجارب لحية والهروب من الواقع المعاشة الى لتلهية بمطالعة التحف القديمة والتعليق عليها .

واقرأ ما نظمه هؤلاء في اوائل عهد الشباب وما نظموه في عهد الشيخوخة فيروعني التشابه التام وعدم الاختلافات كأنما هذا البعد الزمني لم يصرف في التجارب ودراسة الحياة الانسان وكأن الشاعر خرج او قارب الخروج من الدنيا وهو لم يستفد شيئا من حياته .

والمعروف عن هؤلاء الشعراء كثرة مطالعاتهم واعتكافهم في صوامع العلم ولكن هذا العلم لم يكن ثقافة استطاعت ان تتفاعل مع الواقع والحياة اليومية الجارية .

واخيرا فنحن نلمس في هذه المدرسة روح التواضع فالكل يعترف — في ديوانه — بانه مقلد وان شعره قاصر عن تبليغ ما يريده ويحسه من المعاني ....

عسى المانع يكون خيرا .

— ٣ —

والكفاح هو السمة السائدة في انتاج الرصافي واخوانه الذين عاشوا

في فترة ما بين الحربين.

ونعني بالكفاح وجود الحركة الصراعية في القصيدة ، والحماسة العسكرية في معالجة الموضوع، وكثرة الالفاظ السياسية ،وازدحام الصور المقتبسة من مجالات النضال ، ترافقها موسيقى يقصد من ورائها ايقاظ الكرامة والانسانية الكامنة .

ولا داعي لان ابين سمة الكفاح في شعر السياسة والوطنية والاجتماع فهذه بطبيعتها ميادين نضال تتمثل فيها جميع المفاهيم السابقة .

ولكني اقرأ رثاء الجواهري لاخيه، وعدنان المالكي فلا اجد في هذه القصائد الا ثورة عنيفة وجهادا شاقا .

وحسبك ان تقرأ مقطعا من قصيدة عبد الحميد كرامي .

في هذا المقطع كل الحجج التي تدخرها المعارضة صرخة اثر صرخة ، وحمم بعدها حمم تقذف بوجه الاستعمار واذنابه بالفاظ قوية جدا ، واسلوب رصين جدا ، وايجاز معجز ، ترافقها حركة صراعية وتحد شديد اللهجة .

تنهى وتأمر ما تشاء عصابة ... ينهى ويأمر فوقها استعمار
خويت خزائنها لما عصفت بها ... الشهوات والاسباط والاصهار
واستنجدت ودم الشعوب ضمانها ... ورفاهها فأمدها الدولار
يلوي به عصب البلاد وتشترى ... ذمم الرجال ، وتحجز الافكار
عرفوا مصائرهم اذا جلى غد ... في المشرقين ولاحت الانوار
واذا استوى اجل فزعزع طاريء ... عات ، وقر من الشعوب قرار

واقرأ ترحيب الرصافي بالريحاني وما اكثر ترحيباته به فاجده يحول موقف الترحيب الى موقف شكوى مرة تصور كفاح الرصافي في الحياة . فيها صراع بين الرصافي والجماهير ، هو يمر فتنظره الابصار شزرا . وصراع بين الرصافي والفاقه : سكن في الخان كأنه رجل غريب .

وصراع بين الرصافي كأديب وقيم المجتمع السائدة : اذ آلمه احتقار الاديب وتقديم الشرير .

كل هذه الصراعات تقدم في وزن ذي حركة سريعة ، وقافية قوية :

أقمت ببلدة ملئت حقودا ... علي فكل ما فيها مريب
امر فتنظر الابصار شزرا ... الي كأنما قد مر ذيب
وكم من اوجه تبدي ابتساما ... وفي طي ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي .. كأني ... اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه ... لاني اليوم في وطني غريب
وما هذا وان آذى بدائي ... ولا هو امره امر عصيب
ولكني ارى ابناء ... قومي ... يدبر امرهم من لا يصيب
يقدم فيهم الشرير دفعا ... لشرته ويحتقر الاديب .. الخ

واقرأ ابياتا للشبيبي في الشكوى فاجد ان اغلب الفاظها كفاحيه : صلح وحرب ، وتجريد السلاح ، وضرب ورمي ومناجزة .

واجد تعابير يكثر استعمالها في ميادين الكفاح : اسئلة هجومية ، ونداء تلو نداء ، وقسم وتقرير ، وحساب ودعاية.

وفي الابيات حالة من النضال بين جبهتين: اسئلة هي جبهة الشاعر الفني بابائه وطموحه ، والثانية جبهة الدهر المتبختر بقضائه وقدره.

هلم لنصطلح يا دهر حسبي ... وحسبك لم نزل متشانئين
أأبذل ماء وجهي فيك ؟ كلا ... سأملكه واملك ماء عيني

ــ التتمة على الصفحة ٦٩ ــ

الكلمات الرمليّة

كسَر الإخفاقُ المصباحا
وخبا في العين بريقُ الإنسانِ
وسقطتُ إلى قاعِ الظلمه
للقاعِ ، القاعِ من القمه
وفقدتُ الرغبةَ لم انطقْ كلمه
وصديقي ما زال يعبُّ ويشربْ
– « أتحب الـ ... » كلا لا أرغبْ
– « حسنا هل .. » أرجوكَ توقفْ !
وفقدت الرغبة لم انطق كلمه

. . . . . .

ما زال المذياعُ يردّد اشياءَ قديمه
« يا قبةَ ليلٍ نفترشُ أديمه
ونظيل الآهةَ بعد الآهة ترنيمه »
أشياءُ – يا أخت – قديمه
تتزلق على جدرانٍ سُفليه
حتى الأعماقِ السفليه
في الاسفلِ – يا روحي – وقعُ الكلمه
إنسانان ..
نطقا نفس الكلماتِ الرمليه
وتشابكت الأيدي ، ثم افترقا وبدون وداع
عامينِ وها سكنت رعشاتُ الكفين
وتفككتِ الأحرفُ لم تبقَ – كلماتٌ رمليه

. . . . . .

وحدي أحتضنُ السأمَ وما ضاعا !
وحدي – احتضنُ نداءاتِ الباعه
وحدي انتظر – على يأسٍ – حتى الساعه

. . . . . .

عودي.. عودي.. يبسَ الأخضرْ
كسر الإخفاقُ المصباحا
وسقطت إلى قاع الظلمه
للقاع.. القاع من القمه
وفقدت الرغبة – لم انطق كلمه .. !

الخرطوم ... عبد العزيز صفوت

الترعة الخيرة

قصة بقلم فاضل السباعي

من وحي العدوان المثلث الاثيم

تطلعوا اليه ، في دخول القاعة ، بعين لهيفة ولب مستطار ، كان الامر قد بلغ غاية المدى ، وانهم جد مشوقين الى ان يستمعوا منه تفسيرا ،وقد آنسوا فيه السداد والوعي والاخلاص في مناقشة ما يملأ اذهانهم الظامئة الى المعرفة والتحرر والانطلاق !

وعندما استقر به المقام ، هتف خبيث منهم في صوت ادنى الى الهمس، وهو يواري وجهه بالرأس الكبير امامه :

ــ احك لنا حكاية ...

فارتفعت همهمات في ارجاء القاعة تردد هذه القالة، فقد وجدوا فيها الاناء المترع الذي تنهل منه قلوبهم الصادية وتطلعهم الظامىء.. وما لبثت الهمهمات ان تعالت واستبانت ، فاذا هي صوت جهير صريح يعلن في غير تهيب :

ــ احك لنا حكاية ، يا استاذ .. احك لنا حكاية !...

فلم يجد بد من ان يضرب عن الدرس صفحا ، ويحكي .. فذلك ــ هذه الاونة ــ واجب مؤكد لا مرية فيه ، وهو اعود نفعا على الصغار ، وأحوج للعقول ، والصق بالعواطف الموارة الملتهبة :

تحضرني الآن ايها الصغار الأعزاء ــ حكاية قديمة ، لم اروها لكم ، كانت ضيعتنا مسرحا لها . وضيعتنا ، كما حدثتكم فيما مضى من ايام، دار خير وبركة ورخاء . ففيها الماء يفيض من نبع في مكان كنا جرينا على تسميته « الترعة » ، حيث تسترفده بعد ذلك سواقي عدة تتوزعها اراضي الضيعة جميعا . وقد كانت الترعة خيرة معطاء ما سمعنا ــ علم الله ــ انها ضنت يوما على « همام » واخوته الفلاحين الكادحين ، وانما كانت تمدهم دوما بالخير يستحيل مع الجهد الى قطن كالفضة وقمح بلون الذهب، يكتسي ببعضه أهل الضيعة ويطعمون حتى الرواء، ويسعفون بالكثير الفائض سكان المدينة المجاورة وقد كان فيها عمال وتجار واصحاب أعمال .

كانت السنون الطوال قد تقضت على الضيعة وهي تسير على هذا المنوال : ترعة خيرة ، ومحصول وفير ، وحب من غير خصام بين الاخوة الامجاد : « همام » و « أمية » و « هاشم » و « عدنان » و «أيمن» و « طارق » و « نصير » .. كان همام اكبرهم جميعا ، وكانوا لذلك يتطلعون اليه في مزيد من الحب والاحترام . وقد أجمعوا ، منذ اول أمرهم ، على ان تكون الترعة في أراضيه ، يرعاها ويسبغ عليها من وارف حمايته ما يجعلها في حرز من طمع الطامعين وكيد الكائدين ..

ماذا ؟ لكأني اقرأ في احداقكم ــ ايها الصغار الطيبون ــ انكم تسألون: « ومن ذا الذي يطمع في ما لا يملك .. الا ان يكون لصا ؟! » . أجل يا صغاري . لا يطمع سوى اللص في مال غيره . ولكن ، متى خلت الدنيا من لصوص طامعين ؟!

ان الحياة الرخية التي كان يحياها الاخوة ما كانت لتنزل سلاما هنيئا على قلوب فئة من الطامعين ! لقد عز عليهم أن ينعم الاخوة بالحياة كما ينبغي للانسان ان ينعم .. واستكثرت ما تدره عليهم الترعة الخيرة فتملأ معاشهم شبعا وريا !.. أرادتها ان تكون من نصيبها هي ... ولكن ، كيف السبيل الى ذلك ، والاخوة في الضيعة كتلة واحدة لا تتزعزع ولا تلين ؟

لقد كان في المدينة المجاورة شاب من الناس واخلاط من كل جنس ولون .. منهم الطيب الفاضل ، ومنهم من اصطلحت عليه الشرور فملكت عليه قلبه وعقله وبصيرته ... وكان فيهم من يعيش على الكدح الشريف ، وفيهم من يتطلع الى الثراء يواتيه من السلب والنهب والاغتصاب .

ولقد تراءى لهؤلاء السرقة المغتصبين ان يسلبوا الارض التي ترفدها الترعة الخيرة ، ذلك ان ما كان يحيط بالمدينة من اراض وضياع ، لم يكن ــ في الحق ــ في خصب أرض الترعة أبدا . فتمثلوا مدى ضرورتها لهم وانها شريان حياتهم الذي اذا انقطع ماتوا من ظمأ وجوع .. فاذا خيالات الرؤى تداعب أحلامهم فيعزمون على غصب الترعة وارضها ليضمنوا لانفسهم كنزا يحقق لهم العيش الرغيد. ثم انهم ، بعد ان أعملوا الذهن وكدوا العقل ، اتفقوا على التحرش بهمام ، ولي الترعة ، فاما أن يتعهد لهم بامدادهم بما يحتاجون ، واما أن يستلبوه الترعة عنوة واقتدارا !

وأوفدوا ، بعد اللأي ، وفدا منهم الى همام . وهمام ، كما لم احدثكم من قبل ، « جدع » يعجبكم ليس له نظير ، يزيده ان يعلم أن دونه أخوة أشداء ميامين اناستنصرهم طاروا اليه شررا يحرق ولا يذر. وقابل الوفد هماما :

ــ يا همام .. ان من خيرات ترعتك ما يمسك علينا رمق الحياة ... لولاها لاختطفنا الحمام جماعات من غير اشفاق !..

فقال همام بأريحيته السمحة :

ــ على الرحب ، يا جيرة ... انما خيراتنا في المآل لكم ولاهليكم في المدينة ..

ــ ولكن جيرتك ، يا همام ، يخشون ..

ـ ماذا يخشـون ؟ أيخشى الجـار جاره ! فلا كانت الجيرة ، اذن !..

ـ لا .. ولكن الزمـان ، كما تعلم ، غدار غير مأمون .. انتم اليوم ، راضون عنا اسخياء كرماء .. وانما يخشي الجيرة ان تحدوكم ، فـي يوم مقبل ، غضبة على اهل المدينة فتقبضوا عنها خيراتكم ، فيصيبنـا من أمرنا بؤس شـديد !..

فقال همـام في لهجة المنكر :

ـ ولكن ، لم الغضبة ونحن جيرة من امد بعيد ؟ وكيف نقبض عنكـم خيراتنا ولنا في مدكم بها مورد لا تستقيم احوالنا من غيره ؟ الـسـنا نتقاضى ثمن ما نعطي ، أم نمنح هبة واستحبابا ؟ واننا في غير غنـاء عـن الثمن ، فحاجتنا اليه للاصلاح والتحسين ليست بأقل من حاجتكم الـى ما تنتج أرضنـا من خير !..

ـ صحيح .. ولكن الزمان لا يؤمن جانبه ، يا همام .. نريد تعهدا ..

ـ أي تعهـد تريدون ؟...

ـ ان تتعهدوا لنا حسـن الجوار ..

ـ قد تعهـدنا ، وأحبب بكم من جيران !..

ـ وألا تتوقفوا يوما عن مدنا بما تدره ارضكم من خير ..

ـ قد رضينـا بذلك أيضـا ..

ـ وان تسهروا على صيانة الترعة ورعايتها ، فانها لشريان حياتنا ..

فتضاحك همام وهو يقول :

ـ قد ضمنـا لكم ما طلبتم .. لانه عين طلبتنا ..

وعاد الوفد الى المدينة خزيان خائبا ، بعد ان رد همام عليهم قصدهم بما أبدى من نجدة ونبالة . فجعل الطامعون يأتمرون عليه من جديـد ويبيتون له الكيد واللؤم والغدر الغادر .

ولقد كان فيهم غلام غر أهوج استطاع ـ على حداثته ـ ان يصيب قناعتهم بالقيام بأمر لا يعود عليهم بسوى الخراب المبين . فانصاع لـه منهم شاب فارغ رقيع دينه الكأس والميسر والنساء راح يحـلم بمغـامرة تخلد اسمه ردحا على ألسنة الغواني الملاح ، كما انقاد للغلام كهل بائس كان من قبل ثريا جعل يتطلع الى المغنم السائغ والثراء العريض الموعود ، على حين وقف من الجميع موقف الناقد كهل آخر مجرب وقور اخو مال وغنى وفير ، وقال في لهجة التأنيب :

ـ الاساءة الى الجيرة عيب ، يا جماعة !

فرد عليـه الغـلام الغر :

ـ وما العيب يا صاحب الوقار ؟.. نريد الحياة لا يتخللها ظمأ وجوع !

وأضاف الشـاب الرقيع :

ـ انمـا الحيـاة زق وقينه .. ومغـامرة !

بينما قال الكهل البائس الذي كان ثريا ، بصوت يخنقه الاسى :

ـ انت ما يهمك ؟ ما تملكه لا تأكله النيران .. ولكننا نحن المساكين ، سلبنا الدهر كل ما ملكنا .. وها نحن على الحصير !

وبعد أيام .. صدر عن المدينة الغلام الغر على رأس أنفار من المرتزقة يداعب اطماعهم اغتصاب الترعة من ذويها .. وما ان وطات اقدامهم طرف الضيعة حتى هب اليهم همام بجهامته يستفسرهم سـبب خرقهم حرمة الجـوار ؟

فانبرى الغـلام الغر يقول :

ـ نريد هذا الرافد في أرضك قريبا من الترعة نزرع ضفتيه ونأمـن شر الجـوع !

فقال همـام :

ـ ولكني ما فتئت حياتي امدكم بالخير واطعمكم من جوع .. ثم كيف تطمعون في ما يملك غيركم ؟!

فأعلن الغلام كمن نفـد صبره :

ـ قصارى القول : نريد هذا الرافد .. وليس لك الا ان تستجيب !!

فتعجب همام لهذه اللهجة يبديها هذا الصعلوك ، وقال باستصغار :

ـ يا غلام ! عد من حيث جئت ، والا فركت لك اذنيك ، وداعبت رقبتك بكفين ، وأذقتك « علقة » لا تنساها ما حييت !!

فاذا الغلام الاهوج يشير للمرتزقة وراءه اشارة الهجوم ، ثم ينكفيء الى قدم همام ويروح يعضها جاهدا ولا يصيب منها المأرب الذي يريد ، فما كان من همام الا ان مد يده الى الغلام ليمسكه من رقبته ويطوح به ويقذفه بعيدا عن الرافد .

وفيما كان همام يطهر ارضه من الصعاليك ، ما رأى الا رسولا يقبـل من صوب المدينة ويدفع اليه رقعة كتب فيها :

« الى السـيد همام ،

« لقد انتهى الينا ان الترعة يهددها خطر ماحق . ولما كنتم قد تعهدتم لنا برعايتها والسهر على سلامتها باعتبار انها بمثابة شريان الحياة لنا ، ولما كان الخطر اعظم من ان تتمكنوا من صده بمفردكم ، لذا فاننا نجد انفسنا مضطرين للقدوم وازلالنا الى الترعة لحمايتها والذود عنها تجاه الكائدين الطامعـين » .

وكان في ذيل الرقعة توقيعان : للشاب الرقيـع والكهل البائس !

ولم يجد همام بدا من ان يترك الصعاليك الصغار يمرحون في طـرف من ارضه ، ليطير الى الترعة يحميها من غزاة آخرين اشد فتكا وخطرا . وهمام ـ ككل فلاح مخلص ـ يحب أرضه وترعته حبا يسري مع الدم في عروقه ، وهو لذلك ما كان ليألو جهدا في ارخاص الحياة حفاظا علـى أرضه ودرءا لكل خطر يتهدد الترعة الخيرة . وهؤلاء الاخرون ـ فيمـا بدا لهمام في وضوح ـ لا يطلبون سوى اغتصاب الترعة بدعوى حمايتها ، وانهم هم الذين انفذوا الغلام وصحبه متحرشين لالهائه بالدفاع عن رافـد صغير حتى يسهل التسلل الى القلب .. الى الترعة !

وتصدى لهم همام على شاطىء الترعة ببسالة ليس لها نظير . وتنادى اخوتهالامجاد الى نصرة اخيهم وقرة اعينهم همام ، فهب أمية ، وهاشم ، وعدنان ، وأيمن ، وطارق ، ونصير ، والابناء والاحفاد جميعا .. وبرز كل منهم للمعتدين ، يتدفقون من المدينة الى الترعة ، ليجندل منهم العديد الذي ليس له حصر .. وما كانوا يطولون من الاخوة في ساحة الوغى مطالا ، وانما كانوا يفتكون بالنسوة العزالى والاطفال الآمنين في دورهم قصد الدفع الى الاستسلام . وما كان ذلك الا ليزيد المقاومين ضراوة واستبسالا . وكان الغازي قد قدر ان الفتح لن يطول امده سوى الساعات لانه باغت أهل الضيعة بالعدد الغفير من المقاتلين ، وانه كان يريد الترعة سليمة لا يشوبها هدم وتدمير ، ولكنه اضطر في سبيل الاستيلاء ، الى نسف شطآن الترعة وروافدها ، فهدم الجسر وسد المجاري حتى فاضت المياه واغرقت واتلفت ، والاخوة مع ذلك يقاتلون كالاطواد لا يهنون ولا يستسلمون .. فرد على الغازي كيده وما أتيح له تحقيق مراميه .. الا انه ركب رأسه وظل يهدم ويدمر وينتقم من العزل الآمنين اذ يجندله الابطال الميامين .

ولقد بعث همام ـ في ذلك ـ الى اهل المدينة يستنجدهم لصد العدوان وحفظ الترعة ، والا فانه سيصيبهم من امر مآكلهم رهق شديد . فهب لنصرته في المدينة رجل شريف مطاع من نفر من الشباب ، وقام يعلن : ان المعتدين ان لم يكفوا عن عدوانهم ويجلوا عن الترعة والضيعة جميعا ، فانهم سيلاقون ما لا يطيقون !

وهنا ..يرجع الطامعون الى انفسهم يتفكرون : همام واخوته لا تلين لهم قناة ، وانهم ليبدون من الضراوة ما يستحيل معه اغتصاب شبر من ارض الضيعة ، وها هوذا الرجل الشريف يقوم منددا مهددا ..

وكذلك ، ايها الصغار الاعزاء ، ما رأينا الا الطامعين الثلاثة تنشل منهم الايدي ويلوون اعناقهم ويجررون ، مطأطئين في ليلة مدلهمة ، أذيال الخزي والذلة والانكسار ، وقد خلفوا وراءهم قتلى من ازلامهم لا يحصون، وأصابوا بالخراب الترعة الخيرة التي صبوا الى امتلاكها ليضمنوا لانفسهم الخير كل الخير ، فاذا هي تمتنع عليهم ويصبحون في شر حال ومآل !..

✶

وعلت وجوه الصغار اشراقة وأطلت من عيونهم عزمة توحي بالقوة والشمم والاباء . على انه ما لبث ان سأل احدهم ببراءة :

ـ أفي الدنيا أناس كهؤلاء لا يحفلون بحق ولا يقدرون العواقب ! أليست لهم عقول ؟!

قال المعلم في لهجة الصادق :

ـ اجل ، يا بني .. ان في جبلة بعض الناس ميلا الى التجاوز والطغيان ، وهم لا ينصاعون الا للقوة تلجم اطماعهم .. وهؤلاء الطامعون الثلاثة ، لم تعد لهم الجرأة ، من ذلك اليوم ، على الاقتراب من الضيعة ، بعد ان ادركوا ان لهمام واخوته قلبا جسورا وساعدا حازما لا يخطئه الهدف !

فلاذ الصغار بالصمت .. يتفكرون .

حلب

فاضل السباعي

الى اللقاء

— ١ —

يا اصدقـاء
لشد ما اخشى نهاية الطريق
وشـد ما اخشى تحية المسـاء
« الى اللقـاء ! »
اليمة « الى اللقاء » ، و « اصبحوا بخير »
وكل الفـاظ الوداع مرّة
والموت مُرّ
وكل شيء يسرق الانسـان من انسـان .

— ٢ —

شـوارع المدينة الكبيره
قيعـان نار
تجتر في الظهيره
ما شربته في الضحى من اللهيب
يا ويله من لم يصادف غير شمسها
غير البناء والسياج ، والبناء والسياج
غير المربعات ، والمثلثات ، والزجـاج .
يا ويله مـن ليله فضـاء
ويوم عطلته
خـال مـن اللقـاء
يا ويله مـن لم يحب
كل الزمـان حول قلبه شـتاء

— ٣ —

يا اصـدقاء
يا ايها الاحياء تحت حائط اصم
يا جـذوة في الليـل لم تنم
لشـد ما اخشى نهـاية الطريق
اود ألا ينتهي ، ولا يضيق
ويفرش الرؤى المخضلة السعيده
أمامنا في لا نهاية مديده
كأفق قرية في لحظة الشروق
والافق رحب في القرى .. حنون
وناعم وقرمزي يحضـن البيوت
وتسبح الاشجار فيه كالهوادج المسافره
يا ليتنـا هنـاك
نسـير تحت صمته العميق
ونوره المضبب الرقيـق
جزيـرة من الحيـاه
ينسـاب دفء زرعها عـلى المياه
ولا تمل سيرها يا اصدقاء .

— ٤ —

الليـل في المدينـة الكبيره
عيـد قصير
النور ، والانغـام ، والشـباب
والسرعة الحمقـاء ، والشـراب
عيـد قصـير
شـيئا فشـيئا يسكت النغـم
ويهدأ الرقص وتتعب القدم
وتكنس الرياح كل مائـده
فتسـقط الزهور
وترفع الاحزان في اعماقنا رؤوسها الصغيره
وننثنى الى الطريق
ويسرق الحديث خطونا فلا نمـل
صفان من مسـارج مضببـه
كأنهـا معـابد مخربـه
تنـام تحتهـا الظـلال
وقـد تمر مركبـه
ترمي علينـا بعض عطرهـا
وساعة الميدان مـن بعيـد
دقاتهـا ترثي المسـاء
وتلتوي امامنـا مفـارق ثلاثـه
تمتـد مـن بطـن الظـلام والسـكون
وتهمسـون ...
« الى اللقـاء ! »

— ٥ —

الليـل وحـده يهون
وداعـه يهون ، فالنهـار ذو عيـون
تجمّـع العقـد الذي انفرط
لكن دربنـا طويل
وربما جزناه اشهرا وأشهرا معـا
لكننـا يومـا سـنرفع الشـراع
كل الى سـبيل
فطهروا بالحب سـاعة الوداع

القـاهرة — احمد عبد المعطي حجازي

شعر عبد الصبور... بين المعرفة والتجربة

بقلم ايليا الحاوي

ما برح بعض الادباء يلتزمون بدعوة خاصة في الاجتماع والسياسة ، وربما تمادوا بها حتى جعلوا يعنون بغاية الاصلاح على الغاية الفنية . ولقد قدر لنا ان نشهد جماعة من القوم يحتفلون بقصائد مما لا شفيع لها الا فضيلة الموضوع ، لانها تبتسر بمعان توافق هواهم وعقيدتهم .

ولعلنا اذا واجهنا واقع الاشياء ، تحققنا انه قلما تؤثر طبيعة الموضوع في خلود الادب . او لم نر الى تلك القصائد اللعينة او ذات الموضوع التافه كزلابية ابن الرومي وكرسي ما لرميه ، او لم نر الى هذه تنزع بالواقع الشائع الى واقع فني اسمى ، فتخلد ، بينما يسفح ويتردى قصص النهضة عندنا ، بالرغم من ازحامه بالارشاد والدعوات ؟ مثل هذه الشواهدتكثر في الادب العربي وفي الاداب الاخرى مما لا جدوى من الافاضة بذكره ، بل نكتفي بان نلتفت اليه بهذه الملاحظة ، حتى لا نلبث نفاضل المواضيع ، احدها على الآخر ، بغناه او طبيعته ، بل بقدر ما يشخص ويبرم فيه من معاناة الشاعر وحقيقته .

ولقد نشهد ، الى ذلك بعض الادباء ممن يلتزمون بما يعرفون في ذهنهم ، او هم يتحاملون للبحث فيه ، فيعمدون الى تقريره بقصيدة لا حرارة فيها ولا يقين . اينا لا يدرك فضيلة الخير على الشر، والاصلاح على الافساد ، الا ان هذا الادراك يعجز عن اي يورى النفس بطور الذهول والخلق ، وانا مهما حاولنا ان ننظم مداركنا بشعر ، لن يكون عملنا الا تزويرا، فلا قيمة لمعرفةنعرفها اذا كانت النفس لا تبالي بها .

فاذا تكبدنا على النظم تكبدا بما ندركه من امره ، يفتقد الشعر الاخلاص وبالتالي يفتقد ذاته . اما اذا لم نقتصر على معرفة الحق ، بل تواقعنا فيه لنحقق رسالته فتعقد وارتبط بنفسنا حتى اصبح مصيره مصيرنا ، او على الاقل ، اذا ما لبثنا في لبس من امره ، اشكلت به نفسنا ، حينذاك تصبح العقيدة او الرسالة حرية ان تفيض بادب سوي ، لان الشاعر يتحدث فيها بحديث نفسه ، يجسد تجربة خبر اساها ونشوتها . فالقضية اذا قضية واقع نتعاطى به الفكرة ونعايشها ، حتى تصبح محور تعاستنا وسعادتنا . واذا اجتهدنا في التعبير عنها ، فكاننا نعبر عن مأساتنا في مأساة الحق ، او نتحدث عن مصيرنا في مصير تلك العقيدة . هكذا تخصب ذات الشاعر بانفعالات ورؤى ، وتنفذ به الى طور من التخطف والذهول تشرق فيه الصور ، او تؤدي الى انفعال خلاق وفق ما يرى برغسون ، يضفي على النفس بيقين تقتنع به اعصابنا قبل ان يعبث به عقلنا .

بيد ان الاخلاص قد ما يتحول الى آفة تهي بالشعر ، اذ يشتد وينزو في قوم عديمي الثقافة او ذوي ثقافة مكتفية، تدعي العصمة دون ان تتجدد . ولقد طالما بصرنا بقصيدة تفيض حماسا لوتر وطني، فتتحدث عن الشرف والبذل اوتتغنى بمجد قديم او عتيد، الا ان ذينك الحماس والحديث ليسا يكفيان وقد لا يجديان في الخلق ، وربما الفيناهما يشوهان بعنفهما تؤدة الصنيع واختماره في الضمير الفني . فلا مندوحة للتجربة من ان تكون مثقفة او الثقافة مجربة ، معنَّاة ، دون ان نعي ونتضح علاقة الواحدة بالاخرى او اثر احداهما على الثانية ، وانما نشعر به في عصب ذائقتنا المبهمة . فالفن لكي يتكافأ وينفذ الى غايته ، ينبغي ان تزكيه الثقافة الانسانية التي تقرب بعض الشيء الى الفلسفة وان لم يكن لها حدودها وطقوسها ، فهي اشبه بالمعاناة التي تنتج من مضاعفات التجربة او ما يرسب في قاع نفوسنا ، غب القراءات والاحوال التي تختلف علينا ، فنكسب بها لنفسنا عمر النفس البشرية او على الاقل بعضه . ان حماس القروي الساذج ، او القوم السذج ، فيما تطأهم حمية الوطن او الرسالة ، يقدر بقيمته الوطنية . اما من الوجهة الفنية فلا قيمة له الا بقدر ما يشخص ويتفاعل فيه ، فضلا عن ذلك ، من ثقافة تسمو به عن بداوته وتربط مصيره بمصير الانسان الكبير .

الا ان الثقافة تلبث خطرا على الصنيع الفني الذي طفقت تراوده من الخارج . هناك فئة من الادباء تطالع آثار احد الفنانين الخالدين ، تستشف اصولها الفنية ، وتؤلفها في نظريات كمعارف باردة ، ثم يحاولون ان يحذو على غرارها بقصائد ذهنية لا رصيد لها في الضمير . الواقع ، ان الثقافة ينبغي ان تصقل الموهبة وتغني التجربة ، حتى اذا ارادت تلك الموهبة ان تتحقق ، تتحول الثقافة الى غذاء مبهم في جسد الصنيع الفني ، فتتصل النفس بحقائق نفسية لا قبل للشعور البدائي بها .

وهكذا نبصر ان السوية الادبية تقتضي ثقافة فنية وانسانية على من يخلص لتجربته ، واخلاصا على من قويت ثقافته ، تتحد جميعا في ذهول النفس حتى تفيض بصور الابداع . وكانما نشهد بعد ذاك الخطأ الذي يتردى به من يسمي هذه العملية بالالتزام ، لان لفظة الالتزام تفترض بمعناها غصبا للذات ، بينا تقوم هذه العملية ، في الواقع ، على فيض الذات دون اغتصابها .

وفقا لهذه المباديء نتولى ديوان صلاح الدين عبد الصبور، في تجربته فضلا عن وجهي ثقافته، لنبصر اخلاصه ونجاحه في تحقيقها عبر وحدة نفسية متكافئة.

لعل اول ما يلفتنا في هذا الديوان ان بعض قصائده تطلع بمناجاة صديقة للشاعر، غفل، دون ملامح، ليس يناجيها بما درجت عليه عادة المناجاة بين رجل وامرأة، وانما يشكو لها اساه واسى رفاقه بمصيرهم، فكأنه ليس يلتقي بها على صعيد الحب بل على صعيد المجتمع والوطن.

ولا بد للقاريء ان يسائل هنا ويتحرى اذا كانت نفس الشاعر تطهرت وصفت، حقيقة، بما ييسر له مصادقة المرأة في انسانيتها دون جنسها. ولئن كان يسهل الحديث على هذا الامر فانه لا شك يعسر تحقيقه والتعفف به، لان المرأة لا تنفك تراود المرء بخطيئة لا تكاد تستسلم، حتى يستفيق شيطانها اشد اغراء وعنفا. فالى اي حد يمكننا ان نصادق الشاعر بتجربته في امرأة ماتت انوثتها بالنسبة اليه، فلم يعد يناجيها بما يحبه او يعانيه منها، بل بما يلقاه ويتخبط به في مصيره مع رفاق الجهاد؟ لذلك يكاد يخيل الي ان هذه المرأة ليست سوى اسلوب خارجي في عادة القول، والغنائية، لا تلبث ان تمحي عن امرأة حقيقية في قصائد اخرى يمتزج فيها الشاعر بين الجسد والوجد. تسفر شهوته سفورها عند امريءالقيس وموسيه وفرلين ومن اليهم، ثم لا تعتم أن تصفو وتتوجد حتى لتغشاها عذوبة الحنين والبراح في شعر الرومنطيقيين وفرسان القرون الوسطى.

ولعل الفحش في شعر عبد الصبور ليس فحشا بل تفحش ينسحب به على ذيل احد الشعراء المعاصرين الذي اختص به واستنفده. فقصيدة « منحدر الثلج » تنسج على غرار المرأة كما عرفت في قصائد نزار قباني عامة وفي « طفولة نهد » خاصة. وللقاريء هذه الابيات الحاسمة:

اعاتبة الخطو قلبي يئن على رنة الخطوة العاتية ـ لكم اشتهي ان اعض التلال وافترش القمة العالية. اعاتبة الخطو كلت خطاك عن السعي للقبلة النائية ـ وبيتي هنا خطوة لليمين على الباب تعريشة ذاويه ـ انا عابد وثني الصلاة ولي من دمي قيم ساميه .. ـ فوا لهفتا، كم احب التلال وكم اشتهي ان ارى عاريه.

فالعنوان والتعابير فضلا عن الصور بعضها لنزار وبعضها مقتبس او بالاحرى منسوخ عنه. الا ان الشاعر سرعان ما يجد نفسه في قصيدة « نزهة الجبل » حيث يتحدث عن المرأة الانسان التي تغشى نفسه بالحنين وتتخطفها بالبراح والذهول فيتحول شعره، الى شبه حلولية بين الحب والطبيعة في ومضة نفسيةمسرعة.

.« وفي لقائنا الاخير يا صديقتي وعدتني بنزهة على الجبل اريد ان اعيش كي اشم نفحة الجبل .. لكن هذا الطارق الشرير فوق بابي الصغير، قد مد من اكتافه جذع نخله عقيم ..»

فنفحة الجبل هي، في الواقع، نفحة حبيبته، التبست عليه في فوضى وسرعة اللحظة النفسية التي يعبر عنها. فالشاعر يبدو هنا كفارس رومنطيقي، او كبطل في اقاصيص ومسرحيات النهضة، يقف الواجب والشرف بينه وبين حبيبته، وان كان في نفسية عبد الصبور اسى بالوجود وتعقيد اكثر مما نبصره في ذينك الفارس والبطل.

ولا نلبث ان نشهد الشاعر في قصيدة لاحقة « رسالة الى صديقه » يستطرد في حديثه عن امرأة تقرب ملامح انسانيتها الى التي سلف الحديث عنها، فهي ليست امرأة تصحبه في الجبهة والخندق، يرتديها وجه الملحمة هي ليست عبلة التي لا تعجب الا بعنتر الفروسية، وانما هي القديسة المادونة، التي يصلي لها الشاعر صلاته. وكما ان مدام دي ساباتيه، ملاك بودلير، تضيء في نفسه سبيل الجمال والخير، تبعث في سقمه العافية، وفي ريبته اليقين، كذلك صديقة عبد الصبور، فهي كمسيح الانجيل، تنهض به من يأسه، واغتماضه للموت، تدب العافية في صديقها المحطم ذي القلب الكسير:

صديقتي ... انني مريض، وساعدي مكسور، ومهجتي على الفراش كل ساعة تسيل، هذا الصباح، ادرت وجهي للحياة، واغتمضت كي اموت، في هدأة السكون، قد آن للشعاع ان يغيب ـ وطرقتين فوق بابنا .. موزع البريد !.. لا !! لا اريد. هل من مزيد، يا حياة محنتي هل من مزيد؟ .. خطابك الرقيق كالقميص بين مقلتي يعقوب، انفاس عيسى تصنع الحياة في التراب، الساق للكسيح، العين للضرير، هناءة الفؤاد للمكروب، المقعدون الضائعون التائهون، يفرحون، كمثلما فرحت بالخطاب يا مسيحي الصغير ».

هنا يبلغ عبد الصبور ذروة الصدق في التجربة لانه بلغ ذروة الصلاة، فهو ليس يقبض احاسيسه، يقيدها وفقا للسوية الخلقية، او الوطنية وانما تفيض من نفسه وتتصعد كبخور الصلاة، ولعل الى مثل هذا الصدق يشير بعضهم عندما يقولون « الشعر صلاة ».

الا ان هذه الحالة، ليست تومض في شعر صلاح الا لحظة هاربة لا تلبث ان تغشاها العتمة، فيعمى، او يسير على هدى الآخرين، فكما انه احتذى على غرار نزار قباني في قصيدتي: «منحدر الثلج والرحلة» نراه يتأثر وربما ينسخ نشيد الانشاد في قصيدة « اغنية حب »:

« وجه حبيبي خيمة من نور، شعر حبيبي حقل حنطة، خدا حبيبي فلقتا رمان، جيد حبيبي مقلع من الرخام .. »

لست اود ان اعتقد بان الشاعر يدعي هذه القصيدة جديا وانما هي شيء من تقليد وربما مسخ لشعر الانشاد بما يعطل عبقرية الفن، ويحوله الى المعابثة والتزويق.

اما قصيدة « سوناتا » فتتموج بين الرومنطقية في حنينها المبهم لتخوم غريبة، وعالم غيبي جميل، وبين الصنعة والمعرفة، فيما نمته للحب ولعالمه من صفات عرفت في تقاليد الغزل القديم. الا ان الصنعة ليست تتعصى على التجربة، وليست تضيرها لانها تنطوي على شجو داخلي وتحسس بعاطفة الاشياء والطبيعة، حتى لا ندرك اذا كان الشاعر يحب حبيبته في الطبيعة او الطبيعة في حبيبته:

ولا تشغلي ... اننا ذاهبان، الى قرية لم يطأها البشر، لنحيا على

بقلها ، لا الحياة تضن علينا ، ولا النبع جف ــ ونصنع كوخا حواليه تل من الورد باحته،والسجف ــ ويا فتنتي سأمي رحلتي،وغربتنا المرفأ المنظر.

بيد ان عالم التخوم الجميلة ذاك ، لا يلبث ان تسفحه بشاعة الواقع يسعى به القوم في العبث واللاغاية . وهكذا نبصر الشاعر يعايش العالم الجميل في احلامه ، بينا يعثر ويتردى ببلاهته وعقمه في الواقع . ولا يكاد يتخاذل وتطغى عليه شهوة العدم ، فيشارف على نهاية رينه وبيرون وفارتر، حتى يبصر حبيبته من جديد بين الزحام فيستعيد ثقته وايمانه بنفسه ولا يعود يحيا لحياة الناس والازدحام على البقاء التافه، بل يستضيء بحياةجديدة، ببعث جديدفتصبح حبيبته تمثل السعادة التي ، بها تجمل وتمتليء وتتكافأ الحياة .

وايقظني صاحبي يا (فلان) افق ، غمر النور وجه الوجود ــ ودوى القطار وماج الطريق ــ زحاما من الارض حتى السماء ــ يساقون والموت في مرصد ، لمعركة البله والاغبياء ــ لاجل الرغيف وظل وريف وكوخ نظيفوثوب جديد ــ وفي العصر شفتك يا فتنتي، ولم نفترق في الزحام البليد ــ وقبلت ثوبك يا فتنتي ، لانك انت رجائي الوحيد .

الا ان امرأة الوجد والبعث هذه لا تلبث ان تعقبها لدى الشاعر ، امراة التجربة والخطيئة ، التي لا ينفك نغمها يعزف في خاطره ، يدوي في سكينته ، ويعتريه بالظنون ، ولا يعتم ان يستحيل الى زوبعة نقمة وثورة اذ يرى نفسه مكبلة باصفاد الحياء والضعف يعجز عن ان يبوح لحبيبته بحبه ، يتحرق به مع اصحابه الذين ليس لديهم ما يشبع اودهم من عوز الغد.

« جارتي مدت من الشرفة حبلا من نغم .. ــ بيننا يا جارتي بحر عميق ...بيننا بحر من العجز رهيب عميق ــ القيت في رجلي الاصفاد مذ كنت صبيا ... انني خاو ومملوء بقش وغبار ، انا لا املك ما يملأ كفي طعاما ... ــ فاذكري زينه نور عيوني وعيون الرفقاء .. ورفاقي تعساء ، ربما لا يملك الواحد منهم حشو فم .»

فالشاعر ينفذ من التجربة الى تعليلها كظاهرة اجتماعية بين المرأة والرجل. فيستعرض نفسية الشاب الذي يعقد في نفسه لغز المرأة او بالاحرى عقدة الجنس يتجرر بها ، دون ان يجرؤ ان يواجهها وبالتالي ان ينتصر . وكذلك المرأة فهي دمية مرايا ولآليء ، تستنفد ايامها في التزين الخامل كانها قصرت حياتها على دور الانثى التي تتبرج لتغوي الرجل او بالاحرى-لتغوي امير احلامها ، الذي تود ان تتناجى معه بما عرف من تعابير في كلاسيكية الغزل ، والفروسية . وهنا يلتفت الشاعر الى نفسه فلا يبصر نفسه ، اميرا بل فقير مملوء بقش وغبار ، يشاركه صحبه في عوزه اذ لا يملكون حشو فمهم بالرغم من اهتمامهم بتقرير المصير . لاشك ان صلاح يحتذي في هذه القصيدة على غرار البياتي في قصيدة « الحريم » . لكننا بالرغم من ذلك ، نكاد نبصر فيها وجها من وجوه نفسيته . فهو ليس يتحدث عن المرأة بما هي امرأة ، وانما بمشاكلها الاجتماعية . فاذا كان الفن تعبيرا عن هموم النفس ، فاننا نستدل بذلك على ان هم الشاعر ليس المرأة بل المجتمع . وبذلك نبصر حقيقة التجديد في الادب اذ تختلف مواضيعه وتتجدد باختلاف نظرة الشاعر للحياة ، باختلاف مثله العليا ، وبالتالي همومه. فلو كان الشاعر يرى الى المرأة كدمية للعبث ، لاتانا بغزل جنسي كغزل نزار قباني . الا ان نظرته اليها كمواطنة جعلته يتحدث عنها بفساد واقعها في مجتمع لا يفهم حقيقة رسالتها .

وهكذا نشهد ان الشاعر قدتصدق تجربته فيما يتحدثعما يعانيه من المرأة ثم لا تعتم ان تغضب وتكاد ان تزيف ، عندما تصحبه او تطأه ، عبر عملية النظم ، اخيلة بعض الشعراء ، وتوجهه بعض الالتزامات الوطنية ، فيجارى السوية الخلقية على السوية النفسية ، اذ يداخل غالبا امر جهاده ورفاقه في حديثه مع حبيبته . كما اننا اذ نسلف هذا الرأي نتئد دون الجزم به ، لان نظرة الشاعر الى المرأة ليس تتكامل الا بتكامل دراستنا لشعره ، فهو لا يتحدث عنها مستقلة ، بل مرتبطة بنظرته للوطن والمجتمع وسائر قيم الوجود . انها وجه من وجوه معاناته الكبرى لعدم التكافؤ الاجتماعي الذي يؤدي الى ظلم القوى بالضعيف، الى تلون الحق بلون القوة ، وما الى ذلك من احوال ، تلابس اوصاف واسماء شتى ،تختلف ظاهريا وتتفق جوهرا في الدلالة على فساد الحياة وعقمها .

صلاح عبد الصبور

وتكاد لا تخلو قصائده من تلميح الى هذا الظلم والاغتصاب فهو آنا طائر اجدل منهوم ، وحينا طارق مجهول ملثم ، يومض في عينيه خنجران مسقيان بالسموم ، هو تارة تتري الدمار ، وطورا ذو الوجه الكئيب المستعمر . ولا يلبث هذا المغتصب ان يداهم اذاه فيتحول عن كونه تهديدا بالاغتصاب ووصفا له ، الى مأساة ، بل فجيعة اذ نراه يزرع الضحايا الابرياء في طريقه . فالطائر الاجدل يغزو طمأنينة وقناعة الطائر الصغير في عشه فيستحيل هذا العش الى مشهد من مشاهد المأساة الكبرى التي تعقد في نفس الشاعر عقدة الاسى بالوجود والتهالك فيه .

اما الطائر الملثم فيجثم على حياته يشغله بامر تقرير المصير عن سعادة الحب ووعوده ، فيعيش وحبيبته ينتظران نزهة الانتصار في الجبل بعد ان يواجها هذا الملثم ويحسما امر مصيرهم . ومن ثمة نبصر التتار يزحفون كلظى الجحيم، يدمرون مدينة الحضارة ، بينا يعود المستعمر يقتحم عليه بلاده وابناءها ، فيشنق زهران ويشج جبين ابيه ويدق الحديد على رأس اخيه .

هذا هو وجه المأساة التي يتردى بها الشاعر ، مأساة

تقصيه عمن يحب ، اذا كان محبا ، وتنقض على عش عائلته اذا كان والدا ، وتدمر مدينته وتستنزف موارده انسانا ومواطنا .

ولعل صدق تجربته يبدو هنا ، في انه يعاني مشكلة وطنه دون ان يعمد الى الدوي والرصاص وما الى ذلك ، من تعابير دنكوشوتيه ، ، يمتطيها بعض الشعراء ، ليوهموا جماعة القوم بصدق التزاميتهم . فعبد الصبور لا يتفجع ويرثي بلاده كأرميا ، ولكنه ليس يصلف ويستخفى مأساته ، كأبطال « كورنيه » وانما هو كفنييه ، يمثل مثل الانسان الحق ، الذي يحزن ويأسى لكنه ينطوي على حزنه يتضمغه ، بصمت واتزان :

« يا صاحبي اني حزين ، طلع الصباح فما ابتسمت ، ولم ينر وجهي الصباح ـ ، واتى المساء ـ في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في المساء لانه حزن ضرير ، حزن صموت .. حزن تمدد في المدينه ـ كاللص في جوف السكينة ، كالافعوان بلا فحيح ... »

هنا يبدو الشاعر مستسلما لحزنه ، لكنه ليس الحزن الصغير التافه ، بل حزن ذوي المصائر الكبرى عندما يعانون مصيرهم ، وتتحول بهم المصاعب الى التشاؤم والاسوداد .

« ما نحن الا نفضة رعناء من ريح سموم ، او امنية حمقاء ، والشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم ، او اناسمينا ببرج النحس كانا يا صديق » .

ففي هذه الابيات يؤمن الشاعر ايمان ابن الرومي بكيمياء السعد والنحس ، ويشك كشك ابي العلاء وبودلير بنفسيهما ، حتى ليخيل لهذا الاخير انه نغم شاذ في سيمفونية الاله الكبرى .

وسرعان ما يتحول تشاؤم عبد الصبور الى خطيئة اليأس . فلا تسعفه معرفته بأنه قادر على « ان يصنع الصباح وافراح الضياء » فيخفض رأسه ويبوح باستسلامه وترديه :

« اما انا فلقد عرفت نهاية الغدر العميق ، الحزن يفترش الطريق . » ويطالعنا الشاعر بمثل هذا الاستسلام في قصيدة « السلام » حيث يشيع جو اليأس والتهالك وفي قصيدة « الى الابد » حيث يخيل اليه ان حياته ستستنفد في دوامة السواد والبياض . هذه القصائد جملة يغلب عليها جو الاعتراف ، فهي تطالعنا بوجه قائد خسر المعركة ، تشخص خيبته امامه ، كوجه حزين مسلول يفترش طريقه ابدا . في هذه المعاناة الصامتة تبدو انسانية الشاعر ، فهو يبتعد عن عنجهية الشعراء الذين يدعون الوطنية كما ادعى بنو اسرائيل الهمم ، ينادونه بأفواههم وقلوبهم بعيدة عنه ، يبتعد عن هؤلاء ويبكي ، ولكن بدمعة ابي فراس العصية الخرساء ، ييأس ، لكن يأسه يأس المؤمن الذي يفتقد نعمة ربه وليس يأس الكافر الفار ، الذي يتحول يأسه الى عبث بالقيم وتنكر لها . وهو لذلك ليس ينجرف بالحرية والشرف « كالدجال والقراد والقواد والحاوي الطروب » ، هو لا يبيع الحق بثلاثين من فضة الشهوة والمصالح وانما يأسه وخطيئته ، كخطيئة بطرس ، الذي ينكر الحق ثلاثا ، لكنه لا يعتم ان ينهض ويصبح الصخرة التي تبنى عليها بيعة الحياة الجديدة :

« أماه قولي للصغار .. ، أيا صغار ، سنجوس بين بيوتنا الدكناء ، إن طلع النهار ، ونشيد ما هدم التتار » . او يقول : « اواحدتي وعرفت القلم ـ كتبت به احرفا شاعره ، ليعرف اخوتي الاصفياء ، نشيد البناء ، الملك لك » .

وهكذا ينتهي من مراحل الهدم والتهدم ويشرع في البناء ، البناء المؤمن الرسول . ويطيب للشاعر في زهوه ان يسبق اماله في الطريق كما يقول نسيب عريضه ، فيخيل اليه انه انتصر على المغتصب واذنابه وحاشيته :

« سيموت ذو الوجه الكئيب ، سيموت مختنقا بما يلقيه من عفن على وجه السماء ، في ذلك اليوم الحبيب ، ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء ، في موت ذي الوجه الكئيب . » او يقول : « اواحدتي ، في المساء الاخير الوب الى غرفتي ، ويزحم نفسي انبهار غريب ، وانظر يا فتنتي للسماء ، ومن بابها الذهبي الضياء ، يضيء الدجى بانهمار النجوم ينور في وجنتيها السلام ، وتصدح اجراسها بالفرح ، وافرح يا فتنتي بالحياة وبالارض ، بالملك ، بالملك ، الملك لك » .

وهكذا يبدو ان عملية الاصلاح لدى عبد الصبور ، صيرورة تمد وتجزر بين اليأس والفشل ، تتكامل كما تتكامل حياة الاولياء بالمجاهدة والتموت . فبين رغبته بالاصلاح وتحقيقه لها يشخص جحيم النفس التي تباشر اصلاح ذاتها دون تبجح وتذيع . فشعره لذلك شعر تجربة يعاني فيه مأساة الاصلاح وتمزقه كما شعر بها المصلحون الذين يحملون على اكتافهم عبء الانسانية جميعا .

الا ان صلاح لم يلزم شعره بنفسه على ابناء الشعب ، وانما أفاض في وصف هؤلاء يصلحهم آنا بالسخرية المضمرة وآونة بالاشفاق والرهبة ، وغالبا بهذه جميعا كما في قصائد « الناس في بلادي » « زهران » و « الملك لك » .

ولعل قصيدة السندباد هي اولى القصائد التي توضح هذه المحاولة اذ نبصر فيها الشعب من خلال اعماله واقواله . فالسندباد يمثل فضلا عن حب المغامرة نداء المجهول الذي ينبغي ان يحر الانسان ليدرك حقيقته ، فلا يكتفي المرء بأن يعيش دون ان يسعى لاكتشاف الاسرار التي تحيط بعيشه ، لا يقتنع بما جرت عليه عادة الاشياء ، وقناعتها المبتذلة ، لا يكتفي بالاستمرار التافه فيغرس كرمة ونبيذا ويتناسل ، كما يعيش في غريزة الاشياء ودوامتها المبهمة ، بل ينبغي ان يتخطى ذلك فلا يعود همه هم العيش ، بل هم عيشه وما وراءه ليحيا في حقيقة الاشياء ، دون عادتها . اما الشعب فقلما يصحب سندباد العقل والمجهول في مغامراته ، واذا قدر له شيء من ذلك ، فاننا نراه يهوم ابدا في فلسفة ساذجة لا ترى بهجة الحياة وغناها بل شؤمها وباطلها في موت الانسان ومبارحته الدنيا دون امواله وذويه . ولقد وفق الشاعر في اثارة جو هذه الفلسفة وتشخيصها في تصوير عزرائيل الشعب ذي الدفتر الصغير الازلي ، يدون فيه الارواح التي سيدحرجها الى الجحيم ، فهذه الفلسفة العدمية الساذجة بالاضافة الى ايمانهم بالقدر ، يجعلهم يتقاعدون عن السعي لكسب حياتهم ، فكيف بتجديدها وبعثها او المشاركة بحضارة الانسان ؟! فلا عجب أن يبصر الشاعر هؤلاء يتهالكون ويستحيلون الى جماعة من الذين

يرتدون جلباب الكتان القديم، جلباب البساطة والعقم، يبلون الجوع دون ان يتحفزوا للثورة ، يلبثون على سذاجة الله والقدر ، بينا يستبد بهم المستعمر مع حاشية الدجالين والقرادين الذين يبيعون القيم بمال او بوظيفة ونفوذ . هكذا يستمر جماعة الشعب يحلمون بما يريدون ان يحققوا من رفاهية ونعمة وفقا لما شاع في اساطير الف ليلة وليلة « بقصر مشيد وحورية في جوار السرير ومائدة فوقها الف صحن ، » يحلمون بهذه دون ان يسعى احدهم للثورة الا الفتى خليل الذي يرفع يده الى السماء ، معلنا ثورة الجيل الجديد العتيدة . لكن الشاعر لا يعتم ان يشهد امه تجاري نفسيتها نفسية الشعب ، تداويه بالتعاويذ ، تدربه على تقاليد المعيشة ، حتى ينزع العمى عن عينيه فجيعته بأخيه وابيه اللذين شج رأس احدهما الاستعمار ، بينا غز الحديد على رأس الثاني . وشد ما يتميز غيظ الشاعر عندما تلبث امه ، ويلبث القوم بالرغم من الفجيعة وتلك الجرائم، يدعون ويتضرعون بقدرة مبهمة ، يدعونها حينا القدر واحيانا القضاء او يتعاوذون بأسماء الانبياء ومن اليهم . وكأنما اراد عبد الصبور ان يشير الى عبث الشعب بمفهوم الدين، واتخاذه على غير حقيقته حتى يتحول الى خدر تتخدر به كبرياؤه وطموحه . وهكذا تصبح اسماء الاولياء والقديسين رموزا لتهرب الشعب من مواجهة نفسه والتخفي وراء اشياء ابتدعها وهمه ، ليتخلص من وطأة نفسه، وهكذا ايضا نبصر سخرية الشاعر تمتزج بالنقمة ، وتهكمه تشوبه المرارة فلا يدع وجها من وجوه هذه المهزلة الا وتصدى له حتى يخيل الينا ان وراء هذه المهزلة الصامتة، تكمن مأساة الانسان المعاصر ، فيصح فيها قول موسيه : « يا لها من مهازل لا نكاد نتضاحك لها حتى نبكي منها » اذن فمأساة الشاعر في احلامه المثالية التي تريد ان تبتني جنة الارض ، يسر بها ، فكرة او شوقا يراوده ،حتى اذا نفذ الى الواقع رأى ان تحقيق احلامه يصعب وربما يستحيل ، فيشعر بالخيبة بين الحلم والواقع ، خيبة من فقد جنته وفردوسه الحقيقيين . فمأساته ليست كمأساة ابن الرومي الذي تعصّى عليه التكافؤ مع عصره ليكتسب خبز البقاء ، وانما مأساته كمأساة المرسلين الذين يفشلون في بث دعوتهم وتحقيقها . لذلك نرى شبح الاسى واليأس يهومان باسودادهما على قصائده، حتى ليخشى الشاعر ان يواجه الصباح ، لانه يخشى ان يواجه احلامه وحقيقته التي تتداعى وتستحيل امام صعوبات الواقع :

« نزح الماء ولم ازل احيا بأحلام النيام ، ارد النهار بمقلتي سأمان من هول الزحام ، ماذا علي لو انعطفت لغرفتي .. حتى انام — واغوص في بحر السلام . النور عملاق يزلزل هدأتي .. ويهد امني ويريني المهوى العميق لرحلتي ، فيربع ظني ، يا ليل يا راحي ومصباحي وافراحي وكني ابعد رماح النور عني!..»

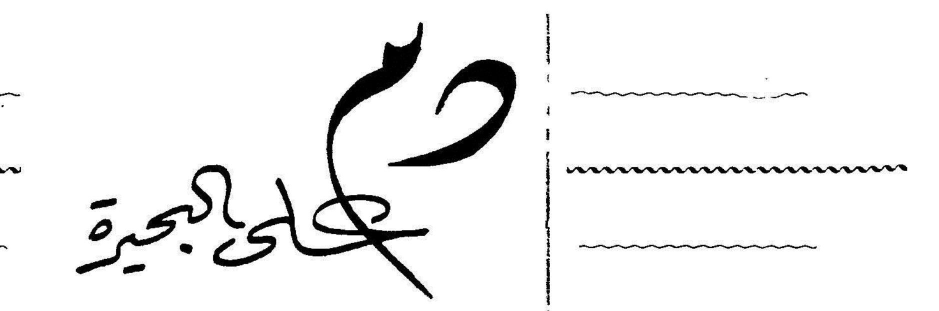
فالنور يزلزل هدأته كالحقيقة لانه يطلعه على الجحيم العميق الهوي لرحلته ، فكأن طريقه طريق الجلجلة . هنا يتمنى الشاعر ان يغمره الظلام بسلام النوم ليتروح من وطأة نفسه . فهو ليس يستسلم كالرومنطيقيين ويطلب راحة الموت ، وانما يطلب النوم ، اي مهلة يستريح فيها ليعود ويواجه الحقيقة والحراب التي تتصدى لطريقه المعذب الشريف . ولعل بودلير اشار الى هذه المحنة في قصائده التي سماها « الاسى والمثل » المثل التي يحياها في جنة الذهن والاسى ، اسى الواقع الذي يسفحها ويحيلها . فتجربة عبد الصبور بذلك تجربة صادقة لانها تعبير عن عقدة المثل في نفسه لم يفتعلها بارادة بل تعقدت فيها بالرغم منها كتعقد الحياة او بالاحرى لغز الحياة الذي يورى النفس بحرة المجهول .

✶

الا ان تجربة عبد الصبور بالرغم من اختلافها على مواضيع عديدة ، فهي لا تعدو ان تكون متوحدة متشابكة يستظل الموضوع الواحد فيها ظلال سائر المواضيع فتمتزج وتتآلف حتى ليستحيل علينا ان نتبين حدودها . فالمرأة هي وجه من وجوه نظرته للمجتمع ، وكذلك الشعب والمصير فهي جميعا متآخذة ، متلاحقة تومض احوالها في نفسه كملامح مختلفة بحقيقة نفسية واحدة ، تتخبط به في نزوعه من الانسانية البشعة الزائفة الى فردوس الانسان المتكامل .

اما ثقافة التجربة ، وهي لا تقل اهمية في سوية الاثر الفني عن التجربة ذاتها ، ان هذه الثقافة تترجح في شعره ، فبينا نراها تفتقد في قصيدة حتى لتهيض وتسف ، اذا بها تومض في صورة او في فلذة قصيدة اخرى حتى لا تكاد تتكافأ . فلو اتخذنا قصيدة « اغنية صغيرة » التي يتحدث فيها عن الحق الذي يجانب القوي على الضعيف لالفيناها تقوم جوهرا ، على فضيلة حكاية شعبية ابتذلت لكثرة التداول. فهو يصور طائرا قويا ينقض على طائر صغير مما يجري ابدا على السنة الشعب وحكمته . الا ان الشاعر لم يدع هذه الاقصوصة السافرة ، وانما حاول ان يغير ملامحها ، فاستضاف عليها بعض التفاصيل ، وحولها الى مشاهد مسرحية ، في الفة الطائر الصغير مع اليفته ، وحنانه على وحيده الزغيب ، فاستخفى ملامح القصة ليوهم القاريء بالجدة والابتكار ، وليموه عن عجز ثقافته في الاتصال بحقائق الانسان الخفية . وكذلك القول عن قصيدة « شنق زهران » التي تقص قصة شاب حر هصره الاستعمار . ليس في هذه القصة اخيلة او عمق تأويل وانما هي قصة لا يعدو جوهرها الخبر الصحفي الشائع او حكاية الالسنة في الاندية والمجالس ، اعتمدها الشاعر دون ان يقوى على نقلها من واقعها الشائع الى المظاهر الفكرية التي تنكفيء وراءه ، مما لا يبدو لطبيعة العقل الساذج . لذلك تسلط عليها ، يموهها ويطليها بالغموض لتلتبس القصة وتعمى ، فيتوهم القاريء الجدة في الغموض ، طفق يكسو الحادثة والمعنى بصور نفسية حتى يفتقد المعنى هويته القديمة ويتزور في هوية لا يلبث ان ينكشف زيفها . فهو لا يقول ان زهران احب ، بل يداور ويراوح هذا المعنى ، فيزعم ان زهيرة خضراء لكثرة ماء الحياة ، حمراء التاج ،

— التتمة على الصفحة ٤٦ —



(لا تهبط ادنى الجسر
لا تهبط
ما اشقى صيادالقى شبكه
في بركة دم
وتولى والصيد وفير
لكن الشبكة تنزف دم)

✶

«متولى»(١) سأمان الليله
لم يطعم زادا في يومه
لم يخل الى اولاده
منذ تبين أول خيط اسود
لم يسلم للظلمه نفسه
ومضى يمشي فوق الماء
صدر عريان وجبين يتشح الهم
والقارب اشلاء عظام منخوبه
فوق بحيره
(يا اهل القريه
لايبرح رجل داره
لا يهبط صياد ادنى الجسر
بئس العيش خضيبا في بحر دماء
اني اسمع للريح مناحه
وعويل نساء في الشاطيء يحملن الاطفال
ورفيقا تحت النجم قتيل
لم يدع الشبكة تهوي من يدهِ
حتى لفظت جثته الامواج)

✶

ذهبت ادراج الريح
صيحة « متولى » في اطباق الليل
لم تجر على شفة القريه
لم تطرق آذان الصيادين
كانوا ادنى الجسر يغوصون
لكن الصيد يحرمه جيران القريه
ادنى الجسر

✶

لم يحك رجال من عودتهم
عن مصرع فتيان كانوا أصفى
من حبات ندى فوق شراع
لم يحكوا عن عنق تهوى فيسيل الماء
بركة دم
كم نصبت في قاع الوادي تحتالشمس
تتحدى العاصف والتيار
تتحدى الصقر على قنته
عن أيد كم شقت بالمجداف طريق
لتطيل حبال العيش
شجت احناء رفاق من احباب القريه
كانوا يغشون غمار الموج
من اجل رغيف
لم يحكوا الا عن اطفال غرقوا
صرعى الآباء
وجدود غرماء في الصيد
غرسوا احقاد الابناء

✶

ما زال على درب القرية صوت يأتي
من جنبات النهر
يعرفه اولاد الصيادين
ما زالت صيحة «متولى » عبرالامواج:
(لا تهبط ادنى الجسر
لا تهبط
ما أشقى صيادا القى شبكه
في بركة دم
وتولى والصيد وفير
لكن الشبكة تنزف دم)

القاهرة **حسن فتح الباب**

(✶) صياد في القرية

المحطة الأولى

قصة

بقلم
وحيد النقاش

طويت الخطاب ، وكان أزرق اللون ، ولا رائحة تخرج منه. لم اكـن اريد شيئا بالتحديد ، ولم اكن انوي اللقاء ، فما ذلك ابدا باستطاعتي وليس من احد يدرك حقيقة الموقف سواي وحدي. اننا سنفترق ، وسيكون فراقنا للابد ، وسأكتب لها ذلك حالا ، حالا ..

فتحت احد ادراج مكتبي بيد مرتعشة ، واخرجت منه ورقة بيضـاء وقلما . أهكذا تكتب الخطابات الغرامية ؟.. لا يهم . فما هذا الذي أنا بسبيل كتابته سوى خطاب فراق . وانا لم اعرف الحب يوما ، ولا هي ايضا فيما يبدو . كان كلانا ينتظر الآخر من أجل لحظة ، لحظة تشف فيها الحياة وتتحول الى بهجة . ربما كان هذا هو الحب ، وقد اكون ممـن عرفوه دون ان ادري . غير ان العارفين والمجربين قد اوضحوا لي الامر على خلاف ذلك . وعلى العموم ، فان لقاءنا لم يكن له سبب آخر ،أقسم. وها هو نصيبنا الاخير : خطاب فراق . كلمات صغيرة منمقة الحـروف تجري فوق اسطر بيضاء كما يجري الغدير الصغير . وسيكون لها ، وانـا اكتبها ،صرير جميل كصرير المياه الهادئة . وساكتبها بعناية فائقــة ، وساحرص على الا احزنها ابدا . هي .. هي التي احببتها طويلا ، يـا للاسف ! أسوف نفترق اذن ؟ ولماذا ؟ ان حبنا لم يكتب له الدوام . أكان ذلك حبا ؟. وراعني السؤال .

وشرعت في الكتابة .

« صغيرتي :

اليوم تواعدنا على اللقاء في المساء كعادتنا دائما . وأنا احب اللقـاء في المساء يا صغيرتي عايده . وكذلك انت ، أحبك في المساء : أحـب رعشة جسدك وهو يكاد يلتصق بي ونحن سائران . واحب رعشة الدماء التي تسري في يديك اللتين تتشابكان حول عنقي . وساعتها كما تعرفين ستبدو لنا كل الاشياء بهيجة . وسننسى خوفنا من الناس . وسأحيي صديقك المدور الذي يسير في لجة السماء بطيئا بطيئا ولن أغار منـه أبدا يا عايدة ... »

وسرح بصري عبر النافذة ، وكان المساء قد إقترب . لا بد وأنها الآن تستعد للخروج . انها الآن بلا شك ترطب جسدها بذلك العطر الذي.طالما ملأ حواسي بلذائذ لا حصر لها في اللحظات القليلة التي كنت انفقها بالقرب منها .

وواصلت الكتابة .

« ولكني يا صديقتي ، يا حبيبتي الصغيرة .. ولكني اريد ان اقول لك شيئا » . ولم استطع ان اكتب حرفا واحدا زيادة على ذلك . ان طيورا كثيرة في الخارج تمر بسرعة فائقة . وهي الى جانب كونها طيورا ، فانها كائنات احب النظر اليها كثيرا وهي تسلم نفسها هكذا لروعة الفضاء، وخاصة عندما تقترب ظلال المساء في الايام الربيعية .

« ـ نحن طائران ، ولنا عش ، اليس كذلك يا حبيبي ؟

ـ نعم يا حبيبتي ، طائران نحن .. ولنا عش .

ـ أين تحب لنا ان نبنيه ؟ أهناك في أعلى هذه الشجرة ؟ .

ـ لا ، بل هناك ، في اعلى هذه الشجرة نفسها التي تشيرين اليها .»

انني في الحقيقة جد حزين . لن اسمع هذه الكلمات وامثالها بعد اليوم لن اسمعها ابدا . وهل يجب علي ان اتوق الى سماعها ؟ طالما فكرت في الموضوع ، وكانت النتيجة هي نفسها دائما ، دائما : اننا لا بد ان نفترق. لماذا ؟ وهنا فقط أعلن عجزي عن ادراك السبب .

«أسعدني يا صغيرتي العزيزة ان انظر الى كلماتك التي تشق طريقها الانيق على الصفحة الزرقاء ، وهو لون تعلمين أنت جيدا كم احبه . وانا اشكر لك بحثك الدائم عن الاشياء التي بوسعها ان تمنحني قليلا من الرضى . اشكر لك اهتمامك هذا بلحظات سعادتي التي يندر وجودها في حياتي.»

ومرة اخرى توقفت يدي عن الكتابة على الرغم مني . ليس في رأسي افكار اعبر عنها ، والقلم نفسه يريد ان يقف . والمساء ، المساء حزين . وليس من حزن اعمق من ذلك الذي يولده المساء في نفسي. حولت عيني عن النافذة وبدأت اجول بهما في محتويات الحجرة . واخذت احدق في كل شيء على حدة كأنما لاستنطقه معنى ما ، ولكم بدت الاشياء نفسها غريبة كأنني اراها واتعرف عليها لاول مرة ، وكأنها لم تكن موجودة هناك في امكنتها من قبل . في الماضي ، كنت اصافحها بعيني مصافحة سريعة لا مبالية ، ولم تكن تشغل وجداني على الاطلاق . والآن ، أشعر بحاجتي الى كل شيء ، ووجداني يحتضن بسخاء جميع الاشياء . ليتها معي الان، لتدرك مدى تعاستي . لا . لست ارغب في ان تكون هنا . على المكتب كانت اكوام من الكتب التي انتشرت عليها طبقة رقيقة من الغبار . وثمة كوب زجاجي مكسور يرقد على الحافة وهو على وشك الوقوع بين آونة واخرى . بداخله ماء ينسكب ببطء شديد من خلال الكسر فتسرى القطرات وتشق لها مجرى ضيقا بين الكتب حتى تتساقط برتابة على بلاط الحجرة.

ما كان لي ان ابحث ابدا عن حب : انا الذي طالما بحثت عنه دائما . كانت حياتي كلها سعيا متواصلا وراء لحظة حنان دافئة تفرش لي مهـدا حلوا في كلمة من قلب انسان ، في تلامس الاكف الرقيق الخجول ، وفـي نظرة حيية وديعة مغلوبة على امرها ساعة الفراق .

كان لي فيما مضى اصدقاء . وكنا نلتقي على الدوام بموعد وعن غير موعد ، لانه كان لا بد ان نلتقي . كان الحماس يفيض منا بنفس الدرجـة التي يفيض بها الحرمان والخوف المبهم من المستقبل . وكان كل واحـد منا يحاول ان يتخذ ركيزة لوجوده تحفظ له شيئا من التوازن . بعضهم ارتمى في حصن فكرة ، وبعضهم لجأ الى العمل والنضال دون ان يدفعه لذلك ايمان واضح . وكانوا يسلكون الاف الدروب الوعرة لآلاف الموضوعات وكانوا يقولون كلما استطالت نفسي في لحظات الصمت انني لا اشاركهم . وذهبوا واحدا تلو الآخر الى حيث لا ادري ، ولم يعودوا ابدا .. فهل كان علي ان احرص على صداقتهم ، انا الذي جهدت طويلا في البحث عنها ،

تلك الصداقة ؟.

كانت هي من بين من عرفت في بداية عهدي بالجامعة . كانت سمراء صغيرة ، وجهها دقيق الملامح ، ينطوي دوما على سر دفين . لم اكن اعيرها في بداية الامر ادنى انتباه . كنت احس انا الآخر الا مفر لي من الحرمان من الحب كبقية من صادفتهم من ابناء جيلي التعساء . ولكني ذات يوم اكتشفت استحالة الامر علي وعلى الجميع . وكان ان ألتقينا ، هي وانا . والواقع ان الاشياء حدثت باسرع مما أتوقع ، وباسرع مما احب ايضا . كنت احس ان موجة كبيرة انظر اليها منذ مدة وهي ما زالت على بعد كبير مني نظرة الخائف المذعورة . قد تغرقني هذه الموجة، وقد انجو منها واهنأ بها فوق ذلك . غير اني لم اكن على يقين من شيء. والمريع انني كنت اشعر بالرهبة تزداد شيئا فشيئا لان الموجة كانت تقترب شيئا فشيئا ، ولا مفر لي من مواجهتها . كان اقترابها يوقظ في نفسي انبهارا عجيبا . ولم يكن بوسعي ان اصم اذني عما كان يدور بداخلي حينئذ . ولذا وقفت اترقبها بخوف وشوق في نفس الوقت . وها هي ذي قد استغرقتني. انا الآن فيها . انها على الاصح قد اصبحت انا ، ولم اعد اقوى على الفصل بيني وبينها اطلاقا .حيرة بالغةكانت تكتنفني من كل جانب . احس كل لحظة ان كل شيء يرسم لي دون علمي ، وانني مدفوع كالذي اصابه خدر ، يرى الاشياء ويتذوقها ولكنه لا يستطيع ان يشاركها الحياة .

✶

قلت لنفسي في مساء ذلك اليوم الذي انبثق في صباحه الحب في داخلي : « اليوم التقيت بانسانة ندية ، انسانة خضراء . صحيح انني كنت التقيبها كل يوم قبل ذلك . كنت اراها واجلس معها واتحدث الساعات الطوال . ولكنها ما كانت لتعني لي اكثر من مستمع عابر لكلماتي المضطربة . كنت احس ان المصادفة قد جمعتنا كعابري طريق واحد قرر لهما ان يقفا جنبا الى جنب لدقائق ، فقررا ان يسليا بعضهما بالحديث حتى يصل كل منهما الى المكان الذي يريد . ولذا لم يكن الحماس يأخذني مطلقا وانا اتحدث اليها ، ليقيني الراسخ بانها لحظات .. وتنتهي. غير انني كنت مخدوعا. فأحيانا نلتقي برفيق لرحلتنا لا نقوى حتى على ممارسة التسلية معه . واحيانا اخرى ، حتى ولو كان الطريق قصيرا للغاية ، لا نفترق مع رفيق آخر ونكون قد تبادلنا واياه بطاقات التعارف واتفقنا على موعد آخر للقاء لا تقوم المصادفة فيه بأي دور . عندئذ تبدأ العلاقة الانسانية في ميلادها الباهر ، وتأخذ طريقها للنمو شيئا فشيئا . كانت الكلمات التي اسمعها منها ، حتى ما كان تافها ، تفتح لي عالما غريبا جدا لم اشعر بانني وجدت فيه من قبل طوال حياتي . وعندما قالت لي انها تحبني هذا الصباح ، كانت المصادفة قد كفت عن العمل وتلاشى دورها في الحال ، لقد تفجر في داخلي ينبوع ما لبث ان صار نهرا يمتلىء ويمتلىء بالمياه . مياه عذبة صافية كأنها تجمّع لقطرات ندى.» قلت لنفسي هذا الكلام ، وكنت راقدا في فراشي بعد ان اطفات نور الحجرة لكي انام . ولكني لم انم . وأي نوم ذلك الذي يمكن ان يأتي في ذلك الوقت ؟ لقد كنت احس انني لست فقط عازفا عن النوم ، بل وعن كل مراسيم حياتي العادية . اود لو ابقى في يقظة دائمة ، مكرسا كل ذرة من ذرات وجودي

✶

لذلك الشيء الذي اتوقع ان يحدث لي في الغد ، او ربما بعد غد ، وقد يكون في يوم لا ادريه من ايام المستقبل . « لحظة واحدة تشف فيها الحياة وتتحول الى بهجة » . أتلك كانت هي اللحظة ؟. وظللت أتقلب على جنبي طوال الليل في حجرة لا يصل اليها اي ضوء . ومن حين لآخر كانت بعض الاشعة تستلقي دفعة واحدة على الزجاج العلوي للباب ، آتية لا شك من مصباح الصالة الذي اوقده احد اخوتي ، او امي ،لشأن من الشئون ، فكانت الحجرة تلتمع بنور باهت جدا ، لا يلبث ان يهرب سريعا ، ليعود الظلام من جديد .

ـ الآن اريد ان اموت ، فقد تحقق لي اغلى ما تمنيته في حياتي : ان اسير جنبا الى جنبٍ معك ، في مثل هذا الطريق ، يدي في يدك ، والكلام الحلو يذيبني وهو يتدفق من بين شفتيك .

ـ أحقا كانت تلك اغلى امنياتك ؟

ورفعت رأسها فوق كتفي قليلا ، كما لو كانت قد وقفت على اطراف قدميها ، فاستطعت ان ارى توهج عينيها رغم عتمة المساء . وكان الطريق ممتدا امامنا بلا نهاية تظلله اشجار على الجانبين . وكنا سعيدين في تلك الامسية . كنا على وفاق ودي من العالم . كانت كل الاشياء تحبنا بقدر ما كنا نضفي عليها مما في انفسنا من تفتح . ولكن هذه الكلمة التي اعترضت ، خلال برهة ، نمونا الوقتي ، جعلتني ، دون شعور ، اتوقف لالقي عليها هذا السؤال . وعاودت سيري الى جوارها ببطء ، وصمت عن التفوه بأي حرف . فهل كانت حركتها المباغتة تلك ، وتوهج عينيها في ظلمة المساء ، ردا غامضا على سؤالي القلق ؟

انني لا زلت اذكر بشكل دقيق ، اذ كنت متنبها تنبها مرضيا لكل ما حدث بعد اليوم الاول ، تفاصيل الظروف التي دعتني الى هذه النزهة المسائية معها . فعلى غير عادتي قادتني قدماي في وقت مبكر الى الجامعة صباح اليوم التالي ، على الرغم من انني لم اكن قد حظيت بأقل قسط من الراحة . كنت مدفوعا باغراء شديد ، لا يقل قسوة عن الاغراء الذي كانت تسلطه غادة البحر على ملاهي الاغريق في الايام العاصفة ، وكانت الوعود الباهرة تتصاعد من داخلي انا ، ولم اكن استطيع ان اسد عنهااذني. يوم من ايام الربيع ، صباحه حلو يدعو الشباب للسعادة والنشاط مهما كانت الهموم التي تعتمل في نفوسهم . وكنت في حالة من اليقظة القاسية، وما ان عبرت الفناء الى الحديقة حتى رأيتها جالسة هناك ، وحدها ، تكاد ان تكون متكورة تحت ظل شجرة قصيرة . كانت صغيرة الحجم جدا وانا ارقبها من بعيد ، ومتناسقة مع ما كان يتناثر حولها من اشياء جميلة ، كأشجار الورد مثلا ، التي تقع على ابعاد متقاربة . لم يكن ثمة ضجيج قد ملأ المكان بعد . ولم اكن انا اتوقع هذا المجيء المبكر منها . ترى هل ظلت طوال الليل ، مثلي شاخصة بعينيها في فضاء حجرة بلا ضوء ؟ وملأني هذا الاستنتاج باحساس من الفرح المشوب بالقلق . وما ان بلغت المكان الذي كانت جالسة فيه ، وارتميت على العشب الى جوارها دون ان اقوى على القاء تحية الصباح عليها من فرط الانفعال ، حتى شاهدت بريق عينين بللهما الدمع .

ـ ألم تنم طوال الليل ؟

ـ كلا ، وانت ؟

ـ ولا انا .

ـ لماذا ؟

ـ كنت قلقة

ـ وهذا ما جاء بك مبكرة الى هنا ؟

ــ نعم ، وانت ايضا ، اليس كذلك ؟

ــ وانـا أيضا .

وشعرت برجفة تهز جسمي . ان اكون موضوع قلق انسان ، ما ، وان احرمه من النوم ليلة كاملة ، ما اروع هذا ! وما ان تلفت نحوها بعد ان حاولت مداراة انفعالي المباغت بتحويل وجهي عنها ، حتى رأيتها تفتح حقيبتها الصغيرة بيد خيل الي انها ترتعش ، وتخرج منها منديـلا ابيض صغيرا لتمسح به دمعتين تلألأتا في ضوء الشمس على خديها النحيلين . ولم اتساءل عن معنى الدموع . فأنا اعرف سلفا الاجابة عن مثل هـذا التساؤل ، اعرفها بوضوح يكمن في رغبتي الحقيقية في ان ابكي انا الآخر. ووجدتها تدس المنديل في الحقيبة ، ثم تهمس لي بصوت يخنقه الدمع :

ــ سنلتقي الليلة ، في المساء ، اتوافق على ذلك ؟

ولم اكن قد خبرت اللقاء من قبل في المساء مع فتاة تبلل عينيها الدموع من اجلي ، ولم اكن اعرف ماذا يمكن ان نعمل ولا اين نذهب اذا ما تقابلنا على هذه الصورة، غير اني قلت مباشرة :

ــ نعم ، أوافق

وكان ان التقينا في مساء ذلك اليوم ، وفي امسيات اخرى كثيرة .

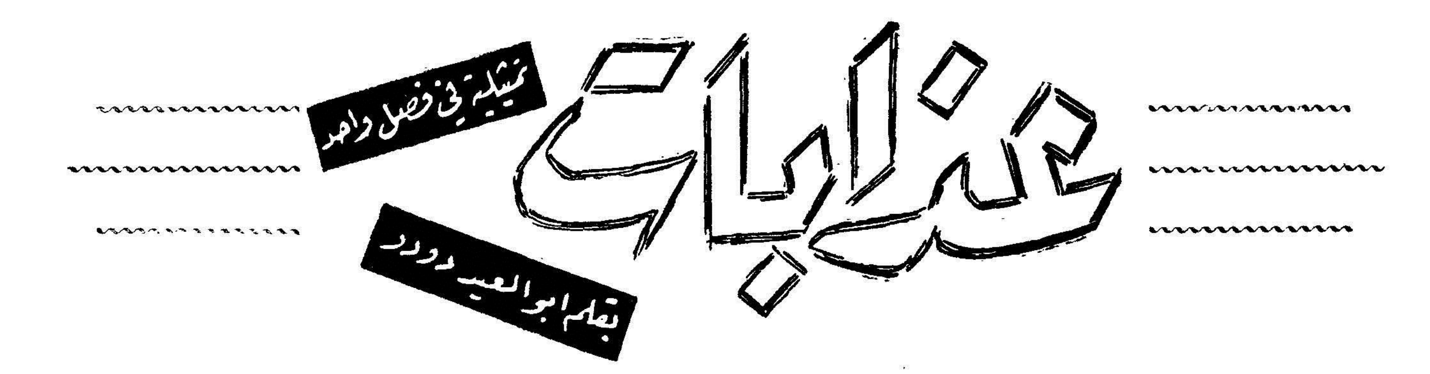
✶

عندما اطللت من نافذة حجرتي لاحاول ان اجمع شتات افكاري التـي سأخطها اليها ، كان الليل قد تقدم ، واضيئت مصابيح الشارع ، وأطلت من النوافذ الاخرى اضواء كثيرة ، بينما دبت الحركة ، حركة بداية الليـل ، في جميع الكائنات . رأيت البقال يرص بعض الكراسي امام محله ، رافعا صوته بين حين واخر ببعض الاجابات الغاضبة او الضاحكة الموجهة الى بعض زبائنه القادمين للسمر . ورأيت جارنا العجوز وهو يجر كرسيا من داخل شقته ليستريح عليه في الشرفة ، بينما جاءت زوجته الضخمـة الجثة وجلست امام قدميه على الارض ، ووقفت بنتاه في الطرف الآخر تتهامسان وقد اقترب رأساهما حتى تشابكت حبائل شعرهما . وارتفـع صوت المذياع باغنية قديمة لعبد الوهاب . ولما كانت هذه الضوضاء كفيلة بان تذهب من رأسي اي فكرة ، فقد تراجعت الى الداخل ، وفتحت مصراعي الشباك الجانبي الذي يطل على الشرفة ، اذ ذاك فاجأني منظر لن انساه : وجدتها ، امي ، بوجهها الشاحب شحوبا مخيفا ، ملتصقة بزاوية الشرفة ، ويدها على بطنها تحاول ان تمنع نفسها ، بكل ما تملكه من جهد ، من التقيؤ . بينما كان بكاء حار يهز جسدها المريض . وغير بعيد من المكان الذي كانت نصف جالسة فيه ، وقفت فتاة صغيرة جدا ، هي اختي ، فاغرة عينيها في فزع ، تحاول ان تكتم صرخة تكاد تمزق احشاءها .انا اعرف ان امي مريضة ، وانها ، منذ وضعت قدميها على ارض تلك المدينة الكبيرة ، وهي تشكو في صمت ، ما هو اكثر من المرض ، تشكو الغربة . ففي خلال سنوات وهي حبيسة حجرتها لا تغادرها مطلقا الا الى الطبيب ، ولا تلتقى بغير نظرات الرثاء . اسرعت اليها ، وعاونتها على الانتقال الى فراشها ، وسحبت الطفلة من يدها عائدا الى حجرتي . كانت ترتجف بشدة وقد علا وجهها الشحوب ووقعت عيناي ، والطفلة ما زالت متعلقة بذراعي ، على الخطاب الذي لم يكتمل . وادركت على الفور ان الموعد قد فات ، وانها لا بد وان تكون قد غادرت المكان بعد ان يئست من حضوري اليها . وران نفسي انقباض لم استطع التخـلص منه الا بعد ان رقـدت في الفراش وارحت الطفـلة على الوسادة بين شهقاتها المكتـومة ، وتطلعى الى لحظة بهيجة تشف فيها الحياة ، أتذوق حلاوتها الليلة حلاوتها المريرة . وساءلت نفسي : أفيكون هذا الذي حدث هو النهايـة المحتومة للخطاب الذي لم يكتمل ؟ ولم اعثر على جواب .

✶

سأظل ، ما حييت ، اتذكر دمعتين تلألأتا في اشعة شمس الربيع على خد نحيل من اجلى . ولن استطيع ان انسى ابدا ان كائنا رقيقا ، ورقيقا جدا قد اخبرني ذات صباح هدني فيه الاعياء انه قد اصابه القلق ليلة كاملة في حجرة لا ضوء فيها ، وان ذلك ايضا كان من اجلي. غير ان الوجه الشاحب الذي اكله المرض، وتحاول صاحبته بملامح قد تحجرت فيها قسوة النضال ضد الالم ، ان تمنع نفسها من التقيؤ ، والوجه الصغير العذب الذي امتلأ رعبـا لهـذا المنظـر ، هذان الوجهان العزيزان ، يهيبـان بي ان ابحث في الحياة عما هو ابعد من ذلك .

القاهرة — **وحيد النقاش**



« مهداة الى عثمان سعدى وسعد الله »

تقع الحادثة في معسكر للجيش على بعد اميال من مدينة « بجايـــة » .

الوقت نهار . الساعة التاسعة . يرى قائـــد الفرقـة مستلقيا على ظهره في الخيمة وعيناه مغمضتان استجابة لافكـار تلســع رأسه .

القائد : « يحدث نفسه » انهم يفنون حياتنا ببطء ، هؤلاء الاشقياء . لقد امتصصنا دماءهم ولكننا في عملية الامتصاص نعطي اكثر ممـــا نأخذ . يجب ان نضع حدا لاستهتارهم وعصيانهم .

« يثب واقفا ويصفق بيديه . يدخل احد الجنود » .

الجنـــدي : ســـيدي !

القائد : أين وضعتم الســـبايا ؟

الجندي : انهن هناك في العـــراء .

القائد : ايت بهن الى هنا حالا !

الجندي : امرك يا ســـيدي . « يخرج »

القائد : « وحده » هذا جنون .. ارهاق .. نحاول ان نفنيهم فتفنى اعصابنا قبل ذلك . « يتقدم نحو الباب في عصبية ويقف خارج الخيمة » يا لهم من جنس قذر !

« يقبل الجندي يرافقه ثلاثة اخرون يدفعون امامهم خمس نساء ثلاث منهن حبالى يتبعهن صبيان »

الجندي : ها هن يا ســـيدي .

القائد : « متأملا اياهن » هه .. زوجات الثوار بغايا ثائرات ! « يقترب من احداهن » .. انت قولي .. اخبريني اين ذهب زوجك ؟ « تسكت » تكلمي ! أجيبي يا شقية !

الجندي الثاني : ليسمح لي سيدي ، اظن انها لا تفهمك ؟..

القائد : أبدا .. انها تتجاهل فقط . انهم يحقدون علينا . يحقدون على كل شيء يخصنا . ألم تر كيف امتنعوا عن الذهاب الى مدارسنا؟ إنهم لا يريدون ان يتعلموا لغتنا .. لغة الحياة .

الجندي الرابع : ينبغي ان نستأصل هذا الحقد من اعماقهم وذلك عن طريق ابادتهم .

القائد : سنعلمهم كيف يحقدون على انفسهم لا علينا . فالحيـــاة تستنكف ان تحل في اجسادهم الموبوءة ، هؤلاء العصاة المردة . « يخاطب المرأة » قولي .. اين ذهب زوجك او اخوك او عمك ؟ أيـــن ذهبوا ؟ قولي ألا تعرفين عنهم شيئا ؟ تكلمي . « لا تجيب » خذي « يصفعها » ستجيبين رغما عنك . « تنظر اليه بعينين تقدحـــان شررا » لا تنظري الي هكذا يا بغي . ان عينيك تثيران ذعري . « للجندي » ريمون ! أغلق هاتين العينين . انهما شعلة تحرق اعصابي . لست أطيق النظر اليهما .

« يمسكها الجندي ويفقأ عينيها . يغرق وجهها في الدماء » .

الصبي : « مرتميا على الجندي » يا جبـــان ! أتفقأ عيني امي . انكم لا تغدون رجالا الا معنا نحن الضعاف . تف يا وحوش البشر .

القائد : آه يا ثائري الصغير . ان لك انت الاخر منطقا واضحا . منطق الارهاب . كنت اود ان استبقيك ، ولكنك تستعجل نهايتك على ما يظهر « يخرج المسدس ويطلق عليه ثلاث طلقات . يســـقط الطفل في حضن امه العمياء فتحضنه في صمت » .

الجندي الثالث : لقد نسوا يا سيدي احترام أسيادهم فينبغي اعادة الاحترام الى قلوبهم .

القائد : « يخاطب امرأة اخرى » وانت ؟ انك شهية ! لك نهدان ريفيـــان كبيران . اخبريني بحق جمالك الفاتن أين ذهب زوجك ؟

المرأة : « متعجبة » اتسألني عن زوجي ؟ انه هناك .. عاليا جدا .

القائد : أين ؟ ألا تستطيعين ان تصفي لي المكان ؟ قولي ولسوف أجازيك.

المرأة : « ساخرة » تجازيني ؟ أي نوع من المجازاة يا ترى ؟!

القائد : سأعيدك الى بيتك وأجعل لك مرتبا شهريا تعيشـــين منه انت وصغيرك المنتظر .

المرأة : حسنا . ولكن من قال لك اني أريد العودة الى بيتي ؟ بل مـــن أخبرك بأني ارغب في العيش تحت حمايتكم ؟ ان اللحاق بزوجي احب الي من العيش في ارض تطأها اقدامكم . أضف الى ذلـــك اننا قد ألفنـــا كل شيء .

القائد : لقد ألفتم كل شيء . وتعلمتم أشياء كثيرة . الا ان سلاحنــــا سينسيكم كل ما تعلمتموه . سيجعلكم تنسون انفسكم فـــلا تعرفون أحياء انتم او أموات .

المرأة : تستطيعون ان تفعلوا بنا ما تشاؤون . ولكنكم لن تطفئوا الشرارة التي انطلقت من اعماقنا لاحراقكم .

القائد : عظيم يا سيدتي . ان فوق لسانك « احمد » جديدا . انكم تنتفخون امامنا كالقطط الماجنة ثم لا تنتجون شيئا على الاطلاق. لقد خلت حياتكم من كل امل أو طموح وستظل انوارنا تنعكس عليكم الى الابد . لقد سكتم طويلا وحين نطقتم ملأتم آذاننـــا

صراخا وعويلا . ولم يبق لنا الا ان نريكم الطريق الى الخمـول السرمـدي .

المرأة : لقد سول لكم غباؤكم ان تحكموا علينا بالموت . في حين اننا كنـا فقط نبحث عن الوقود وما دام الوقود بين ايدينا فاننا لن نخرس حتى نطهر ارضنا من قذاراتكم .

القائد : ((مغتاظا)) بل ستخرسين يا بغي حين أبعج هذا البطن الكبير .

المرأة : لن نخرس حتى تلهبكم سياط ثورتنا فتستسلموا صاغرين ... ستفنوننا ولكننا سنتخذ الفنـاء طريقا الى الحياة . اننا نرتقي صعدا الى أعلى . وانتم تنزلون الى أسفل .. الى الحضيض .

القائد : ((فاقدا صوابه)) هكذا اذن ! ((للجنود)) هذا الصوت اسكتوه.. اسكتوه فلست أطيق سماعه . ((يتقدم اليها جنديان)) ويبقران بطنها في وحشية . فتقع ارضا . يتدحرج الجنين فوق التراب. يوجه الخطاب الى الباقيات)) هكذا سيكون مصيركن ان لم تعترفن بمكمـن ازواجكـن .

الجندي الاول : ((متعجبا)) سيدي انظر ! ان الجنين يتحرك .

القائد : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ اقتله قبل ان يهتف بالحرية . لقد اصبحوا يطالبون بالحرية حتى في أرحام امهاتهم !

الجندي الاول : ((ملتقطا الجنين برأس الحربة)) .. ستنال حريتك يـا صغيري .. ستنالها عبر لعلعات رصاصنا .

القائد : لم لا تبكين .. لا تولولن ؟ يظهر ان الرعب الذي نثرناه في أعماقكن لم يثمر . اننا نحب ان نقتلكم وانتم تتضرعون الينـا ... تقبلون أقدامنـا ..

احداهن : اننا لم نعد نخافكم . وكان الاجدر بك ان تسألنا ان نفـرح ، فنحن ندفع ثمن حريتنا وخلودنـا .

القائد : ((مشدوها)) ان منطقكن متشابه جدا .. من علمكن هذا الكلام ؟ والآن ألا تردن ان تعترفن ؟ ((يتناول الصبي الآخر . يخاطب امه)) انت ايتها الشمطاء المترهلة . تحدثي اين يختبىء زوجك ؟ تحدثي والا فسوف اذبح صغيرك فوق فخذيك . ((يخرج المدية ويضعها فوق عنق الصغير)) .

الام : انـه هنـاك ..

القائد : ((محنقا)) .. أين ؟ .. أين ؟ .. ان هنـاك لا تكفي . ((يمرر المدية فوق عنـق الصغـير)) .

الام : ((مفجوعـة)) دع صغيري وسوف اخبرك .

القائد : تكلمي ..

الام : ستجدونـه هنـاك ..

القائد : لا تقولي هناك . انك تحرقين اعصابي . ألم تتعلمن غير هنـاك هـذه ؟..

الصغير : ((مفرغرا)) اسـكتي .. اسكتي يا اماه !

الام : بلى ... في المعقل الحصين .

القائد : ((مبتهجا)) نعم يا سيدتي .. حسنا جدا .. المعقل الحصين وبعد ؟ استمري ..

الام : انه مكان كان مهجورا ثم اصبح معقلا وملجأ لابنـاء الحياة .

القائد : ((متعجبا)) أبناء الحياة ! ! ما معنى هذا ؟!

الام : معناه ان رجالنا الخارجين عن القانون كما تسمونهم قد سـئموا العيش تحت ظلكم وصمموا عـلى استعادة حقهم في الحيـاة الطليقـة ...

القائد : من اين جاءتكم هذه الالفاظ ايها الاغبيـاء . انها لم تكن موجودة في قاموس حياتكم . واخيرا ألا تريدين الاعتراف ((يشد الخناق على الصغير فتند عنه غرغرة محزنة))

الام : لقد نفضت في أذنيك كل ما اعرف . وما عليك الا ان تسلك هذه الطريق الصاعدة الى اعلى .. ستجدونهم هناك ينتظرون .. ألم تفهـم بعـد ؟ ..

القائد : بلى يا سيدتي لقد فهمت كل شـيء .. كأني بك تريدين ان تدفعيني الى ملاقاة حتفي .. فاليك هذا اذن ((يذبح الطفـل ويلقيه بين أحضانها))

الام : ((ترفع الصغير الى صدرها وتقبله)) آه يا كبدي .. ان جيلنـا جيل الفداء . الحمدلله .

القائد : لقد جدت لديكم كلمات كثيرة ومفهومات املاها عليكم الفنـاء الذي تطمحون اليـه .

الام : مرحبا بالفنـاء ان كان لا بد منه في سبيل الوطن ..

القائد : ((للجنود)) لم اعد اطيق . خذوهن . أعيدوهن الى حيث كن.. ((يقتاد الجنود النسوة .. ينصرف القائد الى خيمته . بعـد قليل تسمع طلقات نارية ترافقها قهقهات مستهترة)) ..

القائد : ((محدثا نفسه)) اننا رسـل حرية .. ولكن من يطالبنا بالحرية كمن يطالبنـا بالمـوت .. بالابادة والفنـاء .

((ختـام))

ابو العيد قاسم دودو — جامعة فيينا

تمثال

(في لندن تمثال صامت حزين . وأغرب ما في امر هذا التمثال انه يتحرك .. ولكن ببطء .. غريب .. جدا ..)

خفف الوطء علينا بابتسامه
لا ترعنا بهوانك
وامسح الدمع ، ولا تسد الملامه
لزمانك
قد رأيناك فهجنا ادمعا
وانتحبنا لعذابك
دائما تشكو المآسي في شبابك ..
أي سهم نال منك المصرعا ؟

. . . .

انت ، يا تمثال ، تمثال المآسي
قد براك الدهر نابا وسنانا
فاض منا الدمع نارا في الاماسي
اذ رأيناك مدى العمر مهانا
غارقا في بحر صمتك
تتلوى من مآسيك ومقتك
خفف الوطء علينا بابتسامه
وامسح الدمع ولا تسد الملامه
دهرنا دهر عذاب وظلامه
كلنا يشكو ظلامه

. . . .

انت يا تمثال من خطّط رسمك ؟
وأذاب الحزن ظلا كان وسمك ؟
راتعا فوق محياك الكئيبِ
حاملا في سره كل رهيبِ
عن عذاب البشريه
في صراع الابديه
وانتفاضات الشقاءِ
في التفاتات المساءِ

في ربوع الجوع .. والحرمان .. والعيش الكئيبِ

. . . .

ليتني مزقت من قدّ قوامك
بحرابي
فيم عرّاك ابتسامك ؟
ثم وشّاك بأثلام العذابِ
صب في وجهك حزن الاعصرِ
واصطخاب القدر
صاغ في وجهك افق الكدر
دامع النجم ، رهيب الصور

. . . .

ليتني حطمت مثّالا اقامك
حين عراك ابتسامك
ثم وشى بالمآسي وجنتيك
ثم اجرى نهر دمع هادر من مقلتيك
ضم في موجاته السود عذاب البشريه
في صراع الابديه
ليتني حطمت مثالا اقامك
حين عراك ابتسامك
خط في وجهك اثلام عذابك
وابتلانا باكتئابك
ليتني حطمته
وبفأسي نلته
انه في بدعة الفن سخافه
ليس يدري أي معنى الطافه
ليتني حطمته
وبفأسي نلته
حين عراك ابتسامك

لندن — **رامي لبابيدي**

شعر عبد الصبور ... بين المعرفه والتجربه

— تتمة المنشور على الصفحة ٣٨ —

نمت في قلبه . فتخايل انه ثقف المعنى ، فيما نماه الى الزهرة الخضراء والتاج الاحمر ، لكنه في الواقع اسبغ عليه زيا جديدا لا مجديا دون ان يتيسر له بعمق التأويل ، يستمده من عمق ثقافته . واننا لنشعر غبما نتاوه ، بتعمد الشاعر وكده في تصوير المعنى ليخلع عليه جدة الصور او تمويهها . نستدل من ذلك جميعه ان الشاعر فيما يعييه التحسس بجذور التجربة ، يقنع معانيه باقنعة الصور الذهنية الخارجية فيأتي برسوم خرساء لا رصيد لها في النفس .

الا اننا قد نشاهده يفتض عقم الاشياء والظواهر ، فيستطلع مما وراءها معاني ونظريات ليست تشرق الا في الفن المثقف . فالشاعر ليس يمثل السندباد في خرافة السفينة المبهمة ، بل ينفذ مما شاع عنه من مغامرات الى الاصول النفسية التي تقررها ، فلا يعود السندباد يمثل طرافة المصير ، بل طفرة الانسان الهارب من دوامة نفسه ، وراء المفاجأة والاكتشاف ، يتروح به ، ويستطلع حقيقته من حقيقة الوجود . وقد نعثر على عمق التجربة ايضا في قصيدة « بحر الحداد » لانها تعتمد على القرارة النفسية . كذلك نبصر الشاعر يوشك ان ينفذ من حدود المعرفة الشائعة ، الى فهم جديد في قصائد الطفل ، الحزن والسلام ، فضلا عن الناس في بلاده .

لكن هذه الثقافة ليست متماسكة وليست تفيض او تشرق اشراقا كما نراها عند كبار الشعراء وانما تستضيء بضوء شاحب يخالج ويكاد ان يعمى ، فكأنه فيما تعقد بنفسه عقدة التجربة ، يلبث يتخبط بها ، دون ان ترفده ثقافته لتجتمع له صيرورة الانسان المعاصر ، الا انه وان قصرت ثقافته عن افاضة التجربة ، فان كثيرا من الاختبارات الفكرية والحياتية ، تتراءى من خلال الصور التي تكسو معانيه ، تتآخذ وتترافد ، في غفلة الحدس حتى يتوفر شعره بومضات عميقة المعاناة والتجربة :

« واتى المساء ، في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في المساء لانه حزن ضرير ، حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم ،حزن صموت، والحزن لا يعني الرضاء بان امنيه تموت ، وبان اياما تفوت ، وان مرفقنا وهن ، وبان ريحا من عفن ، مس الحياة فاصبحت وكل ما فيها مقيت » او يقول : «جارتي مدت من الشرفة حبلا من نغم .. نغم كالنار يقلع من قلبي السكينة ، نغم يورق في نفسي ادغالا حزينة »

... وكذلك في القصيدة الاولى من الديوان : »

« الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير ، ويطلق الظنون في فراشي الصغير ، ويثقل الفؤاد بالسواد ، ورحلة الضياع في بحر الحداد .»

وثمة قصيدة الطفل في الديوان التي يتجلى فيها عبد الصبور تجليا ، فتصدق تجربته وتصفو ثقافته وتتبلور صوره ، فلا نعود نبصر وطأة النظريات والاشخاص عليه الا ان مثل هذه القصائد وتلك الصور تندر في شعر عبد الصبور ، وتلبث القصيدة تتموج بشريط من الصور التي يخيل الينا اننا نعرفها في مشاع الصور وان كنا نعجز ان نسترجعها الى اصل غير اصلها . لذلك يمكننا ان نقول ان شعر عبد الصبور لا يقوم على فضيلة العمق في التجربة والصور وانما على فضيلة الاخلاص غالبا وجدة الموضوع المتأتية من جدة نظرته الى الحياة . فهي لذلك لا يمكن ان نقطع بانها ليست شعرا كما اننا لا يمكننا ان نرضى بها كشعر خالد سوي نطل به على قمم العالم والخلود وانما هي تترجح بين ذينك الحالين ، تشرق فيها لحظة حدس خارق فتنفذ الى الذروة في بيت او صورة وينطفيء حدسها غالبا فتتهالك وتسف .

★

واننا ، بعد ، وان تعرضنا لانسانية التجربة واخلاصها ومن ثمة لملامح الثقافة فيها فلسنا ندعي بذلك ان هذه العناصر تنوجد متفاصلة في النفس وانما تومض جميعا ، عبر غفلة مبهمة في حالة لا حدود فيها او استقلال وتفاصيل ، ولا يعدو ان يكون عملنا في عزل هذه الملامح ، احدى عن الاخر ، تواضعا نميز فيه بعض مميزاتها لنفضى منها جميعا ، الى فهم عام لمميزات الحالة الداخلية . فحري بنا بعد ان بصرنا بملامح التجربة ان نتعرف لكيفية نقله غيب النفس الى شكل فني ظاهر

★

لعل اسلوب الشاعر في هذا الشأن يقوم على فضيلة الصور المتطاردة ، تتلاحق في الذهن كالارقام والاعداد في معادلة علمية . وليس هذا الاسلوب مما ابتكره عبد الصبور وانما قد استفاده من تجارب الشعراء الاجانب الذين جعلوا يراودون التجربة فيما هي حالة تومض في النفس ان تتحول الى فكرة ذات استقلال وخلود . فالشاعر يتذهل عما في خاطره لئلا تستقر التجربة وتتواعى معانيها في تدرج منطقي يفهمه العقل فيشوهه ويميته . ولقد افضت في الحديث على هذا الشأن في مناقشة سابقة (الآداب مايو ١٩٥٧) مما لا جدوى من تكراره وانما اكتفي بان اشير هنا الى واقع غفل عنه بعض شعرائنا ممن انضووا لهذا الاسلوب. ان الصور المتطاردة او هذه الملاحظات النفسية التي تتابع كشريط من الاضواء ، لم تكن وفقا لما بصرنا منها عند جدها الاكبر « رانبو » ، خواطر تتجامع وتتواتر كارقام علمية ، فالشاعر ليس يقيم معادلة التجربة بتلك الصور الارقام ، وانما هي في غيب نفسه المبهمة تشرق ملامحها متآلفة

وليست متلاحقة ، تفيض فيضا وليست تتدرج في منطق كاذب مملول . فالعيب الفني ليس يتفق مع التعداد لان التعداد عملية ذهنية منطقية ، ليست تقبض على ظلاله واضوائه وما يتموج بين هذه وتلك من حقيقة الشعور الذي تبرم فيه حقيقة النفس وبالتالي حقيقة الانسان . فالشعر عبر تخطفه واشراقه ، ينبغي ان ينثال انثيالا كالضوء من الشمس ان يفيض فيضا كالينبوع من معدن الارض. اما اذا قبض وتقسط بافكار وصور فانه يتعطل ويجف . ولا جدوى من الاسراع في ملاحقة الصور ومشابكتها تعطيل ما بينها من اسباب منطقية ، لان الصورة عندما تلحق برفيقتها لا تعدو ان تكون في الواقع لحاق فكرة بفكرة او ادراك بادراك وبالتالي منطق بمنطق. ولئن كان جماعة هذا الاسلوب الغربيون تنكروا لكل ملامح المنطق الواعي، فان مقلدي هذا الاسلوب عندنا ، غصبوا واو العطف ، على الدلالة المنطقية، لكثرة ما تتردد في البيت الواحد ، حتى كأن الشعر يقوم معها على تنظيم الصور وفقا لنظام كرونولوجي ، لا جذوة فيه . ولعل عبد الصبور يحتذي حذو البياتي الذي نجد واو العطف في شعره تقف كخلية ميتة تمنع تصرف الحياة وتآخذها بين اعضاء الجسم الحي . والى القاريء هذا المقطع من قصيدة « هجوم التتار » :

هجم التتار ، ورموا مدينتنا العريقة بالدمار ، رجعت كتائبنا ممزقة .. وقد حمي النهار ، الراية السوداء والجرحى ، وقافلة موات ، والطبلة الجوفاء والخطو الذليل بلا التفات ، واكف جندي تدق على الخشب ، لحن السغب »

ففي هذا المقطع نرى الواو يطغى جرسها ويشتد حتى يتحول نغم القصيدة فضلا عن احوال التجربة ، الى وتيرة واحدة ، تخالج وتنازع حتى تستنفد شوق القاريء للاستطلاع ، وتتحول فضلا عن ذلك الى عبء يطأه . واننا دون ان نذكر هؤلاء بالحكمة القديمة التي ترى ان البلاغة تقوم على حسن قطع ومواصلة الجمل ، نؤكد لهم ان هذه الواو توهمهم بالانتصار لكنه في الواقع انتصار سهل حتى كأنه الانكسار ، يسهل ان نجمع اشلاء التجربة في ذهننا ، نعاطفها بواو عيبه، لكنه يصعب ان نستكمل الصورة في وحدة تفيض فيضا او تنتشر انتشاراً ، وليست تتعاور دفعة وراء دفعة ، كلما اتصلت بحرف مميت لا دلالة له ولا ظلال . وشد ما يتخذ عبد الصبور هذا الاسلوب عندما يحاول ان يوحي الجو النفسي الداخلي بملامح خارجية في البيئة وما اليها . فيطفق يطارد الصور الواحدة وراء الاخرى كانما يخيل أليه انه يتعوض بسرعة دورانها الخارجي عن ذهولها الداخلي ، وربما اعتقد ان الصورة اذا مرت سريعة على حدقة الذهن ليست تطبع فيه وانما تطبع ظلا لها او اثرا منها ، وهكذا اذ تتوالى هذه الاثار بسرعة على حدقة الذهن تعمى هذه الحدقة ، وتلتبس على ذاتها وتقع في الذهول ، الا ان هذه النظرية ليست تصح في واقع العملية الفنية اذ تأتي الصور مفككة تعمي الذهن دون ان تذهله ، لان تفككها يعطل فيها الحياة وبالتالي حرارة التجربة :

« امي .. انت بسفح ذاك التل بين الهاربين ، والليل يعقد للصغار الرعب من تحت الجفون ، والجوع والثوب الشفيف ، والصم والسعلاة والظلماء تقعي في الكهوف ، اترى بكيت لان قريتنا حطام ..؟»

فهو هنا يصف جو الرعبة والخوف الذي يستبد باللاجئين الهاربين بسفح الجبل فيصف عيون الصغار والجوع والعري واصوات حشرات الليل ليعقد في نفسنا مشهد الصورة او خطوطها الكبرى ويدع لنا ان نتملى ظلالها واجواءها ، هذا الاسلوب الصوري المتدارج ، قد يوهمنا ويوهم صاحبه بصدق العملية الفنية ، لكنه ليس في الواقع الا تخديرا او تهربا منها لانه تعداد ذهني يبتعد عن التجربة ليشاهد خطوطها الكبرى الناتئة التي تعدم الظلال والاهداب . واننا يسهل علينا ان نتصرف لوصف حالة نفسية بنطف من الصور الذهنية ، فأمثل الفرح النفسي ، بصباح ابيض تشرق اضواؤه على جنائن خضراء تصدح فيها الايكة ، بين الضوء والعبير ، الا ان عملي هذا لا يعدو ان يكون معادلة كيمائية او حسابية لا عصبية فيها ولا معاناة . وايسر لنا اذا تحول الشعر الى هذا العبث الخارجي ، ان نقيم لكل حالة من احوال النفس معادلتها المقننة فيكتفي الشعراء من عناء الكد وراء صيرورة شعرهم الذاهلة . الشعر كالحياة، حدوده ابعد من حدود المنطق والفلسفة، لانه ليس يتسلط على النفس ليفهمها ، وانما هو النفس فيما تعاني وتحقق ذاتها . وكل ارادة او ادراك يتسلط به على النفس يعطل حقيقتها ويصبح كالعقل والمنطق قيدا يقيدها من الخارج . الفلسفة تسعى الى تفهم النفس . اما الشعر فيسعى الى ان يتعمق ويتملى تجربتها لذلك كان التعداد والابتسار والتجزيء تمثل جميعا مثل المعرفة والاخفاق .

وقد تشخص في العملية الفنية ظاهرة خارجية اخرى في تلك الصور التي لا نشاهدها او نشاهد اشباهها في الواقع وانما كانت تنشر الويتها في خيال بعض الشعراء الاجانب الذين اغرقتهم همومهم الفنية في غيبوبة دائمة كغيبوبة الانبياء ، لذلك جعلنا نبصر في شعرهم صورا تقرب بغرابتها الى صور « الابوكلبس » او رؤيا يوحنا ، تفيض في تلك الرؤى الغامضة التي تساكن اذهانهم من جراء تعطل حواسهم الواعية وتداخلها بعضا ببعض . واننا بعد درسنا لشعر عبد الصبور الفينا تجربته تذهل بعض الاحيان ، لكن لا تلبث ان تختل حواسه وتفيض بمثل هذا الهذيان الصوري ، لذلك لست ادري الى اي حد يمكننا ان نعتقد ان الصور التالية مفاضة من اعصابه لا من ذاكرته : « ومشى الحزن الى الاكواخ تنين له الف ذراع ، كل دهليز ذراع . »

او هذه الصورة : « عيناه خنجران مسقيان بالسموم والوجه من تحت اللثام وجه بوم» فهذه الصورة متعمدة معدة سابقا في الذهن ، بعد ان اقتبست عن صور «الابوكليبس» كما اقتبست صور « اغنية حب » عن نشيد الانشاد ،لذلك فهي تتموج بين نبوءة رؤيا يوحنا ، وغرابة خيال شكسبير واختلال او جنون اعصاب ادغار الن بو ، لكنها تخرج ابدا

عن السياق الصوري القريب المتناول الذي يغلب على قصائد عبد الصبور .

ولقد افتض عبد الصبور الى ذلك ، تقليد الصوت الواحد في القصيدة الذي كان جرى عليه عمود الشعر القديم ، فجعل يداخل الاصوات ويخالفها كما أنه طفق يعتمد على التعابير الشعبية يجريها ضمن اسلوبه ليحرره من وثنية العبارة وذهنيتها فيقوى على تلمس حقيقة الشعب من خلال تعابيره ، فكما اننا نبصر زهران من خلال تصرفاته في شراء العمامة الخضراء ، كذلك نلمس مراسيم عرسه في التعابير ألشعبية اذ يقول :

« كان يا ما كان ان زفت لزهران جميله ــ كان يا ما كان ان انجب زهران غلامه .. وغلاما كان يا ما كان ان مرت لياليه الطويلة .»

الا انه لم يستطع ان يلاحم ويؤالف هذه الصور لتنسجم مع روح تعابيره .

وثمة ظاهرة الميثولوجيا التي كانت شاعت في ادب مطلع القرن الثامن عشر ، يتحدث فيها الشعراء باشواقهم في اشواق اشخاص الاسطورة اليونانية والرومانية . ولقداستعاد المعاصرون هذه الميثولوجيا ، لكنهم لم يستغرقوا في خيالها الاسطوري بل استمدوا الاسس الفكرية والنفسية التي يشير اليها يتخذونها كتقية لافكارهم وتجاربهم . فهم يستمدون مواضيع شعرهم او معانيه من الاسطورة فيخصبونه ويضفون على واقع نفوسهم روعة الواقع الاسطوري ويقينه .

وايا ما كانت الحال ، فان هذه النزعة ليست تجتدي الشاعر الا اذا شحذت تجربته ثقافة عميقة تنفذ من ظاهر الاسطورة الى جذورها الفكرية النفسية . ولقد اعتمد عبد الصبور هذه الظاهرة في قصيدتي « السندباد » « والناس في بلادي » فاغنى تجربته بعض الشيء. الا ان تعطل النغم في تعطل القافية غالبا ، واستماتته في عقم الشجو الداخلي، حولا هاتين القصيدتين وغالب قصائده الى شبه معادلة محيرة ، لها ملامح الشعر دون حقيقته ، وكنت اود ان افيض في حديثي عن الموسيقى في شعر عبد الصبور الا انني آليت ان اتوفر لها بمقال مستقل لاحق لخطورة البحث وتعقيده من الناحية الفنية .

★

وبعد ، فانه يتضح لنا من ذلك كله ان صلاح ألدين عبد الصبور شاعر يحاول ان يخلص في تجربته فيوفق ببعض الصور الفنية وبعض التجارب ، لكن معرفته بنظريات الفن والحياة ، جعلت تطأه من الخارج ، بعض الاحيان ، فلبث تترجح قصائده بين المعرفة والتجربة ، تصفو فيه بعض فلذات ، ويتردى سائره في وتيرة شائعة او في عقم النظرية والمعرفة .

ايلي الحاوي

مناقشات قومية

معنى التحرر العربي

بقلم ناجي علوش

لكل ثورة منطلق ...

ولكل منطلق سمات ومميزات تكتسب منها الثورة طابعها وملامحها وكل منطلق ، هو المجال الثوري للعقيدة، والاساس الفكري للثورة ، الاساس الذي يعطيها معناها وحدودها ، ويحتم عليها سلوك سبيل معين يحدده الوعي العقائدي لهذا المنطلق ولعناصره التاريخية والاجتماعية والاقتصادية .

واذن فحتمية التطور النابعة من سنة الحياة تتلاقى مع طوعية الاتجاه النابعة من نوع الوعي الموضوعي الذي يحدده .

وهذا ما يجبرنا دائما وابدا على اعادة النظر في الاسس التي تقوم عليها الثورة وتوكيد النتائج التي وصل اليها الوعي العقائدي لايضاح علاقة كل خطوة بالثورة ومكانتها منها ، ولاثراء الثورة بالكشف الواعي المستمر على تجاربها وابعاد الشوائب والاخلاط عن التيار الصاعد حتى لا يحصل على الالتباس وتحل النكسة .

لذلك كله اود ان اطرح على نفسي ثلاثة أسئلة :

الاول : ما هو منطلق الثورة العربية ؟

الثاني : ما هي المميزات والسمات التي تكتسب منها طابعها وملامحها ؟

الثالث : كيف يصبح المنطلق مجالا ثوريا ، واساسا فكريا في مستوى الرسالة ؟

ولسنا نظن ان هنالك اختلافا على ان الانسان العربي الذي نراه اليوم مناضلا وحائرا وممزقا ، هو منطلق الثورة ، وان ارادته في الحياة الحرة الكريمة هي التي تعطي التطور معناه وضرورته .

كما انني لا اعتقد ان هنالك اختلافا على ان الوعي الموضوعي لعناصر واقعه التاريخي والاجتماعي والاقتصادي هو الذي يحدد اتجاه الثورة وعمقها وأصالتها ..

ولما كنا نعرف من الدراسة التاريخية البسيطة ان الانسان العربي معروف بانه قدر ثوري لمقدرته على التكيف السريع والابداع ، ونعرف ان الواقع الحاضر هو تراث قرون من الظلمة والحرمان والبؤس ، ناتج عن ازمة الفرد العربي بالذات ، فان علينا ان لا ننسى العلاقة الموضوعية بين هذه الازمة والواقع ...

ولذلك فان على الثورة ان تستمد خطوطها من الحقائق الاتية :

أ ـ الانسان العربي بما عرف عنه من حيوية وابداع وقدرة على التكيف السريع ، ومن تعلق فائق بالقيم والمثل وشعور بالغ بحقه في ان يكون كريما .

ب ـ الواقع العربي التاريخي الذي يحدد علاقة الفرد العربي بنفسه وبالاخرين وبالانسانية وبما نستطيع ان نجده في ذلك من امكانية للتفاعل تبلغ الذروة .

ج ـ الواقع العربي بما هو عليه الان متمثلا بأزمة الفرد العربي المتفاعلة دائما وابدا مع التخلف الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .. هذه الازمة التي كان من نتيجتها وجود الاستعمار والتجزئة والفوضى الاجتماعية والعبودية ... وضياع عربستان واسكندرونه وفلسطين ...

د ـ ما احرزه العلم من التقدم في مجالات علم النفس والاجتماع والعلم التطبيقي ، وما يمكن ان يؤدي اليه هذا من ازدهار وتفتح اذا استغل استغلالا مفيدا .

هذا هو المجال العقائدي للثورة .

اما الاسس الثورية للعقيدة ، فانها ليست الا الفهم الواعي المسلح بالفكر الانقلابي ، والذي يعني العملية والعلمية والوضوح والثورية والشمول .. لهذه الاشياء وللعلاقات القائمة بينها ...

وهي على هذا الاساس ـ وفي رأيي ـ لا يمكن الا ان تبدأ من الفرد العربي باعتباره الوحدة التي تمثل ما تحدثنا عنه اولا ، ولانه الخلية التي يعتمد على تفتحها وازدهارها .. تفتح الحياة العربية وازدهارها ..

ونتيجة لذلك نستطيع ان نقرر :

أ ـ ان انقلاب الفرد العربي على نفسه ، هو القدر الذي يحقق الثورة .

ب ـ ان القضية العربية (على اختلاف وجوهها) واحدة لانها قضية امة واحدة من جهة ، ولانها تفاعل مستمر بين الواقع ـ الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ـ والفرد العربي يزيد من تعقد الازمة .

ج ـ ان الانقلاب مرتبط بالحلول الجذرية التي تعالج اسباب الازمة الذاتية والموضوعية .

وهذا يدفعنا الى الاعتقاد الجازم بان الانقلاب لا يمكن ان تحققه الا طليعة منظمة واعية ، وان الوعي والتنظيم والثورية هي عناصر العقيدة ، وان على هذه العقيدة ان تضع تجسيمها العملي ـ اي مبادئها وشعاراتها ـ المعبر عن الصورة الحية بتجربة النضال العربي ، وهذا بمعنى من المعاني هو معنى التحرر ...

فالتحرر اذن وكما نرى عملية انقلابية تبدأ بالفرد ، بانقلابه على نفسه ، وانقلابه على نفسه يعني مواجهته الثورية للواقع اوالمجابهة التي تتحقق كليا وبصراحة فائقة ، وهذه المواجهة التي تعني تجاوز لانسانية هذا الواقع لا يمكن الا ان تعني في الوقت نفسه التصور الكلي والثوري لقضية الشعب ، قضية حريته وحياته .

فالانقلاب هو بمعنى من المعاني العقيدة، والعقيدة هي النظرة الشاملة الواعية لمشكلة الوجود ، والنظرة الشاملة لمشكلة الوجود لا يمكن ان تجرع للشعب على مراحل (1)

1) ـ اسطورة التحرر السياسي :

ومن هنا كانت الدعوة للتحرر السياسي خطيرة ، وجديرة بالبحث والاهتمام ، لا لانها محاولة لتبسيط القضية العربية فحسب ، ولا لانها محاولة هامشية ان كانت تستطيع ان تغير بعض جوانب المجتمع فانها لا تستطيع باية حال من الاحوال ان تغير الاسس التي يسير عليها ، لا لكل

1) يجعل بعض دعاة القومية «المرحلية» منطلقا للثورة ...

ذلك فحسب ، بل لان التحرر السياسي يعني الثورة المعاكسة ، يعني بوضوح التآمر على الثورة ...

« فالتحرر السياسي على الرغم من انه كان نهاية النضال بالنسبة لكثير من الامم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ـ وهذا ما يتخذه الاستاذ بدور دليلا على صحة رأيه (٢) ـ لا يعني الا محاولة عرقلة الثورة العربية والحد من عنفوانها وتمزيق ثوريتها »

« وعندما تجهض الثورة يكون التحرر السياسي »...

وهذا يعني النزول بالمعركة من المستوى الايديولوجي الى مستوى الشعارات المرحلية و.. الاصلاح .

قال ماركس : « ان الثورة السياسية انما هي ثورة المجتمع البرجوازي» (٤٦) (المسألة اليهودية) . وهذه الثورة كما قال ايضا : « تفكك الحياة البرجوازية الى عناصرها دون ان تحدث الثورة في هذه العناصر نفسها وتخضعها للنقد » (٤٩) وهي التي تعني (اكتمال مادية المجتمع البرجوازي باكتمال مثالية الدولة) (٤٨) وبالتالي (تحويل الانسان من جهة الى عضو من اعضاء المجتمع البرجوازي ، الى فرد اناني مستقل ومن جهة اخرى ، الى مواطن ، الى شخص معنوي) (٥٠) خاضع للانطواء على ذاته والعمل لمصلحته .. ولمصلحته فقط .

وهذه الثورة بينما تعمل على وحدة الاطار الخارجي للدولة تعمل في الوقت نفسه على زيادة التجزئة في الداخل لان العلاقة التي تقوم عليها ليست الا التطور الطبيعي لايديولوجية التمزق والضياع، تلك التي تحمي انفصال الانسان عن الانسان واستغلال الانسان للانسان بواسطة القانون(٣)

ومن هنا كان النزول بالمعركة من مستوى العقيدة الى مستوى الشعارات المرحلية ليس مهادنة للايديولوجية القديمة فحسب .. ولا هو محاولة للمحافظة عليها فقط .. انما هو بمثابة تعهدها ورعايتها لتنمو وتشتد وتمتد ..

فالتحرر ـ الشعار الذي وضع مقابل الحرية ـ عدا انه يعني من الناحية الفلسفية ما ذكرنا من السماح لايديولوجية التمزق والضياع بالنمو والامتداد والاشتداد ، يعني ايضا ـ وهذا ما يلمح به انصاره ـ دكتاتورية الفئة او الشخص الذي ترضى عنه الفئة ، الدكتاتورية التي تمهد لقيام المجتمع المنشود ، المجتمع الامثل ؟!..

واي مجتمع امثل ...؟

اي مجتمع امثل ذاك الذي ستبنيه حراب الدكتاتورية ..؟

أرجو الا يستغرب شيء ، فهذه هي نتيجة التكهن الهجين النابع من تخبط بعض المثقفين في دوامة الازمة الذاتية الصاعقة واستعداد بعض البرجوازيين لتحقيق التفتح الملائم لامتداد جذور ايديولوجيتهم ، هذا التخبط الذي يتنافى مع التصور الكلي والثوري لقضية الشعب ،قضية حريته وحياته ..

ولسنا بحاجة للقول ان الدكتاتورية ليست الا الوسيلة التي تفرض بها فئة على فئة ، هذه النازية والفاشية في المانيا وايطاليا واسبانيا ..

وبجانب هذا يجب الا ننسى ان البرجوازية الناشئة في الوطن العربي تواجه الاستعمار وبقايا الاقطاعية من جهة ، والوعي الثوري الاشتراكي من جهة ثانية ، وهي لذلك بحاجة لدكتاتورية تقضي على الوعي الثوري والاستعمار والاقطاعية وهذه بعض وظيفة النازية والفاشية .

---

٢) العروبة والمذاهب المعاصرة ـ الاداب عدد ٦ سنة ١٩٥٧

٣) مبدأ الحرية الفردية القائل بعمل ما لا يضر بالاخرين والذي ينتج عنه كل ما يضر بالاخرين .. والنظام الرأسمالي مثل ذلك.

يفسر ذلك كله تغني هواة شعار التحرر ببسمارك واشتراكيته (٤) واعتبارهم التحرر غير الحرية ، وقولهم ان الحرية تعني الدعوة للانحلال وبالتالي فلا بد من العصا السحرية ، من الدكتاتورية ..

لا يسعنا هنا الا ان نقهقه ، الا ان نضرب الارض بأرجلنا ونصرخ فرحا : لقد عرف بعض الموهوبين طريق الخلاص !.. انها الدكتاتورية ، ولن ابالغ فاقول دكتاتورية المرحلة او الدكتاتورية المبرمجة .. كما يقول علي بدور (الآداب ـ عدد ايلول سنة ١٩٥٧) اي الهروب من المعركة الحقيقية .

انهم يريدون ان نتجاهل عناصر التطور الايجابية، ويدعوننا الى ذلك باسم الشعب والوحدة القومية وسياسة المراحل ، لتتحكم في النهاية فئة من المواطنين في رقاب الاكثرية .. .

ولكننا لا يمكن ان ننسى ان الامتداد الطبيعي للدكتاتورية التي من هذا النوع ليس الاشتراكية وانما هو ذروة الرأسمالية ، لانها دكتاتورية البرجوازيين والمرضى من المثقفين .. التي لا يمكن الا ان تعيد التجزيئية من جديد بشكل احد واكثر تعقيدا (٥)

وهذا هو التآمر على الثورة ..

انه ليس الا وضع حدود تعسفية لثوريتها وتجاهلا للعناصر الخلاقة فيها ، بجعلها لا تتعدى شعارات لا تحمل غير الدعوة للتغيير وحسب ... هذه الدعوة التي هي التعبير العملي عن الامتداد الطبيعي لايديولوجية التمزق والضياع .

فهم يريدون عملا سريعا يحقق الوحدة ، أي نوع من الوحدة ، ويحقق نوعا من الحرية يسمونه التحرر ـ اي اجلاء جيوش الاستعمار واقامة دولة عربية وطنية ـ ويعتبرون هذا مع القضاء على اسرائيل الخطوة التي تحقق الاطار الخارجي للمجتمع العربي .. اي الخلية التي تتوالد فيها البرجوازية ...

ولما كانوا لا يستطيعون بناء هذه القوقعة الا بالاستعانة بالشعب ، فقد حملوا شعاراته مجددا ، بعد ان مزقوها ، فهم اشتراكيون (والنضال السياسي ليس هدفا بحد ذاته الا بمقدار ما يضع الامة العربية في وسط تجربة نضالية تصل من خلالها الى وعي معنى المرحلة الثانية الذي فيه وحده يمكن بناء المضمون الاشتراكي ـ الديموقراطي الاجتماعي (٦) (١٧١) كما ان (الاشتراكية العربية انما تنبع من صميم بديهيات ومستلزمات الوجود القومي العربي وهي نتيجة طبيعية للفهم الواعي الاصيل لمستلزمات هذا الوجود والنظرة الاصيلة المخلصة للحياة القومية والانسانية فهي تمثل موجة متقدمة من وعي الشعب المتزايد لشخصيته القومية ووعيه لاسس وبديهيات وجوده القومي ووحدته القومية) (١٧٥) .

ثم يقول :

« وهنا ايضا نرى المشكلة السياسية تستند الى الفساد الاقتصادي والاجتماعي كما تعمل على تدعيمه » (١٦٤) .

ويقول :

---

٤) من محاضرة للدكتور جورج طعمه اسمها (في المفهوم القومي) القيت في النادي العربي ببيروت .

٥) التجزئة في الوطن العربي ليست اقليمية ـ انما هي ظاهرة تشمل القيم والمثل والاخلاق وتطبع كل مؤسسات هذا الواقع ... الذي ندعو للانقلاب عليه .. وكل انسجته الاجتماعية .

٦) مع القومية العربية ـ اصدار اتحاد بعثات الكويت ـ وتأليف « القوميين العرب » دعاة المرحلية والتحرر السياسي .

« كانت التجزئة تثبت الاستعمار والاستعمار يثبت التجزئة والاثنان يشبنان فساد المجتمع العربي .. (١٠٥)

ولكنهم هم .. الذين يؤمنون بأن (الواقع وحدة حياتية مترابطة)(١٥٨) ويقولون « منذ ان يبتدىء النضال العقائدي السياسي يكون قد ابتدأ النضال الاجتماعي الاقتصادي لانه سيناضل: ضد كل من يقف في سبيل الوحدة والتحرر والثأر وهؤلاء كثيرون ، منهم الاستعمار واليهود ومنهم الفئات النفعية والمصلحية التي تعيش على التجزئة » . (١٦٩)

وهم الذين يعتقدون « ان النضال القومي العربي هو العقيدة القومية العربية في حيز النشاط التطبيقي .. ولا يمكن فصل العقيدة عن النضال لانهذا الفصل سيوصلنا حتما اما الى ازدواجية فيالنضال واما الى نفاق في العقيدة كما لا يمكن فصل العقيدة والنضال عن الاداة النضالية . فالثورة التي تهدف العقيدة الى احداثها في المجتمع لا بد وان تكون ثورة في نفس الفرد العربي اولا واذا لم تتحقق هذه الثورة في نفس الفرد لن تتحقق في وسط المجتمع . وهذه العلاقة الوثيقة بين النضال والعقيدة هي التي ستجعل الاسلوب جزءا من الغاية لا ينفصل عنها فاذا انحرف الاسلوب لا بد وان تنحرف هذه الغاية ..) وهذه العلاقة الوثيقة بين العقيدة والنضال والاداة النضالية هي التي ستجعل العقيدة حياة يومية تتحقق وتتبلور من خلال التجربة العملية اليومية للافراد الى ان تتحقق وتصبح حياة الجماعة (١٥٧)

ان هؤلاء الذين يقولون كل ذلك ، يلخصون فهمهم لهذه التجربة بما يلي ـ « ولكن الاستعمار من جهة واسرائيل من جهة ثانية والفئات الحاكمة من جهة ثالثة سيقاومون هذا الاتجاه مقاومة عنيفة حادة ، ولذلك لا بد من التخلص منهم قبل الاتجاه نحو اي نضال اقتصادي او اجتماعي ، أي لا بد من التخلص من المشكلة السياسية لنتجه نحو المشكلةالاقتصادية (١٦٥) .

وهنا يعود هؤلاء الى حلقتهم المفرغة ، ويحملون مطرقتهم الكبيرة ليضربوا في الهواء ، لا في الصخرة .

انهم سيرفعون المطرقة في وجه شبح يسمونه الاستعمار تاركين على الارض الاستعمار بكل وحشيته وحرابه وقواعده ونواطيره ..

وما ذلك الا لانهم لا يعرفون كيف يواجهون قضية الشعب ، قضية حريته وحياته. فالسياسة التي يريدونمنها ان تحركالجماهيروكلماتالنضال والعقيدة والتحرر والثأر والمجتمع العربي الامثل .. اذا استطاعت انتجمع عددا من المثقفين والطيبين والموتورين .. لان فيها ما يرضي النفس السليمة الخاملة والنفس المريضة الناقمة من دعوة التخلص من غبار العبودية ونداء للانتقام للكبرياء الطعين .. انها اذا استطاعت أن تفعل كل ذلك فانها لا تستطيع بأية حال من الاحوال ان تحرك الجماهير... وان تضع الامة أمام الرجعية والاستعمار ..

ولقد أثبت التاريخ ذلك ..

وهي ايضا ـ كما يقول صدقي اسماعيل (لو استطاعت ان تثير الطبقة الواعية في البلاد وتبعث في نفوسها حب النضال وتحسن تنظيمها واعدادها والاستفادة من قلقها على مصير امتها وثقافة شعبها وتاريخها باعتبارها طليعة نيرة فان ميادين الكفاح السياسي عاجزة كل العجز عن أن تنظم الشعب نفسه تنظيما سياسيا من هذا النوع) .

أقول عاجزة كل العجز عن أن تكون انقلابا جذريا شاملا وأن تكون ثورة لانها تتجاهل الرابطة الثورية بين العقيدة والشعب ، وبين العقيدة والنضال والاداة ، وتحاول ان تجعل الشعارات المرحلية منطلقا واساسا بدل ان تكون الشعارات المرحلية تعبيرا عن موقف تواجهه الثورة وهكذا تصبح الوسيلة غير الغاية بل ومناقضة لها (٧) .

وهكذا تكون العقائدية الخيط السحري الذي يجمع ما لا يمكن أن يجمع .. والاطار الواهي الذي يريدون منه كل شيء وهم لم يضعوا فيه شيئا .. فهم اشتراكيون ولكنهم لا يدعون للاشتراكية لا لشيء الا لان هنالك فئات وقوى تعارض هذا الاتجاه وترفضه ، هذه الفئات والقوى التي ترفض التحرر ..

ولكن لماذا لا يتنازلون عن الدعوة للتحرر ؟

انه لسؤال سخيف .. وسخيف جدا ولكنه ضروري .

فما معنى العقائدية العلمية الشعبية والايجابية ..؟ وما معنى ان نقول (لا يمكن ان نحقق هذا الهدف (اي الانقلاب الثوري) الا بالنضال الثوري والروحية الثورية والمفاهيم الثورية . النضال الثوري العقائدي العلمي الايجابي الاصيل الذي يدفع الفرد العربي لان يقف من مشاكل وجوده القائمة موقفا مشبعا بالحركة والشعور بالمسؤولية والروحية الايجابية العلمية الهادفة (٨). ما معنى ان نقول هذا اذن اذا دعونا للتنازل عن الدعوة الاشتراكية ..؟ وما معنى هذا اذا جعلنا همنا الوحيد ..اقناع الجماهير بعدم جدوى الدعوة للاشتراكية في هذه المرحلة ؟

أليس هذا تجاهلا لمعنى الثورة ..؟ أليس تجاهلا للتصور الكلي والثوري لقضية الشعب ، قضية حريته وحياته ؟

٧) محمد علي القابسي ـ صفحة من نضال العرب الحديث صفحة(٢٧)

٨) مع القومية العربية صفحة (١٥٦)

اننا عندما لا نعطي النضال هذه الصفة نكون قد ابتعدنا بـه عـن العقـائديـة .

ب) الثورة .. والمراحـل

فالثورة شيء واحد ، عمل متكامل متفاعل ويجب ان تحمل كل خطـوة منها ملامح الخطوة التالية وتفصح كل كلمة من كلماتها وكل شـعار مـن شعاراتها عن اعمق ما فيها .

قال ميشيل عفـلق :

« ولعل اهم فائدة للنظرة الشاملة انها تعي مراحل النضال فتكـون هكذا قيمة كل مرحلة غير قائمة بذاتها بل بنسبة موضعها من طريـق النضال الكاملة وبالنسبة للمراحل التي تليها وتعطيها معناها الحقيقي (٩).

هذا على الرغم من البعد الزماني والمكاني الذي قد يفصل كل خطـوة عـن الاخرى .

واذا جاز لنا من قبيل التحليل ان نقول : الثورة القومية ، والثـورة الديموقراطية كما فعل ماو تسي تونج في كتابه « الثورة الصينية » ، فلا يجوز لنا ان نفهم من ذلك ان كلا منهما ثورة قائمة بذاتها ، وان العمـل للاولى يعني بالضرورة اهمالنا للثانية وتجاهلها .

ان الثورة لا يمكن ان تخضع لمثل هذا التقسيم من الناحية العقائدية فاذا خضعت كان الزيف وانهار البنيان العقائدي .

قال ماو تسي تونج : « لما كانت المهمـة الحاضرة للثورة الوطنيـة (القومية) في الصين بصورة رئيسية النضال ضد اجتياح الاستعمـار الياباني وكان من الواجب ان نسير بالثورة الديموقراطية سيرا ناجحا في سبيل كسب الحرب من جهة اخرى فان هاتين المهمتين مترابطتان .. ان التصور الذي تكون بحسبه الثورة الوطنية الديموقراطية مرحلتـين متميزتين هو تصور خاطىء » (٣٣) (١٠)

وقال جمال عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة : « ويوم سرنا في طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروق عن عرشه سرنا خطوة مماثلة في طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية » .

ثم قال : « وما زلت اعتقد أنه ينبغي أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة لكي تستطيع ان تحقق معجزة السير في ثورتين في وقت واحد معا .. مهما بدا في بعض الاحيان من التناقض في تصرفاتنـا » . (٢٨)

٩) افتتاحية جريدة البعث (نحو وعي عربي انقلابي)

١٠) الثورة الصينية

وقال نهرو : « وقد ادى نمو الحركة الوطنية بزعامة المؤتمر الى انضمام جماهير الفلاحين ونظرهم اليه كمنقذ لهم من اعبائهم الثقيلة وقد قـوى ذلك المؤتمر وأضيفت اليه الصبغة الشعبية ، ومع ان زعامة المؤتمر ظلت في يد الطبقة الوسطى الا أن الضغط من الاسفل اشتد حتى أصبحت المشاكل الزراعية والاجتماعية تستأثر بقسم كبير من نشاط المؤتمر . وظهر ميل نحو الاشتراكية عندما اصدر المؤتمر المعقود في كراتشي عام ١٩٣١ قرارا هاما حول الحقوق الاساسية والبرامج الاقتصادية . وقد نادى هذا القرار بأن ينص الدستور على ضمانات الحقوق الديموقراطية الاساسية والحريات وحقوق الاقليات ودعا الى اعطاء الدولة حق السيطرة علـى الصناعات الاساسية وهكذا أصبح الكفاح من اجل الاستقلال يتعدى مجرد نيل الحرية السياسية الى نيل نظام اجتماعي اشتراكي وصار الموضـوع الاساسي القضاء على الظلم واستغلال الجماهير . اما الاستقلال فهـو وسيلة لذلـك » . (١١)

فما من مبرر اذن للتنازل عن الدعوة للاشتراكية ، وما من معنى للتنازل عن الدعوة للحرية ، كما انه ما من معنى لاعطاء الوحدة هذا الطابـع الضيق الخانـق ..

ج) التنازل عن الدعوة للاشتراكية :

فالتنازل عن الاشتراكية لان الفئات الرجعية والنفعية تقاومنا ، سطحية تبرر نفسها بالفكر وهذا مناف لعقائدية النضـال .

والتنازل عن الدعوة للاشتراكية خوفا من الصراع داخل جدران المجتمع وزواياه ، لا يعني الا اننا لا نريد ان نطور المجتمع من جهة واننا اعجز من ان نواجه الرجعية بما هو معنى عقيدتنا وكفاحنا والمظهر العملي لهما ، واننا لسنا من مستوى الثورة لاننا لا نفهم عناصرها.

كما ان التنازل عن الدعوة للاشتراكية ارضاء للاقطاعية والرأسمالية حتى ترفع علم الثورة ليس الا محاولة فاشلة لجمع الماء في الغربال .. وقد قال نهرو في حديثه عن انشقاق الكومنتانج « انه لمن الصعب جدا ان يجتمع فريقان لهما مصالح متعارضة في منظمة واحدة » (٣٥٨). أقول حتى ولو كان هنالك خطر مشترك .

والذين يدعون للتنازل عن الدعوة للاشتراكية لانها نظام اقتصادي بحت ما زال بعيد التحقيق وما زال الجو العربي غير مهيأ له .

والذين يدعون لذلك لاننا نخوض معركة اخرى هي معركـة الوحدة او التحرر ـ هؤلاء .. وهؤلاء يحتاجون الى انعام النظر في المعركة،معركتنا وبعناصرها وفي الاسس التي وضعوهـا لمواجهة المشكلة لانها ليسـت مـن مستـواها ..

« فصياغة الاهداف الثورية والتي تشكل عنصرا اساسيا في عمليـة النهضة اذ بها يتحدد بالضبط التغيير الذي يتطلبه الانتقال من الوضـع المتاخر الى الوضـع السليم » (١٢) يتطلب الوعي الذي من مستوى المعركة والمعرفة التي تجعل الثورة ليس مجرد نية طيبة لفرض بعض الشعارات . وانما عملية انسانية تحقق بواسطتها الجماهير المعجزات .

ولذلك كان لا بد من العلمية والعملية والوضوح (فالجماهير التي لا تجد غير الثورة طريقا للتعبير عن انسانيتها .. لا تقبل الغموض ولا ترضـى باسلوب الافلاطونيين الذين لا يعرفون غير كلمات الوحدة والكرامـة والتحرر والعروبـة والنضـال »

١١) لمحات من تاريخ العالم (٢٨٣)

١٢) الواقعية والفكر العربي المعاصر ـ الاداب عدد ٣ سنة ١٩٥٧ بقلم سعدون حمادي

ولا بد من الاشتراكية لاعطاء الثورة الصفة العقائدية والعلمية .

والاشتراكية هنا كما يقول ميشيل عفلق هي دين الحياة .. وظفر الحياة على الموت .. وكما يقول منيف الرزاز « هي مذهب للحياة ومذهب للفهم . فان تكون اشتراكيا لا يعني بالضرورة ان تعيش في ظل نظام اشتراكي وانما ان تكون اشتراكيا يعني بالضرورة ان تفهم الحياة وان تعمل في الحياة وان تكافح في الحياة فهما وعملا وكفاحا واشتراكيا ».

بهذا المعنى تصبح الاشتراكية اذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حال اقتصادية معينة فحسب بل هي تعبير عن نوع من الحياة باكمله بجميع وجوهه .. والاشتراكية بهذا المعنى ليست وضعا اقتصاديا معينا وليست سعيا في سبيل وضع اقتصادي معين فحسب بل هي فهم اشتراكي لكل نواحي الحياة . وحين أقول انني اشتراكي فقد عينت موقفي لا من العلائق الاقتصادية التي اعيش خلالها فحسب ، بل لقد عينت موقفي من جميع نواحي الحياة التي تلامسني والامسها » .

« وسبب هذا ان الحياة نفسها شيء واحد » .

ثم يقول الرزاز : « واذا آمنا بالانسان ايمانا عميقا فلا بد ان نمنحه ما يستحق بالاشتراكية وان ناخذ منه ما يتمكن ان يمنح بالحرية ... كل هذا في حدود تجربته التاريخية والقومية .

وعلى هذا «فالاشتراكية والوحدة والحرية ليست اسماء مختلفة لاشياء مختلفة ثم جمعها صدفة وبمجرد لمحة عابرة وانما هي أوجه مختلفة لشيء واحد اساسي تنبع منه جميعا وتنبثق انبثاقا .. واذا كانت الاشتراكية تمثل ناحيته الاقتصادية في الاساس والحرية تمثل ناحيته السياسية في الاساس والوحدة تمثل ناحيته القومية في الاساس فهذه جميعا ليست الا نواحي مختلفة لشيء واحد وهذا الشيء الواحد الذي تنبع منه جميعا هو احترام قيمة الانسان » . (١٣)

وهكذا تعطي للمعركة مميزات وسمات المنطلق ..

وهكذا يكون المنطلق مجالا ثوريا وأساسا فكريا من مستوى المعركة ، ومن مستوى الرسالة .

وهكذا ايضا تتحدد علاقة الانسان بالمعركة .

وعلى هذا الاساس يكون الالتقاء القومي بمثابة اعطاء الثورة مجالا أوسع تتحقق من خلاله ، دون التنازل عن عقائديتها وثوريتها .. (ودراسة تطور ثورتي الصين والهند كفيل باثبات ذلك) .

وعلى هذا الاساس وعليه وحده تكون سياسة المراحل عملا ثوريا عقائديا.

وبدون ذلك ، أي بدون الاحساس الخلاق والتفاعل الاصيل بين الثورة والعقيدة والشعارات ، لن تكون ثورة ، ولن تكون عقيدة .

وبدون انبثاق الشعارات المرحلية انبثاقا اصيلا من الاستراتيجية لن يكون هنالك نضال .

فالعقيدة التي تعني التصور الكلي والثوري لقضية الشعب ، قضية حريته وحياته ..

والشعارات التي تعني التطور العملي للثورة ، باجتياز مواقف نضالية ومواجهة قضايا ثورية من خلال هذا التصور .

هذه كلها تعني الثورة ، الثورة الخلاقة المنتجة .

ناجي علوش — الكويت

---

١٣) من محاضرة مطبوعة للدكتور الرزاز بعنوان (لماذا الاشتراكية الآن).

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

★

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

تدفع قيمة الاشتراك مقدما حوالة مصرفية أو بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

على هامش العروبة والمذاهب المعاصرة

مرض القيادة

بقلم علي بدور

لا شك في ان من مستلزمات القيادة الناجحة ، وعيها التام لمشاكل الوطن الذي تقوده في الطريق السوي . ومشاكل الاوطان تختلف من بيئة الى بيئة ومن عصر الى عصر . فروح التحرر القومي التي تهب اليوم على الشرق العربي ، تفرض عليه السعي الملح لاظهار وحدته القومية ووحدته السياسية الى حيّز الوجود ، بلا كلل او فتور ، في حين انهم اليوم في اوروبا ،وطن القوميات في القرن التاسع عشر ، يسعون للانضمام في دولة اوروبية اتحادية ، متناسين حركة البعث القومي ، كالحركة الالمانية والحركة الايطالية . انهم اليوم يريدون بالاتفاق مع امريكا ، وبتوجيه منها تقوية جبهتهم الداخلية باتحاد سياسي يوقف تقدم الشيوعية كمبدأ ، وتقدم روسيا كدولة ، في أية حرب مقبلة ، وليس اخطر من تطلع القيادة الى مشاكل بعيدة ، ليست من مشاكل الوطن على كل حال . فنحن هنا في الشرق العربي ليس لنا من مشكلة سوى تحرير هذه الاقطار الرازحة تحت النير الاستعماري ، من مراكش حتى العراق ، ومن جنوبي الجزيرة حتى سورية . فاذا بدأت هذه الاقطار في التحرر ، بدأت توا الدعوة للوحدة ، بين الاقطار المتحررة اولا باول ، لتأليف دولة عربية واحدة ، ما دام الشعب العربي من المحيط الى الخليج يؤلف وحدة تاريخية وفكرية وعاطفية واقتصادية، وترتبط هذه المزايا كلها برباط من مصلحة الشعب العربي في العصر الحاضر ، ليكون قوة ثالثة لها اهميتها على مسرح السياسة الدولية.

ولكن هذه الاماني الواضحة البسيطة ، في تحرير العرب من الاستعمار واتحادهم في دولة واحدة استجابة منهم لداعي التطور والرقي ، وبدافع من وحدة لغتهم وامانيهم وتاريخهم ، هذه الاماني البسيطة لم يستطيعوا ان يتفقوا عليها ، ويخلصوا الاخلاص كله في السعي من اجلها . ولا يخفي ان دور القيادة ، ساعد على تثبيت عناصر الفشل على الرقعة العربية ، واضحت الطريق نحو الوحدة بعيدة .. جد بعيدة ،ما دامت بعض الدول العربية تؤمن ان خطر الشيوعية الدولية على الشرق الاوسط بات مداهما اكثر من خطر الصهيونية العالمية التي توطنت فلسطين وشردت مليون لاجيء ، يعاونها في كل يوم الاستعمار ويثبت اقدامها على ارضنا الغالية . ويخطوني في هذا المجال ما قاله المرشال هندنبرغ رئيس اركان حرب الجيش الالماني في الحرب الاولى ، ابان شرحه لاسباب دخول المانيا الحرب العالمية الاولى في الميزان المائل عندها ، وهو ان المانيا قبيل الحرب لعبت دورا في السياسة الدولية اوسع من رقعتها على الخريطة ، فلما دخلت الحرب حصدت جزاء قيامها بدور اوسع من مسرحها الاوروبي . ونحن اليوم كعرب ندخل مسرحا اوسع من رقعة ارضنا ، ومن مشاكل وطننا ، اذ نرتبط ارتباطات سياسية مع دول كبيرة لها مشاكلها العديدة وارتباطاتها المعقودة في القارات الخمس ، والكتلتان المتصارعتان لهما في كل قارة مجال للاحتكاك .. فما أهون الحرب ... وما اسرع الدمار ، اذا كنا نضع انفسنا في خدمة دولة كبيرة ، همها البحث عن المتاعب وتحدي ارادة الشعوب الراغبة في الانعتاق من اسار الذل والعبودية الى الابد ، حتى اذا رفعت الستارة عن المسرح وجدنا قضيتنا كعرب في مهب الريح ، والذنب من قبل ومن بعد ، ذنب القيادة التي ربطت بقاءها ببقاء النفوذ الاستعماري اشنع بقاء واخطره على كياننا القومي ومستقبلنا كشعب وكقضية تخص هذا الشعب وحده .

ولم تمش القيادة السياسية في هذه الطريق المحفوفة بالمخاطر الا لانها منفصلة عن القيادة الفكرية ، تلك التي توجه وتضبط خطوات القيادة السياسية فلا تضطرب او تنحرف . فالقيادة الفكرية قد تكون بعيدة عن مسرح الحوادث ، ولكنها ترسم الطريق وتخطط اتجاهات السير ، وتضع الحلول الجذرية لكبريات المشاكل التي تعترض حياة الامة والوطن . وهذا لا يأتي الا من رأي شبه موحد ، وذلك باتباع اسلوب تعليمي متقارب العناصر واضح المرامي ، بحيث تترى الاجيال على نمط متقارب في التفكير، يعرض للامور الاساسية المتفق عليها من قبل القادة المفكرين ، حتى اذا تعرضت هذه الامور الاساسية للخطر ، هب الجميع للدفاع عنها ، فكرا يفكر ، وسلاحا بسلاح ، ويبقى دور القيادة السياسية، دور الساعة القائمة دوما ، مستلهمة من القيادة الفكرية برنامج العمل، مستعينة باسباب الانسجام بين الرأي العام اليقظ وبين ضروريات المصلحة العامة التي يستطيع الرجل السياسي القائد ولو بعينه المغمضة ان يرآها . ولكننا ـ ولكن القيادة العربية في جملتها ، محرومة من اكثر ميزات القيادة الناجحة للاسباب التالية :

١ ـ هناك انفصال تام بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية ، واسباب هذا الانفصال عديدة ، منها ، ان القيادة في الشرق العربي لم تأت بدافع الكفاءة الشخصية ، بل جاءت نتيجة لمكتسبات اجتماعية كالثروة والسلطة الروحية ، والعصبية والقلبية ، حتى افساد اربعة قرون من الحكم التركي، كونت مفاهيم قيادية خاطئة ، هي كلها ، لا تزال حتى اليوم ، تفرض نفسها في اختيار القادة .. حتى ان ترشيح النواب لمجالس البرلمانات في الشرق العربي ، يكاد يكون صورة صادقة لهذه المعطيات الخاطئة للقيادة السياسية العربية . هذا الانفصال بين القيادتين كان له اكثر من مظهر ، اذ ان صعود زعيم ما بوحي من عصبية او ثروة او مركز روحي ، جعل هذا الزعيم شديد الارتباط بالوضع الذي جعل منه زعيما ، وهذا الوضع بالذات من اسباب تأخر وطنه ، حتى ان العشائر ـ على سبيل المثال ـ التي تنتخب عنها نوابا في اكثر من قطر عربي ، لم تستطع اية دولة البدء في عملية تحضير واسعة لها،أسوة بباقي المواطنين، لان مجرد تحضير هؤلاء،سوف ينهي وجود اي ممثل لهم في البرلمان . ولنتصور حال النائب الذي يحمي وجود فكرة رجعية لا يمكن للوطن في ظلها ان يغدو موحد الاتجاه ذا رأي عام موحد ، او شبه موحد ، حظى اكثر مواطنيه بحظهم من العلم والثقافة والرعاية الاجتماعية المناسبة ، ولعل وجود اكثر الحكومات القائمة في العالم

العربي ، والتي هي ، اجتماعيا من نفس النوع ، تساير اوضاع مثل هذه الفئات المتطرفة في رجعيتها وجمودها ، لان لهؤلاء مقدرة صوتية ان صح التعبير ، في انجاح الحكومات ابان طرح الثقة ، وكذلك في اسقاطها .

ومن نتائج الانفصال بين القيادتين ، فقدان التفاهم فيما بينهما . والوضع يقضي اما بالعزلة التامة او التبعية التامة ، ولا مجال لانصاف الحلول . والقيادة الفكرية وهي على هذا الحال ، لم تخطط شيئا ، سوى احلام يقظة تفقد صلتها بمجرد ان تغفو على الورق . والعلة في ذلك ، ان القيادة الفكرية آمنت بعدة مبادىء قائمة ثم حاولت ان تنسج حولها خيوطها ، ولكن هذه المبادىء القائمة هي نفسها موضع شك وحذر وريبة ، هي بذاتها غير متفقة واماني العرب في التحرر من الاستعمار ، وفي الوحدة المنشودة ، وفي رفع سوية الشعب ، والمحافظة على الفكر العربي من اوشاب الثقافات الاجنبية ، وكذلك المبادىء المستوردة. بالاضافة الى ان القيادة الفكرية لم تلق تشجيعا ، بل على العكس لا تزال تحارب وتحتقر ، ولنا في وضع اكثر الكتاب والمفكرين والادباء في الشرق العربي ، خير مثال ، ما دام هؤلاء حتى الان لا يكادون يحصلون على لقمة العيش الا بشق الانفس ، الا اذا باعوا انفسهم للقيادة السياسية ، وهي ما دامت قد اغمضت احدى عينيها عن جشع المستعمرين ، فعندها يستطيع الادباء والمفكرون والكتاب ، ان يشبعوا .. وان يعيشوا مرفهين .. ولكن على حساب من ؟ والقيادة السياسية لا تفعل اكثر من ذلك : في البداية تساهم في عملية الاهمال ، ثم تبدأ بالمساومة فاذا نجحت فبها ونعم ، وان فشلت، فان ابواب السجون اوسع من سنان القلم !! والقيادة السياسية ايضا وايضا ، بحكم بعدها عن روافد الثقافة الحقة ، لا تستطيع ان تقدر اهمية الثقافة والفكر في بناء الاوطان ، وبحكم ملاحظتها ان القيادة الفكرية المخلصة ، عدوة لبقائها وبقاء هذه الطبقة من السياسيين المحترفين ، ولذلك فهي من اجل هذا العداء ، تحاول قدرما تستطيع ان تخرس تلك الاصوات بما تملأ به فمها من مال .. او ما تحيط به رقابها ، من حبال !!

كذلك ، هناك انفصال تام بين القيادة الفكرية وبين الشعب . واقصد بالشعب المدلول اللفظي لكلمة شعب ، والمدلول الفكري ، اي قضايا الشعب الاساسية ، تلك التي تنبع من وجدانه وتصب في وجدانه . وقضايا الشعب العربي ، لا يمكن ان توضح بدون ضبط الروافد الثقافية الاجنبية التي نتلقاها ، اما هنا في الوطن العربي ، او هناك في اوطانها ، وضبط هذه الروافد ، معناه ، الموازنة فيما يلزمنا ، وما لا يلزمنا ، للمحافظة على اصالة الشخصية العربية وسط هذا الزحام الفكري والمذهبي ، الذي نسمع اليوم ضجيجه من اربعة اطراف المعمور ، ولا يخفى ان الانفعال الفكري تجاه موقف ما ، مرتبط اشد الارتباط بموازين الثقافة التي يتلقاها هذا المواطن او ذاك ، عندما ينفعل فكريا تجاه اي حدث خارجي ، يؤثر كل التأثير ، على الحالة النهائية التي يعطي فيها هذا المواطن وذاك ، رأيه الشخصي في هذا الحدث الخارجي الذي تأثر به بصورة مباشرة . والعالم العربي اليوم يحصد نتائج هذا الاضطراب في الاستقاء من مصادر الثقافة العالمية ، ذلك ان في العالم العربي اليوم عدة مدارس ، وعدة احزاب عقائدية ، وهي كلها ـ لو تعمقنا في جذور دعوتها ومبادئها ـ صورة صادقة عن المعين الثقافي الذي تشربه افراد هذه المدرسة او اعضاء هذا الحزب ، في المجالات الثقافية التي تعلموا فيها ، او احتكوا بها ، حتى بات الوضع مجرد نقل من الغرب والشرق ، ومجرد ترجمة للنصوص ، واصدارها في طبعة عربية الثوب ، اجنبية المحتوى . ولا نكران في ان ذلك كله يؤخر نهضتنا ويؤخر حركة تطورنا نفسها ، ما دام هناك قواعد ثابتة تدل على ان كل شعب ، له ظروفه الخاصة به ، واحواله الاجتماعية التي لا تشبه احوال الشعوب الاخرى . فان هذا الشعب بالذات لا يمكن ان تصلحه سوى فكرة واحدة ليست من هنا او هناك ، بل هي من حجم المشكلة ، وخير ما يمكن ان يستعمل من اسباب الصحة ، الصورة المعكوسة التي يعطيها المرض عن اسم الدواء الذي يبيده . وهذا وحده ، يفسر نقص الانفعال الذي تبديه الفئات المثقفة تجاه قضايا الوطن العربي الكبير وتجاه المفاهيم العامة عن التحرر ، والوحدة ، واسلوب التطور من حال جامدة الى حال اخرى اكثر حركة وافضل مرونة ، حتى اننا نسجل بمزيد من الاسى ، ان اكثرية الفئات المثقفة ، تكاد لا تهتم بما يجري خارج حدود وطنها الصغير ، وهذا وحده سر التأخر ، وسر الجمود ، فلو كانت الثقافة العربية في هذه الاقطار على اختلافها ، شبه موحدة ، لما كنا اليوم نلمس تأخر القيادة الفكرية عن اداء واجبها على الصعيد العربي العام ، وبقاء القيادة السياسية دون توجيه ودون مراقبة ، لتساوم على القضايا العربية مساومة البائع والشاري ، في حين ان الواجب يقضي باعتبار قضايانا العامة جزءا من وجودنا .

ولعل للانفصال بين الشعب وبين القيادة الفكرية اكثر من مظهر التشتيت وعدم التركيز . بل هناك انفصال تام بين المثقفين وبين اكثرية الشعب غير المتعلمة ، واذا اردنا الدقة في التعبير قلنا ، غير المثقفة . حتى ان بعض المثقفين ، يشعرون بشيء من التقزز ، حين يرون مواطنا اصيلا ، حرمته الظروف من نعمة التزود بالثقافة ، وباتت السترة تجعل من لابسها سيدا، والزي الشعبي يجعل من لابسه انسانا من طبقة دون طبقة السادة. وهذا الانفصال بين الفئة المتعلمة والفئة غير المتعلمة، يحظى بالتأييد من قبل القيادة السياسية، لانها بداهة تشعر ان القيادة الفكرية اذا ارادت ان تؤدي واجبها، كان عليها اشهار السنان ان صح التعبير في وجهها الا بالحرب المباشر بل بالحرب غير المباشرة ، وذلك بان تفتح اعين الشعب على حقيقة الوضع وترسم له الطريق ، والا لما كان فولتير ممن يحملون البنادق عندما اضطرمت نار الثورة الفرنسية ، وغيره من المفكرين الاحرار الذين آمنوا بوطنهم ، فوجهوا جماهير شعبهم في الطريق الصحيح . والشعب بما يملكه من سليقة اصيلة ، وبما يميز به الصالح من الطالح ، قادر على تحطيم اكبر رأس من رؤوس العتاة ، ولا نكران في ان بعض الاقطار العربية قد لمست هذا النجح ، نتيجة لاداء القيادة الفكرية واجبها في توجيه القيادة السياسية من جهة وتوضيح المشاكل الاساسية للوطن العربي ، لجماهير الشعب . ولقد ادى في النهاية هذا الانعزال بين القيادة الفكرية وبين الشعب ، الى احتضان القيادة السياسية ، اكثرية الشعب ، واخضاعه لاساليبها الشيطانية ، واقامة الميزان الذي لا يختل ، من توازن المصلحة الشخصية لاي مواطن من الشعب ، والمحافظة على هذه المصلحة الشخصية ورعايتها ، من قبل اي قائد سياسي ، مقابل خضوع الاول للثاني في اية مهمة يكلفه بها اذا اراد لمصلحته الشخصية الدوام والاستقرار . وبات وضع المفهوم السامي المقدس للوطن ، لدى اكثرية الشعب هو النافذة التي يطل بها افراده على الحياة الاجتماعية ، فالمواطن فكرة ضيقة ، لا تتعدى حدود ما يملك من عقار أو مال ، او ما يؤديه من عمل يدر رزقا يؤمن دوام الحياة ، والوطن لدى السياسي ، هؤلاء الذين يرفعونه نائبا ، او ينتقونه وزيرا ، والسعي الملح للمحافظة على هذا الوضع الذي يبقيه نائبا او وزيرا او مسؤولا ، في دولة تكاد تشبه في مفاهيمها العامة تلك الشركات المغفلة المنتشرة في اكثر بقاع العالم !!

٢ ـ ولم تقتصر القيادة السياسية على دورها البسيط في محاربة القيادة الفكرية بعزلها عن الشعب واحتضان الشعب ، وتحذيره الدائم ، بدافع من حرصه على مصالحه الخاصة ورعايتها بكل الاساليب ، بل عمدت مؤخرا ، الى ارتباطات كبيرة في اهميتها ، تتعدى حدود الوطن ، واستعانت بنفوذ الدول الكبرى واساليبها ،لمحاربة القيادة الفكرية وابادتها. فكم من مثقف قضى ، لانه اتهم بالشيوعية وهو منها براء ، وكم مثقف حر ابي ، لا يزال نزيل السجون لانه استيقظ على الواقع وصارح الشعب باتجاهات القيادة السياسية الخاطئة ؟ ولا نكران في ان مسؤولية ابادة الفئة المثقفة من بين جماهير الشعب ، تقع على عاتق القيادة السياسية ، في تلك الاقطار العربية المتعددة . ونحن لا نريد ان نطلب الرحمة والعدل ، والمساواة من الاستعمار ، بل نريد من القيادة السياسية مهما تردت في مهاوي الضعة والعجز والاستسلام لرغبات المستعمرين ان تحافظ ولو في اضيق الحدود ، على ثروات الوطن ، على مختلف انواعها ، والا فان يوم الحساب هو الحد الفصل ، بين العقاب الصارم ، والعقاب المقترن بما جنت الايدي الظالمة فحسب .

يكاد يظهر سر هذا التخبط العام الذي تغرق فيه القيادة الفكرية نفسها ، اما في حربها الصريحة ضد القيادة السياسية او في مهادنتها . والقيادة الفكرية بانعزالها عن الشعب ولكونها متنافرة المشارب والاتجاهات ،متعددة الميول والنزعات، اقليمية المنشأ والتوطن، دون سعي منها نحو تركيز قضايا الوطن العربي ، وبعث اسباب الحياة في هذه القضايا ، كما تنمو في ضمير الشعب ، وهي لكونها منعزلة في كل قطر ـ كانعزال القيادة السياسية ـ منكمشة على نفسها ، تبقى آمالا واحلاما صعبة التحقيق ، تخدم من حيث لا تدري القيادة السياسية ـ تلك القيادة الرجعية ذات العصبية العائلية والقبلية ، والاقطاعية والزراعية ، والصناعية ، والتجارية ـ ما دامت تعتقد ان اصلاح العرب وبعثهم وتوحيدهم انما يمكن أن يتم عن طريق انظمة من الحكم ، هي في ذاتها وقاية لهذه القيادة السياسية فلا تزول ، وهذه القيادة السياسية تعتقد ان النيابة مثلا ، باب للرزق تدر على محترفيها الارباح المشروعة وغير المشروعة ، وتوطد اسباب بقائهم الى الابد ، وتفتح امامهم طريق الزعامة والشهرة ، وتتيح للكثيرين أن يبيعوا أنفسهم للشركات الاقتصادية والسياسية في وطنهم وخارج وطنهم ، بغية خدمة مصالح شيطانية ، كلها من اولها الى آخرها ، تطعن في الصميم كل بارقة خير من اجل الوحدة الشاملة ، والامة الموحدة ، والمجتمع المتطور ابدا نحو الحياة الافضل .

لكي تقف القيادة السياسية على قدميها ينبغي ان يكون هناك تعاون وثيق فيما بينها وبين القيادة الفكرية ، حتى انه يصعب علينا في بعض الاحيان فصل القيادتين . ولكي تقف القيادة الفكرية على قدميها ينبغي لها ان تكون مؤمنة ايمانا كاملا بقضايا الوطن الاساسية ، مستجمعة خلاصة الثقافات العالمية، ملمة بتطورات الامم الحديثة، جاعلة نصب عينيها بادىء ذي بدء ، أهم ما يجب عليها ان تبسطه للجيل الصاعد ، محددة في غير لبس او ابهام الخطوط العريضة لرسالتنا الفكرية ودعوتنا الثقافية في وطننا الصغير ، وفي العالم اجمع .

ولكن الواقع يدل دلالة صارخة على ان القيادة السياسية قد أفلست تماما ، وكذلك القيادة الفكرية ، وبات الوضع لا يحتمل مجرد نقاش حول تعديل وجهة نظر ، أو تغيير اتجاه ، لنتلافى ثمة اخطاء ، او نحول دون وقوع الكارثة الشاملة . ان الوضع اليوم في العالم العربي ، من المحيط الى الخليج اضحى بحاجة الى عملية انقاذ . والوطن العربي لا يستطيع ان ينهض نهضته الكبرى ليستأنف مسيره الحاسم بدون عاملين هامين ، قد وجدا اليوم في ارض الكنانة . اما العامل الاول فهو الوجه الفكري الصافي للثورة العربية الذي اخذ بالنمو في رحاب وادي النيل ، وان المثال القيادي ـ وهذا العامل الثاني ـ متناغم منسجم مع المثال الفكري ، حتى ليصعب علينا في بعض الاحيان فصلهما دون ان نؤثر في نشاط احدهما ، حتى ولو كان الفصل لمجرد الدراسة الموضوعية .

واذا كان في العالم العربي اليوم مدرستان : مدرسة حديثة ، ومدرسة قديمة ، فان المدرسة الحديثة توشك ان تحظى بتأييد الشعب العربي في مختلف اقطاره ، ان لم نقل انها حظيت به فعلا . والا فكيف نفسر ذلك التأييد الذي تمحضه ملايين العرب لنظام الثورة في مصر ؟ اننا لا نعدو الحقيقة بقولنا ان الشعب العربي بعامة ، وجماهيره بخاصة بدأت تدرك ان الانظمة السائدة في بلادها ، على الرغم من بوارق الرجاء التي تومض في بعض الاحيان ، نظرا لقيام بعض المخلصين عليها ، فانها لا تستطيع ان تلحق الشعب بالركب الثائر ، عدا عن كونها ملاذا لاعداء الشعب ، واعداء قضاياه ، الاساسية ، باعتباره جزءا من مجموعة الشعب العربي ، واعتبار موطنه جزءا من الوطن الشامل الكبير . والاقطار العربية هذه في ظل التأخر والرجعية وتراكم عوامل الفساد، لا يعقل ان تنشد الاصلاح الجذري عن طريق اولئك المتربعين على عرش الفساد كي يمثلوا الشعب في مجالس نيابية ، تنبثق عنها وزارات كل ما فيها أوزار .. ويا لها من اوزار ثقيلة ، تغذي عملية التجهيل الكبرى المعزوة لعدم ادراك هذه الجماهير لمقاييسها

التقليدية ، التمييز بين القادرين المخلصين ، والفاشلين المخربين . هذه الجماهير بالذات لا تزال مخدوعة بدور القيادة الفكرية في هذه الاقطار المنعزلة عن الوطن العربي الكبير ، كالكيانات التي يريدون ان يقيموها اليوم منعزلة عن العرب في شتى ديارهم ، وتدعيم هذه الكيانات بمختلف الاساليب التي تزيد من عزلتها عن الاقطار العربية الاخرى ، وعن الافكار العامة للتحرر العربي والوحدة العربية ، حتى غدت اشبه بكيانات جماعة من السواح توطنوا مجددا او فئة راغبة في الهجرة الى الاوطان البعيدة .. وعلى اوسع نطاق ! !

ان الجماهير العربية ، على الرغم من كل شيء ، عندما تحنو الى نفسها، وتنعتق من اسار مصالحها العاجلة وتضع ايديها على الضمائر الاصيلة ، لا تستطيع ان تقلل من انفعالها وتفاعلها مع خطوات الثورة في مصر ، هذه الثورة التي جاءت تحمل مبادىء واضحة : مصر جزء من العالم العربي ، والشعب المصري جزء من الامة العربية ، والوطن العربي من المحيط الى الخليج يؤلف وحدة فكرية وعاطفية وتاريخية ، تدفعه آماله وظروفه المحيطة به والمنبعثة من كيانه لان يسعى نحو الوحدة بل لان يلح في طلب الوحدة . وان اعداء القومية العربية والوطن العربي هما الاستعمار وربيبته اسرائيل ، والعرب على الصعيد الدولي غير منحازين لاحد ، يصادقون من يصادقهم ويعادون من يعاديهم ، وعلى الصعيد الداخلي ينبغي للشعب ان يتحرر من الخوف من الغد اول ما ينبغي ، وان يؤخذ بيده في مدارج الرقي باشاعة التعليم واسباب الصحة ، والعناية بروافد غذائه وكسائه ، واعطائه الثقافة الواعية التي تجعل من افراده مواطنين صالحين يخدمون وطنهم ويؤمنون به ، وبحقه في الحرية والسيادة ، وبواجبهم في توكيد هذا الحق الصريح في الحرية والسيادة .

ومصر ، اذا كانت اليوم تحاول ان تصلح فساد القرون ، فلا يعقل ان تفرغ من هذا الاصلاح في فترة محدودة . على الاقل يلزمها مرحلة جيل ، لتستطيع ان توجه جيل الثورة عن طريق التعليم وتوجيه مشاربه الثقافية وجهة عربية ، تؤكد قضايا العرب الاساسية في الوطن الصغير ، وفي العالم اجمع . وهذا المثال الفكري له دلالته البليغة ، لان الف باء كل اصلاح جذري ، يبغي تطوير اتجاه شعب كامل من مرحلة الايمان بانه سليل الفراعين الى مرحلة جديدة اصيلة ، يدرك فيها انه جزء من الامة العربية ، لا يعقل ان تتم هذه المرحلة بمجرد النص عليها في الدستور والدعاية لها في الصحف وعلى السنة المسؤولين . وهكذا فان القيادة السياسية عندما تتعاون مع القيادة الفكرية ، وتعملان جنبا الى جنب تتضح الطريق وتغدو الخطوات متزنة ، والنجاح يبدو مؤكدا لا بد منه اشبه بالشمس الساطعة او القمر المنير .

ولكن الى جانب هذين المثلين الناجحين ، للقيادة الفكرية والقيادة السياسية ، تمتد على مختلف الاتجاهات قيادات سياسية ، مريضة ، وعليلة ، ومتوعكة ، وقيادات فكرية اكثر مرضا ، وعلة ، وتوعكا ، بعضها سمي احزابا ، وبعضها هيئات ، وبعضها فلسفات مستقاة من مشارب استعمارية ، بعيدة كل البعد عن حقيقة الشعب العربي الاصيلة ، وحقيقة قضاياه القومية الخالدة . ولسوف يزداد ترابط هذه القيادات المريضة، وبخاصة منها القيادات السياسية ، لان هذه القيادات لم تكن استجابة لضرورة وطنية او جغرافية ، او اقتصادية .. او حتى اجتماعية ، لها صلة بالوطن الذي نعيش فيه ، ولا بالوطن الكبير الذي ينبغي ان تسعى للذوبان فيه . بل هي على العكس زبدة الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في هذه الاقطار العربية المتعددة ، على الرغم من ان هذه القيادات لا تزال تدعي انها تؤيد اتجاه الجماهير العربية نحو نشدان الوحدة ، واقامة دولة واحدة ، وفق منهاج عربي صرف ، بعيد عن اتجاهات المذاهب الغربية او الشرقية على حد سواء . وامعانا من هذه القيادات في الرذيلة السياسية – ان صح التعبير – نراها تكثر من تصريحاتها عن الاستعمار والمستعمرين ، والتحرر والانعتاق من الاسر الاجنبي ، وان كانت في الحقيقة توطد للاستعمار من حيث تدري ولا تدري، بارتباطات سياسية مشبوهة وسماحها للمعتمدين السياسيين لهذه الدول الاجنبية التي ارتبطت بها ، بتوجيه السياسة المحلية لاقطارها في وجهة تفيد الاستعمار وحده ، وتعود بالوبال على المواطنين ابناء البلاد الاصليين . ولا شك انها بذلك كله تخون وطنها خيانة ذات وجهين ، الاول تأخيرها عن انتهاج اسباب الاصلاح في الداخل ، الاصلاح على اوسع نطاق ، وفي مختلف الشؤون ، والوجه الثاني من الخيانة ، محاولتها الاساءة الى القضية العربية الكبرى في تعطيل نزوع العرب نحو الوحدة وفرض هذا النزوع الحر على العالم ، وعلى كتلتيه المتصارعتين بوجه خاص .

٣ – نستطيع الآن ان نتأكد من اتجاهنا في هذا الخضم الذي يخاله بعض دعاة الحرية الجوفاء ، تجربة من تجارب الهالكين . ان نظم الحكم لها دلالة اجتماعية ، ان اردنا الدقة في التعبير ، هي انعكاس محتوى اجتماعي وفكري وتاريخي ولا يعقل ان تكون دراسة النظم مجردة من محتوياتها هذه ، لانها عندئذ تغدو مجرد دراسة تاريخية للنظم ، وتطورها على مدى القرون ، ولعل الذين يحلمون بديموقراطية الانجليز في بلادهم،

ينسون ان هذا الشعب الذي يقرر هذه الديموقراطية بالذات انما هو الشعب الانجليزي . والذين ينعون على المانيا ، منساقين مع دعاية الحلفاء ابان الحرب العالمية الثانية ، والنعي على النظام الالماني والباسه ثوب الجريمة الكبرى ، في حين اننا نلحظ تاريخيا ، ان الشعب الالماني الذي عاصر فردريك ، وبسمارك ، وهتلر ، كان يتقدم بخطى حثيثة في سلم الحضارة ، منسجما بذلك مع طبعه وتراثيه الفكري والقومي الاصيلين .

ولا نريد ان نؤكد من جديد ما هو مؤكد ، وهو ان الشعوب المتفككة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، لا تستطيع ان تنهض اذا لم تشد الحزام على بطنها ان صح التعبير وتمضي في اهاب واحد ، وفكرة واحدة وقيادة واحدة نحو غرضها المنشود .. واننا لكي نكون ديموقراطيين حقا ، احرارا حقا ، سعداء حقا ، ينبغي لنا ان نمر في دور الشدة، والحزم ، والارادة الواحدة، واننا لكي نستطيع الظهور بمظهر موحد ، اصيل ، يعكس اصالة تاريخنا ، وينير امامنا طريق المستقبل ، يجب ان نفتح عيوننا على الواقع الذي نعيش فيه ، وان نعزل المرضى عن الاصحاء ، والخونة عن الاحرار ، ونبقي على المجموعة الخيرة من الشعب ، تلك الراغبة في الحياة الكريمة والسيادة القومية ، والمكانة الرفيعة بين الامم ..

كل ما في الامر ان النظم الديموقراطية منتشرة على اوسع نطاق ، في مختلف الاقطار العربية ، حتى الاقطار التي ليس فيها مجالس نيابية ، تدعي انها تحكم حكما قائما على الشورى . ولكن الواقع شيء ، والدساتير السائدة من الوجهة النظرية شيء آخر . خذوا بعض الاقطار العربية ، او قطرا خاصا منها ، فيه برلمان وفيه وزارة ، وفيه رئيس ، يعتبر بحسب الدستور رمزا للبلاد ، ولنسمه الرئيس الملك ، او الملك الرئيس ، ودققوا في أحوال هذا القطر ، تجدوا الدستور ينص على حقوق عديدة لكافة المواطنين ، ولكنه من حيث التطبيق ، يضع في ايدي اعداء البلاد من جلاديها ، صلاحية تطبيق هذه الحقوق ، صلاحية بيعها ان اردنا الدقة في التعبير . وكذلك فان في هذا الدستور الفاظا مرصوصة بعضها الى جانب بعض ، عن تكافؤ الفرص والتعليم الاجباري والعدالة في تكليف الضرائب ، ولكن الواقع يدل على ان اكثرية الشعب لا تزال مريضة ، لا تزال جاهلة ، لا تزال فقيرة ، وان الاقلية تزداد غنى وصحة وعلما ،وكذلك فان الدستور ينص على حرية الصحافة ، ولكن الصحافة في الواقع اكثر من حرة ، ولا يتورع بعض مصدري هذه الصحف ، عن جعلها الضمير الجاهز للآجار ، وبأبخس الاثمان . انها امتهان لحرية الفكر الاصيلة ، انها صورة عن القيادة الفكرية المضطربة ، صورة حية تعكس اضطراب الموازين وخلل المثل ، وتنازع القوى المتصارعة على حساب الصالح العام ، للفوز بحصة الاسد منه . وان الرئيس الذي نص الدستور على انه غير مسؤول، هو في الحقيقة الحاكم بأمره ، في ظل نظام يوزع المسؤوليات ولا يحصرها حتى تضيع عين الشعب اليقظ اذا ارادت أن ترصد خط سير الاهمال ، او التقاعس ، او التلاعب بمقدراته وأمانيه .

ولعل نظرة مخلصة مبرأة من الغرض ، تلقى على الوطن العربي وعلى أكثر دوله المجزأة المبعثرة هنا وهناك كالاصفار على خريطة العالم ، تدلنا بوضوح على ان الحكم في هذه الاقطار ، هو غير ديموقراطي وانما هو في حقيقته حكم طبقة وحدتها المصالح المشتركة ، تعيش على حساب اكثرية الشعب البائس ، لا تؤمن بالاصلاح ، بل دأبها اعاقته وتأخيره . لان الاصلاح في أي مكان ، معناه ان هذه الطبقة الحاكمة ، هذه القيادة السياسية سوف تزول ، سوف تحفر قبرها بيديها ، سوف تؤول بها خطتها الى انهيار دعائمها وفقدان اسباب السلطة ، تلك التي تمكن لها اسباب البقاءابعد حدود التمكن،وهذهالقياداتالسياسيةفيبعضالدولالعربية اليوملا تنيتحارب مصرالثورة،لانها تحسانجماهيرشعبهاتؤمنبقيادةمصروبأسلوب مصر ، وبالاصلاحات التي اخذ ينعم بها الشعب المصري ، ولذلك فان هذه القيادات السياسية المريضة لا تريد لتجربة مصر ان تستمر في النجاح ، لانها خطر على وجودها وعلى بقائها ، وعلى نفوذها ، وهي لا تتوانى عن التحالف مع اعداء العروبة والقومية العربية لضرب مصر وازاحة معالم ثورتها من الطريق ، وما موقف بعض هذه القيادات السياسية المائع ابان العدوان الثلاثي على مصر الشقيقة ببعيد .

ان الشعب العربي ، من المحيط الى الخليج ، لم يتمرس بالديموقراطية القائمة اليوم على تعدد الاحزاب – تعدد المصالح – في طيلة تاريخه الذي ابتداه بسيادة القبيلة قبل الاسلام ، حتى العهد الاسلامي ابتداء من عهد الرسول .. حتى زوال الدولة العباسية ، وابتداء من سيادة دولة بني عثمان على الاقطار العربية وحتى مستهل الحرب العالمية الاولى . واذا كنا لا نجادل في ان الديموقراطية النيابية هي حصيلة تطور شاق استغرق قرنين في اوروبا .. حتى بدت صورة الديموقراطية صورة باسمة ،عمادها الشعب ، المؤمن اجتماعيا ، المتعلم ، المعافى ، اليقظ في سماحة على مصلحته ، في رباط من القومية المتفاعلة مع العالم دون خوف او وجل..

فهل نحن مررنا بهذه المراحل ، حتى ندعو الى دستور .. والى حرية صحافة .. والى تكافؤ الفرص .. والى العدالة في تكليف الضرائب ،

ثم نقف لنسلم الحكم ، لاعضاء هم في حقيقتهم خلاصة التطور الاجتماعي الفاسد لشعبنا العربي طيلة اربعة قرون من الاستعمار التركي .

الواقع ان في الامة الواحدة مصلحة واحدة ، وليست ثمة مصلحة اخرى تتصارع ، باسم الاقلية او الاكثرية ، مع المصلحة الاخرى . وترابط الفرد مع العائلة ، يذيب مصلحته في مصلحتها وكذلك حال الشعب الواحد . لا يعقل ان تبقى مصلحة خاصة للفرد، ومصلحة خاصة بالمجموع، ان هذه صورة عن مجتمعات فوضوية ، لا تريد ان تشعر بحقيقة العدالة وحقيقة المساواة ، وحقيقة المشاركة في المسؤولية تجاه الوطن حتى ابعد الحدود . وفكرة الحزب الواحد ، او التعبير عن المصلحة العامة بلسان واحد ، للدولة العربية الموحدة المنشودة ، مبعثها اننا نفكر باعداد المثال لهذه الدولة ، المثال الفكري ، والاجتماعي ، والمثال الخاص بالشخصية الحقوقية لهذه الدولة وفق اطار ينسجم وصورة النظام الذي ينبغي أن تأخذ به ـ وهذا ما سنعرض له في امراض التطور ـ. انه حزب واحد، وقيادة سياسية واحدة ، مترابطة فكريا مع القيادة الفكرية المترابطة معها سياسيا ، لا تسمح بتعدد الآراء اذا كانت في حقيقتها تعبيرا عن مصالح خاصة فردية او جماعية ، مع استعداد هذا الحزب للسماح بوجهات النظر ، والتطور من الداخل ان صح التعبير ، والاخذ بمجالي التقدم العالمي واذابتها في بوتقة الشخصية العربية الاصيلة ، تلك الشخصية التي هي ليست غربية او شرقية على كل حال .

ان ما نشهده في هذه الايام ، على الارض العربية ، من عديد الاحزاب، وعديد البرامج ، انما منشأه ليس اصالة هذه الاحزاب .. ولا اصالة افكار هذه الاحزاب .. ولا اصالة القائمين على هذه الاحزاب .. انما مرده اولا وآخرا تفاوت الحضارة الحديثة فيالانتشار منقطر الى قطر،وتفاوت الفساد الاجتماعي في هذه الاقطار من مرحلة الهلاك التام .. الى مرحلة الاعياء او التوعك ، وكذلك تعدد المصالح المتضاربة وقيام هذه الاحزاب بالتعبير عن هذه المصالح الشيطانية التي ما أنزل الله بها من سلطان . وما هذه المبادىء التي تؤمن بها القيادات السياسية في اكثر البلاد العربية ، سوى طلاء براق يخفي تحته ، الصور الراكدة عن المجتمع الراكد ، والموت الذي ينشر ابراده السود على مختلف نواحي الوطن العربي ، ذلك الذي يصرخ من اعماقه بالمتقاعسين ان اخلعوا اقنعتكم ، وافتحوا عيونكم على الحقيقة الشاملة ، وانطلقوا في طريق الحرية الصحيحة ، والبعثالصحيح، ووكدوا ارادتكم الخالقة ، وافرضوا وجودكم الحي على انفسكم وعلى العالم ..

واذا كانت الامة العربية من المحيط الى الخليج ، تشكو من مرض القيادة وامراض السيادة والتطور ، فانها استطاعت الخلاص من مرض القيادة ـ وهي قد تخلصت منه في مصر بصورة نهائية ـ فانها سوف تستطيع التخلص من المرضين الآخرين ، لتبني للعروبة درعا من القوة الخارقة ، وتقف بالمرصاد للاستعمار واعوان الاستعمار ، ولاسرائيل ربيبته، وقفة اصيلة ، تعيد الى الاذهان صورة حية من وقفات العروبة في ماضيها الخالد ، يوم انطلق العرب الاحرار ، تلك الانطلاقة البطولية التي قوضت فيما قوضت ، سلطان الاصنام ، وجبروت المدعين بالألوهية منبني الانسان!

حلب — علي بدور



اعتزم احمد الذهاب برفقة زوجته وطفلتهما الى الجبل كي يمضوا قسما من الصيف في بيتهم القديم . الا انه في الصباح وفي موعد الذهاب كان عليه ان يقدم لاخيه الصغير طلبا لدخول مدرسة الصنائع ثم يذهب لمقابلة شخص كان قد استأجر منه قطعة ارض فسيحة تمتد امام بيته في برج البراجنة لبناء مصنع لصناديق الفاكهة . حتى اذا انتهى النهار من ذلك قصد الى محلات ((البستاني)) ليدفع القسط المستحق من ثمن الغسالة التي اشتراها منذ اشهر .

فاضطر ان يوصل زوجته وسميرة طفلتهما الى المحطة على ان يلحق بهما حال انجاز عمله في بيروت . ولم يكن بالمحطة الا اوتوبيس واحد ولكنه كبير وطويل يرتفع بابه الى حد ما . وقد جثم فوق فسحة من الارض تحتل مركزا اساسيا بين ابنية انيقة تنصب امامه ثلاثة شوارع .

من جهة سوق الدلالين الصاخب . والشاحنات الكبيرة . وسحب الطحين التي تنعقد فوقها وخلفها الى مسافة بعيدة. والمارة الذين يحتالون للمرور بين صقالات الحمالين . وباعة الخضر الذين ينادون ويقفزون .. ويبيعون وسط اكداس الصناديق والافراش ..

ومن جهة ثانية رصيف طويل كئيب مفروش بقشور الموز وعرانيس الذرة واوراقها وكراس واطئة وعالية مبعثرة .. يجلس عليها شبان وشيوخ في اوضاع عادية وغير عادية ... يشربون القهوة ويدخنون النارجيلة ويثرثرون في كل شيء .

وشارع ثالث عريض يمتد امام دار الريفولي تندفع فيه السيارات والحافلات في تهور .. الا ان الناظر اليه يداخله شعور بان الحركة تمتزج فيه .. في دمائه ...

جلست ليلى ــ وهو اسم الزوجة ــ في مقعد امامي بازاء الشباك بعد ان تنقلت في مقاعد عدة ــ لقلة الركاب ــ وقد اختارته لانه مريح وقريب من الشباك ولا تحس فيه بالدوخة التي تحس بها اذا هي جلست في مقعد خلفي ...

ووقفت سميرة بجانبها على المقعد يطل وجهها الصغير من الشباك .. لتتفرج على الباعة المنتشرين هنا وهناك .. كالنحل ..

كانت الام تحوطها في حنو .. بل هي تكاد تحس الاحساس نفسه تجاه كل شيء ... كل شيء يبدو لها رائعا .. لذيذا بل ان كل ما تفكر به .. كل ما يطوف فيخيالها من صور وذكريات وتفاصيل يبدو رائعا .. كاحلام الاطفال .

كانت تحملق في سميرة .. كانت صورة سميرة .. وجهها الصغير المستدير .. عيناها الجميلتان الطافحتان بالطيبة والبراءة تعيد اليها صفحة بيضاء ناصعة من عمرها .. لقد تزوجت .. ومضت اربعة اعوام .. لم تذق خلالها طعما لغير السعادة .. لقد طوى زواجها كل شيء ولم يعد الماضي التعيس الذيعاشته مع عائلتها الفقيرة الا ذكرى باهتة .. تذكرها فحسب .. بين وقت وآخر ..

الا انها تدرك تماما انها لم تخلص لاحمد لمجرد ((عملية انقاذ)) . ان هذا يبدو لها سخيفا كل السخف . انه مجرد عملية تجارية .. قد يقوم بها اي انسان يمتلك حفنة من المال... وربما كان فاسقا او في حدود الستين او احدب نوتردام .. ثم اليست هي جميلة ؟! ان هذا التفسير لا يكفي وحده ليمد هذا الاخلاص بتلك الحرارة العجيبة.. انها تحس في كل لحظة أنها ستخلص لاحمد اكثر من اللحظة السابقة .. لماذا ستخلص له ؟ ان هناك شيئا اخر غير الوفاء يربطها الى ضلوع احمد .. شيئا لا يقهر..

لكم كان يوم زواجها من احمد رائعا ... لذيذا . جاءت امه في تواضع الى امها ، قالت دون تردد انها تريد ليلى .. لاحمد .. وانه موله بها كل الوله وهم جيران .. والجار احق بجاره من الغريب ..

وبدت الغبطة على وجه ليلى وغرقت في هناءة قصيرة متمهلة .. لا تنتهي فمالت على سميرة تضمها الى صدرها وتفرز شفتيها في خدها الصغير النضر . وسميرة منشرحة منطلقة متوثبة تعبث شفتاها الناعمتان بطرف الكعكة في هدوء وصحة .

بعد قليل تقدم من الاوتوبيس رجل شيخ يجر نفسه جرا وفي عينيه قلق وتعب شديدان ثم وقف يسأل اذا كان الاوتوبيس سيمر في بحمدون وبعد ذلك ثبت رجله اليمنى على درجة الباب وانحنى ليتعلق باسفل المقعد الامامي . ثم ضغط بها الدرجة ثلاث مرات قبل ان يتمكن من رفع رجله اليسرى . وهكذا فعل مرة ثانية حتى استطاع الصعود .

واخيرا .. جلس بجانب ليلى ــ وهو المقعد الاول الذي صادفه ــ وكان انفه المربع المتورم وشارباه العظيمان وحاجباه الكثان تثير حوله هالة من الهيبة والاحترام رغم ما تنطق به وجنتاه الغائرتان وعيناه الشاحبتان من عجز وضعف .

وجلس .. فتكوم غنبازه الاسود بين فخذيه فنفضه بحركة صغيرة ثم تحسس بيده سلسلة صفراء تمتد من جيب صدريته العليا . والصدرية عبارة عن قطعتين امامية سوداء مزررة بازرار زجاجية براقة وخلفية بيضاء ترسم فوق الظهر حدبة خفيفة وتنتهي بعنق طويل يغطيه وبر ابيض .

واستدار الشيخ فجأة كمن تذكر شيئا معينا .. واخذ يحملق في وجه الركاب بعينين حائرتين . وتململت ليلى في مقعدها ووضعت يدا فوق اخرى لتفسح له مجالا ارحب ثم مسحت في حنو شعر سميره .. وقد ذاب قلبها في مشاعر صغيرة مؤثرة ..

وهي بين ان ترفع وشاحها الابيض.. وبين ان تخفي شعرها الاسود الجميل كانت عيناها العسليتان تشعان بنور دافيء لطيف وكان وجهها الشاحب قليلا بلون اللبن عليه مسحة حزينة حتى يخيل للناظر اليها انها فتاة يتيمة زاهدة في الحياة .

ومر بائع بوظة يلوي كالقصبة له شفتان ممطوطتان ووجه طويل ينم عن ضعف وطبع رخو فضبط الصغيرة تحدق اليه ، عيون صغيرة فيها براءة وطيبة وبوظة . واقترب من الاوتوبيس يقرع اجراس عربته الصغيرة وينادي بصوت طويل معلوك ـ وكأن في فمه علكا ـ ليؤلف مع رنات الاجراس الصاخبة سمفاونية غريبة . فانبسطت اسارير الصغيرة وتجمعت الهناءة على وجهها في تعبير باهت .. لذيذ وكانما تريد ان تقول : لا حاجة بي الى البوظة ..

وما لبث لسانها الصغير ان اطل بين شفتيها الرقيقتين ثم حدجت البائع بنظرات خبيثة يقفز لها القلب وقد ارتسم بين عينيها اروع معاني الطفولة . فمد البائع لسانه الطويل وزمم انفسه الاحمر المروس فظهرت اسنانه الصفراء الطويلة التي اثارت ضحك الصغيرة ..

كانت الساعة قد ناهزت الثامنة ولم يبق الا نصف ساعة لمسير السيارة . وكانت الشمس تغمر المدينة بضياء رائع وتلقي على زجاج السيارة كتلة من نور تعكس انوارا ذات الوان شتى ..

وادارت ليلى وجهها وقد شعرت فجأة بشيء يرهق صدرها وكان الحر والشمس الشديدة .. والانتظار ـ مهما كان الانتظار ـ يغذى دواعي الملل في نفسها .. وكانت المقاعد الخلفية ما تزال حرة . اما الامامية فلم يبق منها الا عدة اماكن لا غير .

وفي المقعد المجاور لها كانت ثمة امرأتان احداهما سمينة تلتحم بالمقعد وترتدي فسطانا يبدو ضيقا رغم اتساعه تبرز من خلاله طيات جسمها لتثير في النفس مشاعر مختلفة .

والثانية هزيلة على طول كانما كانت محبوسة فيقسطل رفيع وكانوجهها يبدو كوجه الجمجمة تبرز منه اسنان طويلة مهزوزة . وكانت هذه تنصت الى المرأة السمينة وهي تثرثر بدون انقطاع وصوتها يرتفع بشكل مزعج كما لو ان حديثها من الاهمية البالغة بحيث ينبغي ان يصل الى اذن كل انسان.

وكان الشيخ ينظر اليهما في ارتياب : وكانه ينتظر حدوث شيء فوق العادة . والحق ان منظرهما كان يثير مثل هذا الشعور فلقد يخيل للناظر ان المرأة السمينة سوف تنقض لتنهش كتف المرأة الهزيلة وكانت عينا هذه الاخيرة الخائفتان تبرران مثل هذا الاحتمال ..

وغفا الشيخ اغفاءة حزينة .. وبدت خطوط وجهه القديمة صورة لتعب مزمن وصلابة انسان يريد ان يعيش رغم كل شيء .. ولعل ذلك ما جعل ليلى تحس تجاه الشيخ بعطف جريح ولسانها يتحرك في صمت ، ترى كيف يعيش ؟ هل ما زال يعمل .. ويكد .. تحركه عزة النفس ؟! ولكن ودت لو تعرف عنه شيئا ، لو تستطيع ان تقدم له خدمة صغيرة . فلقد كان محياه رغم ما يرمز اليه من عنف وصلابة قريبا الى القلب .

القت ليلى نظرة على ساعتها الصغيرة . ثم الى السائق الذي كان قد ترك السيارة وانتحى جانبا مع مجموعة من الشبان يشربون الكازوز ويثرثرون ...

ولعلها فسرت جلوس السائق بان موعد المسير قد يطول اكثر مما بقي من الوقت ـ عشر دقائق ، فاقعدت سميرة على ركبتيها وشبكت يديها حول خصرها وغرقت في تأملات وافكار سهلة .

وكان الطفلة احست لاول مرة بوجود الشيخ فرفعت حاجبيها الصغيرين دهشة عندما لمحت رأسه غارقا في لبادة طويلة رمادية . والتمعت عيناها ببريق جذاب وبخفة وهدوء مدت يدها الى جيب صدريته العليا وهي تفتح فمها فتحة صغيرة لم تطبقه الا بعد ان سحبت شيئا .. واشرق وجهها الصافي كلؤلؤة كبيرة :

ـ ماما .. شوفي ساعة .. ساعة كبيرة ..

وافاق الشيخ منزعجا .. ولكنه عندما لمح ساعته في يد الصغيرة اتسعت عيناه وانفرجت شفتاه عن تعبير ساذج لذيذ . بيد ان الام اعادتها اليه وقد تخضلت بشرتها بلون الدم . وقالت وهي لا ترفع بصرها عاليا :

ـ عيب .. عيب يا ماما...

فاجاب الشيخ وهو يبتسم ابتسامة هادئة لطيفة :

ـ يا زغيرة .. والله انت تمام مثل سعاد .. سعاد بنت بنتي.

ولعل ابتسامة الشيخ التي تحمل المرء الى جو هادىء وديع شجعت الصغيرة على التحرش به فقد الفت بالكعكة المستديرة في حضن امها ثم وقفت بينها وبين الشيخ وادارت اليهما وجهها ثم امسكت بكتف امها واخذت تضغط بيدها الاخرى على انف الرجل المتورم ترسم خطوطا مختلفة .. على جفنيه وحول عينيه.. وكانت تتحاشى انتلمس باصبعهاالصغير لبادته الطويلة وكانما تخاف اذا هي فعلت ان يخرج من تحتها شيءمخيف ... وكانت وهي تلمس بيديها شعره الاشيب الذي يزحف تحت اللبادة تبدو مندهشة للغاية وكانما لم تكن قد رات من قبل شعرا ابيض . فاخذها الشيخ الى صدره ثم غرز شفتيه الضخمتين في خدها الصغير النضر .

ـ يا زغيره .. يا حلوة !!

ورغم كثافة لحيته وضخامة شفتيه لمبيد على الصغيرة اي اعتراض.. بل ان عينيها كانتا تنطقان بجرأة وذكاء عجيبين .

وحاولت الام ان تستعيد الطفلة من الشيخ وهي تجاهد ألا تضحك :

ـ عيب .. عيب يا ماما ..

الا ان الشيخ أقعد الطفلة على ركبتيه وقد بدت المتعة على وجهه :

ـ لا .. اتركيها معي .. والله يا ابنتي انو قلبي هف لها من اول نظرة ...

وحملق في الصغيرة .. كانت عيناه تبرقان بشدة .. رغم شحوبهما حتى خيل لليلى ان دمعة كبيرة توشك ان تنحدر على خده . وابتسم ابتسامة مشوبة بالحزن والاسف :

ـ آه .. يا زغيره .. قديش في شبه .. بس يا ريت كانت سعاد معنا .. ايه يا رب ! متى راح ترجع سعاد من البرازيل ..؟

فوق ركبتيه كانت الطفلة منشرحة متوثبة .. تحرك رجليها الصغيرتين في صحة وهدوء .. ثم اخذت الكعكة من امها وعادت تمص طرفها بشفتيها الصغيرتين .. ووجهها يطفح بالسعادة ..

وفجاة .. تنبهت ليلى الى انها نسيت ان تشتري اغطية لسريرها .. وسرير احمد .. فلقد اصبحت الاغطية قديمة بالية الى حد ما . ولم يكن « سوق الطويلة » ـ وهو سوق الاقمشة طويل كاسمه ـ بعيدا ، فاعتزمت الذهاب لشراء الاغطية قبل مسير الاوتوبيس .

ولكن .. هل تأخذ سميره معها ام تتركها للشيخ ريثما تعود ؟ من يدري ربما سارت السيارة أثناء غيابها أو حدث سوء للطفلة . ان الذهاب باليد ولكن العودة ليست باليد . اذن لا بد من ان تأخذها ولكن يبدو ذلك صعبا .. فالسيارات وزحمة السوق .. ثم ينبغي ان تحمل سميره.. والوقت .. ليس ثمة متسع من الوقت ..

واستقر رأيها في سرعة .. حتى لا تدركها مشاعر وافكار اخرى ... فالتفتت الى الشيخ وهي تبتسم ابتسامة قلقة :

ـ عمي الشيخ .. عمال معروف .. خلي البنت معك .. بينما روح شوي على السـوق ..

وبدا الطلب للشيخ رائعا بل ومثيرا ... معا . فانبسطت اساريره وشعت عيناه بنور هادىء لطيف وكأنما عادت اليه حفيدته الصغيرة .. من البرازيـل ..!

ولم يدر بماذا يجيب :

ـ تكرمي .. يا بنتي . والله يا بنتي انو حبيت الزغيره من أول نظرة.. هو يا بنتي الاولاد زينه .. يا الله شو بتشبه هالصغيرة سعاد !!

ومسحت ليلى شعر ابنتها وهي تقول :

ـ سميره .. خليكي مع عمو .. كوني معه عاقلة !

ثم تركت الاتوبيس بسرعة .. ابتلعها الشارع .

غير ان القلق ما لبث ان بدا على وجه الشيخ وكأنما داخله فجاة احساس بشـيء غامض .

***

اجلس الشيخ الطفلة على ركبتيه وأحاطها في حنو بذراعه القوية المطمئنة وأخذ يدغدغ وجهها بيده .. سألها عن الاشياء التي تحبهـا .. السيارات .. الحافلات .. الاولاد الفقراء الذين يبيعون العلكة .. غير ان سميره سرعان ما سئمت من « شوفي هالزغير .. شوفي هالفقير » .. فارتسم على وجهها تعبير خبيث وكأنها تريد ان تقول : لا حاجة بكَ للتعب .. اني ارى كل شيء ؟! ثم افلتت من يديه الضخمتين في حياء وعـادت الى النافذة تتفرج وتبتسم .. لجميع الاطفال ! فالتمعت عينا الشيخ .. وتحرك لسانه في صمت :

ـ يا ابنتي ...

بعد قليل مر بقرب المحطة شاب طويل القامة وسيم المحيا مرتفع الجبين عيناه سوداوان هادئتان يطالعك وجهه الصغير بابتسامة تشع بالامل يفتح لها قلبـك واذ تراه ينتابك شعور لطيف اشبه بذلك شعور الذي ينتابك للحظة لا غير ـ عندما تصادف صديقا قديما .

ولم تكد الصغيرة تلمح الشاب ـ ميزته من بين مجموعة من الناس ـ حتى صرخت وقد قفزت الفرحة الى عينيها :

ـ بابا ... بابا ...

ومن خلال الشباك مدت ذراعيها وأخذت تلوح وتصفق .. ان تعـال خذني .. فأثارت انتباه الركاب الذين صوبوا انظارهم الى الشاب . ومال الشيخ على الصغيرة حتى كاد وجهه يلامس وجهها وسألها في سـذاجة :

ـ شـو .. شو يا عمو ..

ولكن الطفلة لم تسمع .. نسيت الشيخ وكل شيء حولها ..

ـ بابا ... بابا ...

وعلقت المرأة السمينة وقد ارتعشت ملامحها كمن يوشك ان يبكي :

ـ يا نونو .. انت عرفت البابا ؟! ثم قالت تخاطب الشيخ :

ـ والله يا عم الاولاد زينة الحيـاة .

ولكن الشيخ رمقها بنظرة ازدراء فلم تفهم لذلك سببا وأشاحت بوجهها في امتعاض كأنها تريد ان تقول :

ـ سـبحان الخالـق ؟!

وأسرع الشـاب وقد ازداد وجهه اشراقا :

ـ بابا .. بابا .. يا عمر البابا !

فصفقت الصغيرة بيديها كحمامة بيضاء وهي تمد يديها تحرك رأسها تود لـو تطـير ..

غير ان الشيخ امسـك بطرف فسطانها الرقيق وسحبها قليلا الـى الداخل بينما اخذها والدها بيديها :

ـ بابا .. انت هون ؟

ـ بابا .. انت مش رايح معنـا ؟!

ورفع الشـاب رأسه قليلا وبعد ان بحثت عيناه داخل الاوتوبيس تبدلت ملامحـه فجـأة :

ـ .. وين الماما يا سميره ؟ وين راحت ؟ انت مع مين ؟

وأجابت الطفلة وهي تغمز بخديها الصغيرين وتقلب كفيهـا بحركـة لطيفـة ناعمـة :

ـ المامـا .. بـح ! !

ونظر الشاب الطويل الى الشيخ .. غير ان الرجل لم يشأ ان ينبس ببنت شفة . كانت عيناه السوداوان تسددان نظرات مستقيمة ثاقبـة من تحت حاجبيـه الكثيفين . فاندفعت المرأة الهزيلة تشرح الموقف وفي عينيها تردد وخـوف دائمـان :

ـ راحت عالسـوق شوية .. وتركت الطفلة مع الشيخ .

قالت هذا والشيخ يحوط الفتاة بذراعه في حب وحنان وينظر الـى الشاب في ارتياب . كان اشبه بدجاجة تحمي فراخها من قط خبيث ينتظر الفرصـة للانقضاض عليهـا .

كان يبدو وقد صمم ان يحول دون اي انسان يريد ان يأخذ منـه الطفلة في الاوتوبيس وفي غياب الام بالذات . ليست ملك احد سواه.

وابتسم الشاب ابتسامة ابت الا ان تكون مخنوقة :

ـ عمو .. متشكر كثير .. لا مؤاخـذة ..

فلم يجب الشيخ وبدا كأنه لا يعي حرفا واحدا مما قاله الشـاب .. لماذا يتشكر ؟! وعلام يقول في بلاهة : « لا مؤاخذة » . وجذب الطفـلة اليه وشبك يديه حول خصرها فتدلت على ركبتيه وشمر فسطانها الرقيق حتى ظهر سروالها الصغير .. وهي تنادي :

ـ بابا ... طـلاع معنـا ...

واسرع الشاب متخطيا الباب وهو يحس كنصل حاد ينغرز في قلبه . لقد انحنى قليلا امام الشيخ ومد يديه ليحتضن الطفلة .. طفلته هو ورغم احساسه بالانخذال والشقاء فقد كان يبتسم وقال :

ـ هو انا والدها ! وكانت الطفلة قد رفعت يديها وعينيها اليه .. ان خذني يا بابا .. غير ان الشيخ تشبث بها .. تشبث بيديها .. بخصرها الصغير فكانت كلما حاولت ان تزحف على ركبتيه عاد ورفعها ليقعدها في حضنـه مـن جديـد .

ـ هل انا غريب .. ولكن هي ابنتي . ان هذا ينبغي ان يحسـه احساسا .. انه شيء لا يحتاج الى برهـان ...

واتخذ وجه الشاب معنى هو مزيج من المجد والرعب . واغلب الظـن انه هو نفسه ما كان يعلم ما الذي يعتزم ان يفعله لو اصر الشـيخ على عدم تسليم الصغيرة . وعلى اية حال فقد تعود الام .. ولا بد أن تعود.. ولكنه لا يجرؤ ان يقاوم الشيخ الان .. لماذا لا يجرؤ .. واعاد الشاب ذراعيه الى وضعهما الاول في تخاذل وخجل دون ان يحدث شيء حاسم .

ثم قال الشيخ فجأة بصوت يطلع من قلبه :

ـ يا حبيبتي انتظري الماما .. والله يا ابنتي بعد قليل بتجي الماما ..

هو البابا على راسي وعفيني بس انا مسؤول عنك تجاه الماما .

ويبدو ان الطفلة لم تفهم شيئا : لم يفهم حتى الكبار معنى هذه المسؤولية . واي مكان للمسؤولية او عدمها في قضية هي مجرد أب وطفلة لا يمكن ان يزج شخص ثالث نفسه بينهما . بل ان الامر ليبدو من الوضوح بحيث يثير « النرفزة » . فشحب وجه الشاب والتمعت عيناه ببريق سام ثم تحرك لسانه في صمت : هي ابنتي

ولكن .. من يقول انها ليست ابنتك ؟ من لا يصدق انك لست اباها ؟ وما هو الضير اذا كانت مع الشيخ ؟

مسؤول تجاه الماما .. أليس هو على حق ؟ أليست الطفلة وديعة لديه؟ لنفرض اني لست أب الطفلة الحقيقي واني أشبهه الى حد بعيد ... لنفرض اني الاب الحقيقي وعلى خلاف مع الام ... ألا يمكن ان تحدث اشياء مثل هذا النوع ؟ وهل تغضب اذا كان الشيخ يحافظ على الطفلة حتى من ابيها ؟!

ولكن .. أي معنى لتلك الافتراضات ؟ بل انها لافتراضات صبيانية خارجة عن المعقول العادي . ولكن اي غرض للشيخ من عدم تسليم الطفلة؟ غرض.. يبدو هذاسخيفا كل السخف. فاذا كانت هذه الافتراضات تبدو ساذجة بالنسبة اليك فهل هي كذلك بالنسبة لشيخ في حدود السبعين أم انها تدل على طيبة وحب واخلاص ؟!

وقطع افكاره صوت المرأة السمينة . كان رفيعا حادا لا ينسجم وهذا الكيان البشري الضخم :

ـ انت يا عمي الشيخ .. مش سامع الطفلة عم تصرخ بابا ؟.. لشو بعدك متمسك فيها ؟!

قالت ذلك ثم نظرت الى الركاب نظرة مستترة ذات معنى لم يكن لها بالطبع ذلك التأثير الذي تريد ...

وقد ادرك الركاب العطف على الاب والابنة وكانت الدهشة تنطق في عيونهم ، غير انها دهشة موقتة لا غير . لقد كانوا الآن يراقبون الشيخ في صمت كئيب وكانت المرأة الهزيلة مستلقية في مقعدها ورجلاها ممدودتان في تصلب وقد ضغطت احداهما على الاخرى . وكان جفناها مطبقين نصف اطباق كمن يوشك ان يصاب بالاغماء .

وضحكت امرأة كانت تجلس في المقعد الخلفي ثم ضحكت ثانية في خبث ومالت على اذن رفيقها وهو فتى في حدود العشرين فدفعته عنها ثم استغرقا كلاهما في الضحك .

وكانما المرأة الهزيلة قد أفاقت فجأة وهمست في اذن زميلتها السمينة:

ـ الظاهر انو خرفان .. او مجنون ..

وأجابت هذه بحدة :

ـ مجنون وبس ؟!..

ثم نهض الشاب الذي كان يضحك وكان يبتسم الآن ابتسامة تدل على ثقة بالنفس اكثر من اللازم فقال بصورة مفاجئة :

ـ يا عم .. يا خواجه .. هو والد الطفلة .. انت مش سامع شو بتنادي الطفلة ؟!

قال ذلك ثم جلس وقد احمر وجهه . غير ان الشيخ ظل مصرا على صمته ولم يبد عليه اثر الاضطراب كمن لا يبالي بشيء .

كانت الطفلة تبكي وتضرب الشيخ بيديها الصغيرتين « بابا بابا » وتبكي بحرقة وتنظر الى ابيها بعينين متوسلتين تثيران العطف ثم بدا للشاب ان ليس ثمة جدوى من الجدل .. فقد كان الشيخ مصمما على الاحتفاظ بالطفلة مهما كلف الامر . ولكن على اية حال فما كان في ميسوره ان يواصل الوقوف كالتمثال والطفلة تبكي وتتعلق عيونها به ان خذني .. وسرعان ما تحرك التمثال .. تحركت في عينيه وقلبه مشاعر مؤثرة وطفا على محياه خيال ابتسامة حائرة :

ـ لا تبكي .. يا بابا .. الشيخ رجل طيب.. هو مثل جدك تمام .. آه .. سكتي .. ها انا قاعد صوبك ..

وجلس الشاب بجانب الشيخ وامسك باناملها الطرية وطبع على خدها قبلة صغيرة وأخذ يدغدغ وجهها في حنو .

ـ ايه .. ايه .. ليش انت تبكي.. انت شاطره ... هيك بيساو الشاطرين ؟!

فكفت عن البكاء وانظل وجهها الصغير عابسا عبوسا جميلا ..بينما صدرها يعلو ويهبط . ورغم ذلك فقد ظل الشيخ يمسك بها في حذر وينظر الى الشاب في ارتياب وتمهل .. ومر بائع حلوى فناداه الشاب واشترى للصغيرة قطعة من البندق ثم التفت الى الشيخ مبتسما .. قال موجها اليه الكلام : « الاطفال ملائكة صغار » ولكنه فشل معه في الدخول معه في حديث بسيط ، او في الحصول على كلمة واحدة او نظرة تعيد الى نفسه السكينة والصفاء . فلقد كان يقلقه شعور غامض .. وبعد قليل عادت الام فوجدت الطفلة على ركبتي الشيخ تلوك بلسانها قطعة البندق والاب الى جانبها يلاعبها ويدغدغ خديها ففرشت الدهشة على وجهها والتمعت عيناها بمعنى هو مزيج من المجد والعطف .ولما رآها الشيخ حرك رأسه باضطراب وكأنما ينتزع نفسه من اعماق حلم .. وعاليا رفع الصغيرة بين يديه فاخذتها الام الى صدرها وهي تتمتم شاكرة .

فعل هذا من غير ان ينبس ببنت شفة او يبدو على وجهه شيء يثير الاهتمام. وحينما كانت الام تسأ زوجها عن سر عودته كان الشيخ قد انسل في هدوء وجلس في احد المقاعد الخلفية .. ولم يلحظ عليه احد .. انه يبكي ..

خضر نبوه

نموّ تجربةٍ قوميّة

بقلم مطاع صفدي

– تتمة المنشور على الصفحة ١٦ –

اخيرا من اجل المقياس ، من اجل هذا السؤال : ما معنى ما نعمل ، ما قيمة الانسان ، وكيف تكون الاصالة ؟

ولقد انتهت تلك التجربة بنضوب امكانية مثل هذا التساؤل المنشيء، وذلك بعد ان تراكم الزيف فوق الروح القومية المتحركة . وبهمود السؤال ، همدت التجربة .. وذاب الوجدان القومي في سديم جديد .. قرون متجانسة ، وعماء واحد لا يريم .

ويمكن ان نلاحظ كيف ان التجربة القومية ، ككل معاناة انسانية حقيقية ، انما هي تجربة زمانية خالصة . والزمان بالنسبة لها ليس مجرد اطار للوجود العيني . ولكنه هو دفعة التيار وهو التيار ذاته . ولذلك كما ان التجربة القومية الاولى عاشت ضمن زمان معين ، له ظروفه وآناته ومفاهيمه ومفاصلة ، وانتهت امكانياتها الى سديم عصور الانحطاط ، كذلك فان التجربة الجديدة ولدت مع العصر الحديث ، وهي ما زالت معاصرة لها تجعلها تولد بقوى اخرى ، وتأخذ ملامح الحادث الطاريء ، حتى تهضمه وتجعله جزءا من كيانها .

واذا حللنا بنية التجربة المعاصرة ، بدا لنا ، قبل كل شيء ، ان صورتها الخارجية ، وهي مجموعة الاشارات الواضحة المباشرة ، انما تنقذف تلقاء الملاحظة العادية من خلال الاحداث ، المصطلح تسميتها ، بالاحداث السياسية الكبرى .

وتأتي وراء هذه الاحداث ، في درجة أقل من الوضوح والتشخص ، الانقلابات الاجتماعية الداخلية . غير أنه لا يمكن الانضمام للاحداث السياسية ، ولا للانقلابات الاجتماعية ، ان يفهم معناها ، وأن تقيم أسبابها ونتائجها ، الا اذا وضعت في مكانها من التجربة القومية ، واخذت موضعها الجزئي من شمول هذه التجربة . وفيما عدا ذلك فان مثل هذه الاحداث ، مهما كان وضوحها ومباشرتها وتأججها في الحياة العربية، ليس فقط لا يمكن فهمها وتقدير دورها بحسب قانون الانبعاث العربي ، ولكن يتعدى خطر عدم ادراجها من الشمول في التجربة القومية ، الى بعثرة التكون القومي ، والى اضاعة الوعي المترتب عليه . وهو هذا الوعي الذي رأينا كم هو خالق كذلك لجوهر التجربة القومية ، وليس مجرد عامل اثارة خارجية لها .

ان حادثة سياسية كبرى ، كحرب السويس ، وحادثة اجتماعية كالسفور ، وحادثة فكرية او فنية كصدور كتاب او اذاعة لحن ، كديوان شعر للفيتوري مثلا ، وكالظاهرة الرحبانية في الموسيقى ، كالمعرض الدولي بدمشق ، كالمعاهدة الاقتصادية مع السوفييت الخ...

كل هذا اذا لم ينتظمه وعي شامل تؤهله اصالة معاناة للتجربة القومية الجذرية ، سواء من قبل الجيل الفاتح ، او من قبل القادة السياسيين ، او من قبل الصف الفكري والفني من الامة ، فانما يؤدي الى انفصال الحادث عن وريده ، الى قطع التجربة عن وجدانها ، الى تهجين الحادث وعزله في الفراغ ، وبالتالي يؤدي الى ضياع وبعثرة الايجابية المكتسبة من هذه الحوادث في ايجاد القياس بشكل أوضح واخصب بالنسبة لابراز جوهر القضية القومية ورفعها الى مستوى العقيدة الخالقة لنظام النضال ولرسالة الامة العصرية .

ولكي نستطيع حقا ان نضع هذه الحوادث في فراغاتها الطبيعية من التجربة القومية ، ونفسح لها كامل الاعطاء والاخصاب ، للمساهمة في انشاء البنية الروحية للمرحلة التاريخية الراهنة ، ينبغي ان نعود الى استبطان ينبوع التجربة ، الى التعمق في شروطها الوجودية ، وخاصة لدى الفرد الاشكالي من الجيل الفاتح .

تتفتح التجربة القومية تحت ضربات التحدي التي تتلقاها من الخارج. وفي البدء تكون هذه الضربات مصوبة للقضاء على مجرد الوجود العضوي الفيزيائي الذي لا تملك التجربة سواه بعد . ولقد استطاع العرب ان يحتفظوا بمجرد وجودهم العضوي تلقاء التتار والترك . ولما كان تحدي هؤلاء الفاتحين لا ينصب الا على مثل هذا المستوى من الوجود الاولي ، اذ لا يملك هو ذاته ألا مثل هذا الوجود العضوي ولكن بنسبة اكثر من القوة الوحشية البكر التي افتقدها شعب هرم بالحضارة السلبية – حضارة من اجل الوهم الميتافيزيقي ، من أجل لاهوت ضد ناسوت – فان نوع المقاومة بقيت لدى العرب من نوع المداهمة . حتى استغرق المداهم والمدافع في سكون واحد يقوم على اجترار العزاء بالعالم الآخر ، ومباشرة غرائز البقاء بشكلها البدائي ، ولكنه التعب الخالف .

وعندما تغير المتحدي وتبعه تغير بنوعية التحدي ومستواها ، عن طريق الاستعمار الغربي ، أخذ التفتح الحقيقي لامكانية التجربة القومية في الوجود ، تعمق أصوله تدريجيا . ولقد حمل الغربي الى العربي ، قسرا عنه ، مع أداة الاهلاك والاستنفاذ المادي ، بذرة الشعور بالذات وبالآخر . هذا الغربي المسلح بحضارة ، كان يمكن ان تؤدي اليها بذور الثقافة العربية الاسلامية ، ولكن على شكل آخر ، لو لم تملك هذه الثقافة اداة نفيها وقتلها في طياتها ذاتها .

ومن احتكاك الاجيال العربية بالمستعمر الغربي ، بنتف من ثقافته ، وملامح من سلوكه النظامي المتمدين ، راحت تتجمع تدريجيا عوامل جديدة من التحدي تلقاء الوعي العربي السادر .

وانتهت التجربة الى جيلنا وهي في أعنف تأزمها ، وفي أقسى اعلانها من امكانياتها الايجابية والسلبية معا .

ان الجيل يعاني هذه التجربة من خلال توتر متعارض ، يشتد كلما تكالب الالحاح عليه من تتابع الاحداث الخارجية وتطورها في القوة واهمية الاثر . غير ان كل محاولة لاثارة عناصر هذه التجربة ، للتعرف على اشعاعاتها ورصيدها من الاصالة والتأثير ، لا يمكن ان تبلغ غايتها الا اذا كان حامل التجربة رجل نضال في سياقها الواقعي ، ومن أجل أهدافها المتكشفة بالتدريج . والنضال لا يعني في النهاية سوى الانضمام الى الجيل الفاتح ، بعمله وهمه وبطولته . لا يعني سوى الاخلاص لضرورات واقع المرحلة التاريخية للامة .

وان فهم هذه الضرورات ، والتحسس بأخلاقيتها ، هو كذلك من حصيلة التجربة القومية نفسها والتحامها بالفرد . حتى ان التجربة القومية ، رغم انها تجربة عامة في مستوى الوجدان الشعبي ، الا أنها ابدا تجربة شخصية . بمعنى انها لا يمكن ان تتضح معالمها الا من خلال معالم شخص معين . ولذلك كانت التجربة القومية تضمن نمو فردية سوية سليمة تلتقي بغيرها من الفرديات في واقع الانماء العام لمعطيات هذه التجربة وتأثيرها على وجود الامة المتفتح .

قلنا ان ما يكفل وجود التجربة هو الشعور بالتوتر والتأزم ، وضرورة التجاوز المستمر نحو توازن آخر لا يلبث هو ذاته ان يبهت ويفقر تلقاء ارادة المثل الاعلى الذي يقود فعالية هذه التجربة الداخلية نحو تجاوز ذاتها . ولكن الفرد المعاني ، الساعي الى تحقيق بطله المأمول ، هو في كفاح آخر متواصل في سبيل بعض لحظات نيرة يحس فيها بنقاء تجربته ، كان المناضل رجل اتهام دائم قاس لذاته ولغيره من زملائه . وكأن عملية التوازن الوجداني في أعماق التجربة غاية متعارضة في حد ذاتها . ان هذا التوازن يعني اعطاء قيمة . والقيمة دائما من مستوى اطلاقي . وهنا لا بد للفرد من ان يكون مطلق تجربته او لا يكون شيئا ابدا . وفي الواقع فان الفرد المناضل هو هذا التمزق المستمر بين مطلقه ونسبيته. بين ارادة المثل الاعلى التي لا تكف عن اتهام صاحبها بالتقصير والمغالطة والخطأ حتى الجريمة . هذه الارادة التي تستمد قوتها من افق المطلق الذي تنتشر عليه اشعة التجربة في نفس صاحبها ، بين هذه الارادة وبين تفاصيل الحياة الفردية الجزئية ، وما يكتنفها من تلوجات المشاعر النفسية الخاصة ، واحاسيس الضجر والسأم تارة والكسل والتلذذ بالبطالة تارة ثانية ، والاندفاع المهووس والهياج المفاجىء تارة اخرى .

وفي الواقع ان ارادة المثل الاعلى هذه ، ما هي الا ارادة التكوين . وكانت في أصلها عبارة عن نزوع مضطرب قلق غامض يفور كالزبد فوق همود شبه ازلي . وهو همود أسميه بالسديم السابق على التكوين . انه عدم الوجود في الفرد . انه مادة خام لم تتشكل بعد . وهي ارث الازل المتجانس الضالع في رتابة الانحطاط . ولقد لعبت مداهمة النماذج الغربية للسدور العربي دور الانذار والدعوة معا . انذار بالقضاء حتى على القاعدة الفيزيائية من وجودنا . ودعوة للبعث ، للارتفاع الى مستوى انساني منظم ضمن مجتمع عصري منسجم . واما البعث ، فلا يقوم على تكرار الماضي ومخلوقاته . ولكنه نداء لانشاء حاضر عصري حي واقعي ، ولخلق تكوين انساني جديد . فالبعث كأنه خلق من عدم ... ولقد شكل فيما بعد هذه الفورة القلقة فوق سديم الازل . عندما اصاب به شيء من الوعي لضروراته وقدراته تحول الى نزوع . والنزوع تجسم اليوم في ارادة التكوين ، التكوين مرة اخرى .

وهكذا نستطيع ان نقول ان المقياس الذي تعتمد عليه تجربتنا القومية ليس هو مجرد قاعدة اخلاقية او مبدأ فلسفي ، او اصلاح اجتماعي . انه مقياس درجة الوجود الذي علينا ان نحققه بالنسبة الى درجة العدم التي وصلنا اليها . انه مقياس ان نوجد او الا نوجد . وكما نرى فانه لشدة شموله نخشى عليه من التجريد والفقر بالمضمون الحي ومن الالتباس . فاذا قلنا اننا يجب ان نوجد ، فكيف نوجد وما هو نوع الوجود الذي نصبو اليه .

بيد ان هذا المقياس ليس فكرة متعالية كما رأينا ، وليس مبدأ صوريا . انه مقياس يعبر عن ازمة التجربة ، عن شدة أصالتها . ومشروعية هذا المقياس انما تتأتى عن كونه مثار تساؤل حي جلدي . والتساؤل لا يصح ، ولا يمكن ان يأخذ ثقله الوجودي ، الا اذا تخلل سياق التجربة ذاتها بين مفصل وآخر من مفاصل نموها وتعمقها ، اننا نسأل كيف نوجد ، ما هو الطريق ، ما هي الغاية . نسأل ونحن نرزح تحت عبء نزوعنا لان نكون كلنا نية لان نوجد . نحمل ثقل امكانياتنا دون ان نقدر لها قيمة بالنسبة لقوة ارادة المثل الاعلى ، التي هي املنا .. وعذابنا معا ..

ومن جهة اخرى ، فان لهذا المقياس القلق الغامض مضمونا آخر . انه وان لم ينفصل بعد عن مغالية التجربة القومية كما ينفصل المبدأ الاخلاقي عن الفعل الجزئي ليقيمه ، وذلك لانه مقياس وجودي وليس اخلاقيا فحسب ، فانه وهو في صميم تجربة الفرد يشكل اعظم انفتاح . بل ان

صدر حديثا : عن منشورات مجلة شعر

نهر الرماد

خليل جاوي

قصيدة في ثلاثة عشر نشيدا

الثمن ليرتان — **تباع في جميع المكتبات**

مشروعية التجربة القومية عند الفرد او الجيل تتخذ جدراتها الاولى بقدر انفتاحها ، دون ان تفترق عن مركز هذا الانفتاح ، عن ازمة الصميم لدى الفرد أو الجيل .

فالتجربة القومية هي انفتاح اذن . وها نحن تلقاء تعريف خصب تؤهلنا له التحليلات السابقة .

ويحق بالتالي ان نسأل : انفتاح على اي شيء ؟

ان التجربة القومية انفتاح مثلث : ١ - نحو معطيات الماضي . ٢ - انفتاح نحو معطيات العالم المعاصر . ٣ - انفتاح يساير امتداد ارادة الحرية والمثل الاعلى في القلق العربي من اجل وجود عربي مشروع.

وقبل ان نخوض في تحديد الخطوط الرئيسية لهذه القطاعات ، يجدر بنا ان نتساءل قليلا عن معنى الانفتاح . ونجيب بالقدر الذي يسمح لنا فيه نمو البحث الآن : نقول ان فلانا من الناس منفتح نحو صديقه ، او منفتح نحو فكرة أو كتاب مثلا . فهذا الانفتاح يتضمن في الظاهر حركتين ، بينما هما في واقع الامر حركة واحدة . الاولى هي حركة خروج من الذات موقت. والثانية هي حركة قلق منفعلة من موضوع الانفتاح (فالانفتاح نحو) يعني في الحقيقة استعداد الذات للتفاعل على أوسع نطاق . وهي في الواقع حركة تلق اكثر منها حركة اعطاء . ولكن هذا التلقي ليس منفعلا بل هو فاعل . اذ من حيث انك آخذ انت معط . وفي بنية (الانفتاح نحو) خاصة يكون الاعطاء للذات ، في سبيل توسيع القدرة على الشمول والنمو ضمن انفساح هذا الشمول .

ان بنية (الانفتاح نحو) تقوم اخيرا على تأكيد الوحدة العضوية بين الذات والعالم .

ولنعد الآن الى تحديد الخطوط الرئيسية في قطاعات تجربة الانفتاح هذه .

١ - الانفتاح نحو معطيات الماضي : قلنا ان تجربة الماضي من حيث انها معاناة حاضرة قد انقطعت عن الوجود ، منذ ان تلاشت ارادة الحرية البناءة ، وانقرضت مفاهيم الاصالة ، وضاع الفرد والجيل المتحرك في مراوحة الحضارة المحتضرة . غير ان محصول هذه التجربة الانساني بقي كامنا دائما ، مستعدا للظهور تلقاء دعوة اصالة جديدة تنبثق عن تجربة قومية اخرى . وهذا المحصول في كونه ارتفع الى مرتبة الابدية ، رغم ان التجربة القومية التي أوجدته قد انقضى حاضرها . اذ تبين لنا ان كل تجربة من هذا المستوى انما هي حاضر زماني ، وبموت التجربة يتلاشى زمانها ، او ما نستطيع ان ندعوه معاصرتها . والذي يتبقى منها القيم الوجودية التي حققتها الحرية ، وهي تراث انساني لجميع التجارب البشرية البناءة . وهي بالاحرى كذلك تراث لحرية سليلة من اصولها .

وكيما نستطيع ان نتبين حصيلة القيم الوجودية لحرية التجربة الماضية ينبغي لنا شرطان ، اولهما نفسي ذاتي ، والثاني علمي موضوعي. اما الشرط الاول فهو ما تحتمه علينا اخلاقية الانفتاح ، تجاه مجال عظيم من تاريخ الانسانية حفل بمختلف الابداعات ، ألتي علينا ان نستجيب لروحية الخلق التي تطل من خلالها ، ونحترم الاهداف الانتاجية الخيرة التي نزعت اليها . وحفل كذلك بمختلف الارتدادات والسقطات الانسانية التي علينا ان نضعها في مكانها الطبيعي من تجربة عميقة شاملة ونتفهم وظيفتها منها . والشرط الثاني ينبثق عن ضرورة اعادة النظر في التاريخ العربي ، واستشفاف فلسفة احداثه وتطوراته ومآزقه وانتاجاته المختلفة ، بحسب روحية التجربة الماضية . هذه الروحية التي كان لها قانونها ! فكانت مظاهر الحضارة كلها خاضعة لهذا القانون . ان الكشف عن معنى العربي عبر تاريخه مهمة من اعمق واخطر ما يتحتم على مفكر مسؤول ان يأخذه على عاتقه ، دفعا لكل التخرصات والتفاسير ذات النية السيئة او السطحية والمدسوسة منها . وهي ألتي جعلت التاريخ العربي يبدو مبعثر الحوادث ، متناقض المعاني ، تافه الدلالة .

ولعل المنطق الوجودي الذي يكشف لنا عن حقيقة تاريخنا انما نستمده من مقياس يقوم على تفسير التاريخ العربي من حيث طغيان التهجين او التأصل على أحداثه وعلى معانيه الانسانية .

ونحن نكتفي الآن بالتأكيد مقدما ان الاقبال على فهم تاريخنا بصرف النظر عن كل الاحكام السابقة والمفاهيم المكدسة ، الباطلة والمزيفة اكثرها لتحيزها او لسطحيتها او لعاميتها ، سيكشف لنا نموذجا من التجربة القومية العربية يمكن ان يمدنا بكثير من الثقة بأصالة شعبنا ، مما يبلور في نفوسنا املا واقعيا بقدرتنا على معاودة التجربة ، شرط ان نعي ظروفها الخاصة مع اعتبار اخطاء الماضي .

٢ - وشرط تجربتنا القومية الجديدة قدرتها كذلك على الانفتاح نحو معطيات العالم العصري . فالعرب يعيشون اليوم في عصر معين تداهمهم فيه شتى المؤثرات من علمية وسياسية وفنية . فلا يمكن لاية

تجربة اصيلة ، يراد منها خلق امة متكاملة لها مكانها من انسانية عصرية معينة ، ان تغفل من حسابها الظروف العالمية وشتى المضامين الحضارية التي تنطوي عليها ، اننا مدعوون لان نفهم انسان الغرب ، اكثر البشرية تمثيلا لنموذج الحياة الحاضرة . وان نتابع تطوره الروحي منذ اصوله ، من خلال ما أبدع من فن وعلم وحضارة ، لنحدد الدور التاريخي الذي يلعبه اليوم بالنسبة لحضارته وبالنسبة لمطلق الانسانية، ومنها الامة العربية . وهذا يتطلب منا كذلك وعيا صبورا وحدسا ثقافيا عميقا متفاعلا مع جوهر الحضارة الغربية . ولا يمكننا ان نقف عند حد فهم هذه الحضارة كما هي لذاتها . بيد أننا مضطرون الى الحكم على حصيلتها الانسانية وعلاقتها الحاضرة مع امكانية البعث العربي . تلك العلاقة المفروضة علينا فرضا من خلال الاستعمار والنضال من اجل ازالته .. مع الانتباه الى اننا لن نفهم الغرب لغاية القضاء عليه او للدفاع عن انبعاثنا باسلحة عدونا نفسها . اننا نفهمه ونستبطن اعماق تجربته لهدفين اخرين . اولهما هو اننا بحاجة الى نموذج حضاري جاهز تلقاء وعينا . وثانيهما هو اننا بحاجة كذلك الى الكشف عن بذور تجربتنا الجديدة تلقاء تحدي العالم الغربي لنا .

٣ ـ والشرط الثالث لانفتاح تجربتنا هو قدرة هذه التجربة على مسايرة ارادة الحرية والمثل الاعلى في القلق العربي من اجل وجود عربي مشروع . وهو شرط يختلف عن الشرطين السابقين في انه يصدر مباشرة عن صميم هذه التجربة . انه يؤلف بؤرتها الوجودية . وهو ذاته ما يجعل الشرطين السابقين ممكنين بالقدر الذي يتاصل هو في صميم التجربة القومية .

ان البحث في هذا الشرط سيكشف لنا عن البنى الداخلية لتجربتنا القومية بما فيها من مشكلات في الوجود والقيمة الاخلاقية والعمل الاجتماعي . هذه المشكلات التي تتوتر كلها ضمن شعور حاسم بالتعارض بالتهام الذات والنزوع نحو أمثل وجود .. اعلى قيمة ، شعور بعقدة الذل وثقل البطولة معا ، شعور بالجريمة والثأر معا . يرافق كل هذا تلمس شاق مضن للمقياس ، مقياس الحقيقة في مدى كل تقدم وكل شعور من الاصالة والواقعية .

***

ان التجربة القومية هي انسانية خصبة في مدى قوتها على الانفتاح وهي واحدة في كل موضوعات استلهامها وتغذيتها . وهي بقدر ما تستطيع الشمول فانما تبني شخصيتها وتبرهن على خصوصيتها . وكما انه لا بد لنتج البذرة من تربة ، كذلك فالتجربة القومية تربتها الانسانية، ومدى حساسيتها بضرورة لحياتها ومعرفتها للمواد البنائية التي تحتاجها من اعماقها . واما نبات هذه البذرة فهو من البذرة وحدها ، وان كان للموسم كله في ربيع كل .

دمشق **مطاع صفدي**



مهمة الكاتب في المجتمع ...

بقلم ممدوح مولود

اود ان اسال الاستاذ عبدالله القصيمي عما حدا به الى كتابة هذا المقال ! أهي الرغبة في تجديد التفكير الادبي ، واثارة موضوع يجد انه يستحق المناقشة والدرس والتحليل ؟ ام هي الرغبة في ابطال معتقدات، ونقد مفاهيم اصبحت بالية ، عقيمة ؟!..

اما جواب السؤال الاول فهو ان الموضوع لاول نظرة يدعو الى التفاؤل، ويغري بالمطالعة ... اما جواب السؤال الثاني فهو محاولة تشويه معتقدات واساءة الى مفاهيم . يتساءل .. هل يمكن ان تتغير حياة الناس من غير كتاب ؟ ويجيب : نعم . اما انا فاقول : لا . واعني بذلك ان الناس لا غنى لهم عن الكتاب، ولا حضارة لهم بدون الكتاب .

ونظرة عجلى الى ثورة الولايات الامريكية قبل اتحادها كافية لاقناعنا بحاجة الناس الى الفكر والكتاب . فان تلك الثورة لم تشب دون تفكير، ولم تندلع من غير فكر، والا فهل كانت تتحقق اهدافها ؟ وجواب ذلك ان الفكر كان حتى في تلك الازمنة البعيدة قائدا للناس وزعيما على الآخرين ومعنى هذا ان الفكر هو القانون الاول للناس ، والشمس التي تنير طريق المجتمع . واما الرد الذي يوجه الى القول بان الكتب المقدسة لم يمكنها تحويل تعاليمها الى سلوك للذين يؤمنون بها فذلك عائد الى ضعف الجماعات التي نزلت فيها تلك الكتب ، وطيشها وضلالها .. ام اننا ننكر الاضطهادات التي لاقاها الرسول العربي في سبيل نشر الدعوة الى الدين الاسلامي .. ونغفل عن تذكر المدة الزمنية التي كافح ، وجاهد، وصبر، وتجلد ، لتغيير عقائد الكفار ، واثارة اذهان المتعصبين للاصنام ؟

ام ان الانبياء واصحاب الرسالات الانسانية ليسوا غير رمال لا مكان لها الا تحت الغربال ؟

ان المقال رغما من اثارته موضوعا يستحق المناقشة ، الا ان اسلوب معالجته ـ ولو اغضبت الاستاذ عبدالله ـ استسلامي، فيه تخاذل ، وفيه اقرار بالعجز ، وفيه اعتراف بعدم اهمية الادب في الحياة ، وفيه انحياز الى جانب الادب الانهزامي ، واعظم خطأ انزلق فيه الاستاذ هو الاقرار بعجز الادب عن معالجة امور الحياة ، والسمو بتفكير الناس ، ورفع شأن المجتمع ، والاصرار على اعتبار الادب ذا دور ثانوي في حياة المجتمع . ويتساءل .. كم من المفكرين والمصلحين اعطو افكارا وفلسفات ومذاهب ثم مروا في الطريق العام من غير ان تسير وراءهم الجموع او يحدثوا اية صدوع في بناء مجتمعهم ؟ .. وهذا غير صحيح بدليل ان سعد زغلول ومصطفى كامل واحمد عرابي .. كانوا ولا يزالون في صدر كل مواطن يعتد بوطنيته ، وفي ذاكرة كل انسان يحرص على انسانيته .. وما هم باموات انما هم احياء في صدورنا وفي قلوبنا ما دامت فيها نخوة ، وما دام فيها اباء ، لكن مالي اتسرع فارد على ما يثير دون ان اتأكد من الفترة التي كتب فيها هذا المقال ؟!..

ان مما لا يقبل الشك ، الجزم بان هذا المقال قد كتب في لحظة غير واعية ، فتخيل الكاتب بان في وسعه أن يكتب ما يشاء سواء احسن ام اساء ، يشهد على ذلك الاصرار المتلاحق المنبث في ارجاء المقال بصورة ظاهرة واضحة للعيان .

لكن هل من الحق ان نكتب دون ان نعي ما نكتب ؟ واذا كتبنا دون ان نكون واعين ، يقظين عادلين ، فاي ادب هذا الذي نكتبه ؟ واذا كان المجتمع لا يتغير بكتابة كاتب ، او بتفكير مفكر فلماذا نجهد انفسنا في كتابة مواضيع لا تريد ان تنزل الى مستوى تفكير اقل عدد ممكن من الناس لنضمن لانفسنا حسن الثواب ؟

واريد ان يطمئن الاستاذ عبد الله بان المجتمع بخير ما دام الكتاب والمفكرون بخير ، وهو في شر اذا هدد كتابه ، وارهب مفكروه ، وليس كما شاء ان يثبت ، فجاءت المحاولة مفتقرة الى الاثباتات الدامغة والبراهين المقنعة ، ام يطلب منا الاقتناع بلا شاهد وبلا اثبات ؟!

ولو شئنا الاقتناع بما يراد فهل يتصور اننا مقتنعون بان الناس اقوى من الادب ؟ ابدا ... فمتى كان الناس يفرضون اراداتهم على الادب ؟ ان الادب الصحيح ليس ذلك الذي يحب الاستاذ ان يعرفنا عليه ، فالادب الذي ندعو اليه ، هو ادب حياة لا ادب موت ، هو ادب سمو لا ادب انحطاط ، هو ادب عامل لا ادب هادم ، هو ادب مصلح لا ادب لاه ، وليس كما يحلو له ان يسميه ، محاولا ان ينال منه ، ويحط من شأنه.

ان المقال ولفه ودورانه في صفحاته الاربع لا يعطينا نتيجة تدعو الى التفاؤل وتبعث على الرضى ، وكأن القارىء المتعطش مدعو الى التشاؤم والسخط والتراجع عن اعتقاداته في الادب والفن واعتبارها امورا جوفاء لا تقود الحس والشعور في نفس الجماهير بل يقودها الجمهور بنفسه الى ما يشاء من تسلية ولهو وتهريج ..

وهذا تناقض ما بعده تناقض . نحن ندعو الى السمو بالناس عن طريق الادب والفن بينما يدعو غيرنا الى السمو بالناس عن طريق الناس انفسهم ، كأنما كان عامة الناس في يوم من الايام ذوي كفاءات او مواهب تغنيهم عن آيات الادب والفن التي يتحفهم بها اصحاب الكفاءات والمواهب؟!

ويقول : الكاتب يكتب بعض احاسيس الجماعة وارادتها فيرضى عن نفسه ويذهب به الظن انه خالق عظيم والحقيقة انه مخلوق .

حسنا ليأت لي الكاتب بواحد من الغوغاء وليطلب منه خلق قطعة ادبية صغيرة ؟

اما النقاط الحساسة في الموضوع فاكثر من ان تحصى ، او يحيط بها نقد في مقال واحد. لكن ما يستحق من بينها درجة الافضلية هو هذه الفقرة التي تطالعك ملتمسة منك العذر لقبولها والرضى بها لا كعادة ما سبق من الفقرات التي تفرض نفسها دون ملاطفة او مداراة ، بل باسلوب لين ، ديبلوماسي اقرب الى الاستهواء .. اذ يقول : وهم لا يريدون ان يجدوا موضوعات دائمة يغارون عليها ويكتبون فيها .. ان احتياج الكاتب الى وجود الفساد والخطا كاحتياج الطبيب الى وجود المرضى !..

اذن فهم يريدون ان يتسلوا وان يثرثروا بما يكتبون لارضاء نفوسهم الفارغة واضحاك الجماهير ؟..وهم اذن لا يكتبون بدافع وطني ، او قومي ، او انساني ؟ هذا راي غريب من كاتب يقيم في بيئة ادبية حافلة بالمفكرين الافذاذ ، وفي عصر يؤمن بقوة كل فكرة ، ويسعى الى جعل الادب ركنا اساسيا من اركان النهضة المدنية ، ومبشرا بالحب وبالاخاء وبالسلام .

واخيرا يلذ لي ان اخطىء ما جاء في نهاية الفقرة السابقة فالطبيب لا يمتهن مهنة الطب ليستغل من ورائها المرضى .

الاديب يعيش ليدعو الى حياة ليست بين ايادي الناس وليظهر مساوئهم وحسناتهم ليصلحوا انفسهم ويكونوا على استعداد لمسايرة التقدم العالمي حسيا وشعوريا وفكريا واخلاقيا ، فهو بمثابة ناقد للمجتمع وثائر على التقاليد ، والا فلماذا يسعى الى ذلك اذا لم يكن راغبا في تغيير المجتمع ؟!..

اما اذا كانت الحياة الاجتماعية غير قادرة على رعاية الادب ، وكان الحكم السياسي غالبا ، وكانت الصحف منهمكة على اوسع نطاق باحداث السياسة ، وبتطور العلاقات الدولية ، فان هذا الوضع سيحول دون شك ما بين الاديب وبين الغاية المرجوة من ادبه .

وشتان ما بين مجتمع لا يعنى بالادب ، وبين ادب يعنى بالمجتمع !! وهفا الادب عن طه حسين ، انه يقصر هذه الايام في واجب النقد .

ممدوح مولود حلب

حول (الكاتب لا يغير المجتمع)

بقلم : كاظم حطيط

(الكاتب لا يغير المجتمع) ذلك هو عنوان مقالة الاستاذ عبدالله القصيمي في العدد الماضي من مجلة الآداب الغراء . وانه لقول غريب لا يقرن الواقع ولا يستند الى ادلة ثابتة : ويلجأ حضرة الكاتب الى تجريد كتاب تحرير المرأة لقاسم امين من كل اثر في تقدم المرأة المصرية خاصة والعربية عامة . وان زعيمات النهضة النسائية العربية تضرب بهذه التهمة العجيبة عرض الحائط وذلك باعترافهن بفضل قاسم امين الكبير على نهضتهن وتعلقهن الشديد باقواله واتخاذهن له الرائد الاول في الشرق لتحرير المرأة العربية من التأخر والعبودية . ويقول كاتبنا ان الكتاب يخلقهم المجتمع كالتجار والعمال وسائر اصحاب الحرف. ونحن مع اعترافنا باهمية التجار والعمال وغيرهم من المواطنين لا نستطيع ان نحشرهم مع الكتاب في صف واحد من حيث التوجيه والقيادة . وليس بالامكان ان نتنكر لحقائق التاريخ . فان كثيرين من الكتاب استطاعوا ان يؤثروا تأثيرا كبيرا خالدا في تغيير مجتمعاتهم كمكسيم غوركي وتولستوي ودستوفسكي وبوشكين وتشيخوف في روسيا وكفولتير وروسو وديدرو في فرنسا وكماتزيني في ايطاليا ونيتشيه في المانيا وماوتسي تنغ فين الصين ، وككتاب النهضة العربية الحديثة في الوطن العربي . ويشتد حضرة الكاتب في حملته على الكتاب فيجردهم من كل امتياز عن مجتمعاتهم فاذا هم في رأيه متاخرون اذا ما كان مجتمعهم متاخرا وتقدميون اذا ما كان مجتمعهم متقدما وكانهم نسخة طبق الاصل عن مجتمعاتهم . ولكن الحقيقة هي غير ما ذهب اليه الاستاذ القصيمي . فكثيرون من الكتاب اختلفوا عن مجتمعاتهم اختلافا كبيرا فبينما كانت مجتمعاتهم تهيم في دروب الجهل والانحطاط كانوا هم على جانب كبير من الثقافة والوعي والنور ولم يجدوا بدا حيال ذلك من ان يتسلموا قيادة شعوبهم الى حياة ارقى وافضل . وليس من مثقف يجهل ما كان لولي الدين يكن والشيخ محمد عبده والكواكبي والريحاني ولمكسيم غوركي ودستوفسكي ولروسو وماتزيني وغيرهم من امتياز وتفوق على مجتمعاتهم . وما زال لكلمة ولي الدين قوة وصدق وذلك حينما قال «يريدون ان اكتب ما لا اريد واريد ان اكتب ما لا يريدون وان لم يقبلوا اليوم على قراءة كتبي فسيقبل على ذلك في غد اولادهم » وهل كان ولي الدين الا محاربا للجبروت والطغيان والتعصب والجمود ؟. وما كانت جملة حضرة الكاتب في مقالته المذكورة على الكتاب فحسب بل انها شملت الرسل والقادة وسائر المفكرين .. وذا هو يقول : « وكم من سقراط ومسيح هبت المجتمعات تريد قتلهم ان يستطيعوا تغييرها » . ولكن الا ينبغي للاستاذ القصيمي ان يعترف معي بان المسيح وسقراط وغيرهما من القادة العظام استطاعوا ان يغيروا مجتمعاتهم وان لم يحدث ذلك في حياتهم القصيرة فقد امتد تاثيرهم بعد وجودهم الارضي حتى استطاع ان يسيطر سيطرة تامة على مواطنيهم ؟ والا فما معنى هذا الانقلاب الذي حدث في فلسفة اليونان وفي دين الرومان ؟ ويقول ايضا : (ان الكتب المقدسة التي يؤمن بها الناس اقوى ايمان لا يمكن ان تتحول تعاليمها الى سلوك للذين يؤمنون بها ») واني لاعجب من تجاهل الكاتب لما كان عليه المسيحيون والمسلمون الاول من صدق في الايمان وفي السلوك والا فما معنى استشهادهم في سبيل عقائدهم المسيحية والاسلامية ؟ ثم يقول : حتى المعتقدات والمذاهب والفسلفات التي توجه الجماهير ليست من صنع الكتاب والمفكرين وغيرهم ونحن لا نستطيع ان ننكر وجود مسيحيين ويهود ومسلمين وشيوعيين ورأسماليين ووجوديين وغيرهم . وهل كان هؤلاء الناس اتباع رسالات سماوية فلسفية؟ ويهاجم الاستاذ القصيمي العقل فيجرده من كل تأثير في التوجيه والاقناع ولكنها حملة باطلة وان اراء غوستاف لوبون وبرغسون لا تكفي في هذا المجال فان التجارب اثبتت وتثبت دائما ان مؤمن العقل هو اكثر ثباتا في ميادين النضال من مؤمن العاطفة وان ايمان العاطفة لا يمكن ان يدوم مع الزمن اذ انه يتبدد اذا ما تبددت اسبابه الظهرية . وليعمل الكتاب العرب على ابعاد كل اسباب التأخر عن مجتمعهم مفوتين على المستعمرين والاذناب الفرص . وان المجتمع العربي ليتطلب منهم ان يؤمنوا اقوى ايمان برسالتهم الاجتماعية التقدمية دون ان يبالوا باية فكرة تدعوهم الى الاستهانة بمكانتهم العظيمة وبمقدرتهم الحكيمة على تبديل اوضاع مجتمعهم بافضل وارقى .

كاظم حطيط

النشاط الثقافي في الغرب

انكلترا

معرض عجيب ... لقردين فنانين !

لمراسل «الآداب» الخاص

قدم هذا المعهد معرضا لفنانين ناشئين ، ناشئين بكل ما للنشوء من معنى. كونكو من انكلترا وبتسي من اميركا . وعلى كل الاختلاف الظاهر في تكنيكهما والذي يتراوح من نوعية الاصباغ الى استعمال اصابع القدمين بدل الفرشاة ، فان هناك مشاعر واحدة تجمعهما ومدرسة فنية واحدة هي اقرب ما تكون الى التجريدية . او فلنقل هي تجريد التجريدية .

اما كونكو فقد رسم تصاويره على لوحات ذات ارضية ملونة ينثر عليها الوانا رئيسية فطرية معينة بكل اعتباط ، او ما يبدو لنا بالاعتباط والله اعلم . ويقوم جمالها على اساس رهيب غريب من الاشكال التي تأخذها هذه الالوان . على عكس ذلك نرى بتسي تصب كل وحيها في خلق استمرارية شكلية تأخذ نظاما من المنحنيات المتوازية التي تقاطعها ضربات الاصابع . هذه المتوازيات كثيرا ما اظهرت اشكالا في الزخرفة العربية ، بل هي الكتابة العربية بالذات عندما تشتبك فيها اللامات والالفات ويتعذر على ابنائها تحاشي الخطأ . والرسامة بتسي لا تستعمل الفرشاة وانما تستعمل يدها . وهي طريقة لا شك ان سيزان قد سبق اليها منذ نصف قرن .

وقد استهواني المعرض الى درجة عطشتني للتعرف بالرسامين ،ولكني اخبرت بانه كان المقرر حضورهما حفلة الافتتاح لولا اصابة بتسي بالزكام مما حال دون مجيئها من اميركا . « واين يمكنني ان اصادف كونكو في لندن؟» سألت السكرتير الذي اجابني : « في حديقة حيوانات لندن، مساء الاحد حيث يجلس لتناول الشاي خارج القفص » فاردفت حالا : « تناول الشاي ؟! قرد ويتناول الشاي ؟! » « ولكن ماذا يمنعه اذا كان يرسم خيرا منك ؟ » قال احد الحاضرين لي دون ان يدرك مدى صحة قوله .

وقد اشرف على هذا المعرض الفريد الاستاذ دسموند موريس الـذي كرس وقته للنشاط الفني لقردة الشمبانزي . وتاريخ دراسة هـذا النشاط لا يتجاوز سبعة اعوام عندما قامت جماعة من الباحثين الامريكيين والانكليز ، كل على حدة ، بمحاولة خلق رسامين من الشمبانزي ، ثـم دراسة الانتاج الحاصل علميا وفنيا . بهذه الطريقة سيمكن القاء ضوء جديد على اولى الفعاليات الفنية للانسان القديم . يقولون ان هـذه الصور اول انتاج يتصف بصورة حقة بصفة التجريدية . وهذا واضح لان كلا من رسم الطفل والانسان البدائي هما ابعد ما يكونان عن التجريد. والرسم الزخرفي كثيرا ما يستوحي نماذجه من نبات او حيوان . لهـذا المعرض اذن قيمتان ، قيمة فنية واخرى علمية . اما علميا فتتوقـف المشكلة على القرد . هل استطاع ان يعبر عن خلجاته كما يريـد ؟ طريقة كونكو كانت في وضع الالوان الرئيسية امامه . ثم يتقدم المرشـد فيسلم كونكو فرشاة مضمخة بلون معين ويترك الشمبانزي يرسم بها مـا يشاء حتى يعيدها الى المرشد كاشارة لانتهاء رغبته فيها فيعطى فرشـاة اخرى بلون اخر وهكذا تستمر العملية حتى يقفز القرد من مكانه نـاثـرا كل شيء في طريقه الى الارض وعندئذ نفهم ان الصورة اصبحت منتهية وجاهزة للعرض . وكذلك يقوم كونكو بتعلم التخطيط. وقد لوحظ انـه في الحالات التي ينكسر او يضمحل فيها قلم الرصاص يفقد كونكو رغبته بالقلم ويرمي به. اما بتسي فتستعمل اصابعها بدل الفرشاة فتظل تشكل خطوطا ودوائر على اللوحة الى ان تمل الرسم فيفهم منها كذلك انتهـاء الصورة . هذه نقطة لا حد لاهميتها . فيقال ان الرسام العبقري يتجلى في معرفته اللحظة التي يجب عليه التوقف فيها . وهي لحظة لم يصـل احد للاتفاق حولها ، ونحن في بغداد تعلمنا من الاستاذ فائق حسـن انكارها نهائيا . على كل فالجلي ان هذه الطريقة غير دقيقة علميا ما دام الشمبانزي يخضع لارادة المرشد الى حد كبير . ومن ناحية اخرى كيف سنحلل هذه الصور ؟ ان انتاج قرد يحتاج بدون ريب الى ناقد قـرد.. من يضمن لنا ان القردة تحترم نظام التوازن الكلاسيكي او التناظر الاسلامي ؟

اما فنيا فالنجاح مقصود مقدما . فكونكو قد باع ٢٠ لوحة من مجموع

مجموعة ديوان العرب

عزمنا على ان نصدر مجموعة باسم « ديوان العرب »تشتمل على كل ما وصل الينا من دواوين شعر العرب شارحين منها ما اقتضت الضرورة شرحه ، فتكون المرجع الوحيد الذي يرجع اليـه المؤلفون والادباء عند حاجتهم الى دراسة احد الشعراء او مطالعة شعره .وقد صدر منها حتى الآن :

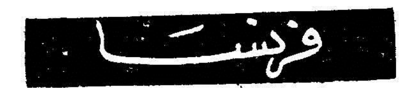
	الثمن
سقط الزند لابي العلاء المعري	٦٠٠
ديوان ابن الفارض	٥٠٠

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت

٢٤ وما زال المعرض مستمرا . اما بتسي فقد حققت ذلك الحلم الجميل الذي يراود اجفان كل رسام ناشيء : المعرض الخاص . ولكننا نرفع حواجبنا ترفعا على هذا النجاح التجاري فنحاسب الشمبانزي حسابنا الفني العسير . ماذا اضاف كونكو الى « التراث الانساني ! »؟ الجواب ينحصر في اكبر مقلب وقع فيه انسان في العصر الحديث . كان الرسام التجريدي ترنبل يعرض تصاويره في قاعة المعهد الرئيسية . وكأي زائر دخلت هذه القاعة رأسا وبدأت بتدوين ملاحظاتي لقراء «الآداب» المساكين وبعد ساعة من الدراسة المضنية سالت السكرتير اي الصور كانت لكونكو وايها لبتسي ؟ وهنا قفز الرجل والحنق والعار يمزقان وجهه : « سيدي! هذه تصاوير المستر ترنبل ، معرض القرود هناك في المكتبة . » القصة حقيقية واتحدى كافة الرعايا العرب عدم الوقوع فيها .

ولكننا يجب الا نتسرع . فعمر هذه المحاولة سبع سنين فقط . انـنا سنحتاج اجيالا من الشمبانزي لكي نبني فيهم حرفة الرسم ونجمع من انتاجهم ما يكفي للتحليل العلمي والفني . فنحن البشر استنزفنا ٢٥٠,٠٠٠ سنة من التاريخ والتطور الفني لكي نصل هذه المرحلة التي نجد انفسنا فيها فجاة على مستوى واحد مع القرود تماما . ان محاولة جمعية علم الحيوان في لندن وحديقة حيوانات بلتمور في اميركا في بذل هـذه الجهود محاولة مشكورة . وبالرغم من كل ما قد ترسمه على شفاهنا من ابتسامة فان الزمن وحده سيكشف عن مدى اهميتها . وحتى الآن لم يتعرض احد لدراسة هذه الرسوم دراسة علمية ونفسيـة منظمة ما عدا مجلة علم النفس الفسيولوجي المقارن (جزء ٤٤ ، ١٩٥١) ولكن الاستاذ موريس يؤكد لنا ان في هذه التصاوير « اشكالا هي بوضوح ابعد ما تكون عن الاعتباطية ، فهي قائمة على قواعد واسس جمالية معينة في ذهن الشمبانزي » . قد لا يعجب هذا الكلام كثيرا من العقول المحافظة ، ولكن بتسي ماضية في طريقها من بلتمور ، « حيث قامت مدرسة من الشمبانزي الشبان تتبع تقاليدها الفنية في الرسم بالاصابع . » كما جاء في تاريخ حياتها .

لندن **خالد القشطيني**



صوت حر آخر ...

كتب الصحفي الفرنسي الكبير روجه كابغرا رئيس تحرير مجـلة (ديمانش ماتان) الاسبوعية مقالا افتتاحيا هاما في مجلته ننقل فيما يلي ترجمته الى العربية : ـ

يحمل التاريخ بين طياته لحظات خطيرة تفرض اتخاذ قرارات على جانب من الاهمية ويستدعى اتخاذها الكثير من الشجاعة والذكاء .

وليس هذا العناد الذي يتسم به فيلكس جايار ـ وزير المالية الفرنسي الحالي ـ في الواقع سوى امتداد وتأكيد للنية الاجرامية لحكومة جي موليه التي كانت نتيجة منطقية لعدم اختصاصها في ادارة شـؤون الدولة .

لقد اظهر الفرنسيون جبنا لا يغتفر بقيامهم بالحملة الجنوبية العسكرية على بورسعيد . تلك الحملة التي دبرها بينو لتدعيم سياسة (حرب السلام) الفاشلة في الجزائر .

ولهذا يجب ان ندفع اليوم ثمن هذه الاخطاء وان ندفعها فورا .

لقد قمنا ببيع ٣٠٠ الف طن من الطحين الى مصر وبوسعنا ان نبيـع ٢٠٠ الف طن اخرى من الحبوب مما يسهل لنا مهمة استيراد اكثر من عشرة مليارات فرنك من القطن المصري الفاخر حيث ان صناعتنا باتت بامس الحاجة اليه ، وكذلك فانه في امكاننا القيام بمهمة العملية التبادلية المربحة دون ان نفقد دولارا واحدا من العملة الصعبة القليلة التي نملكها ، بل على العكس فان هذه هي فرصتنا الوحيدة لكي نحول هذا القطن الى منسوجات واقمشة وبالتالي نقوم بتصديرها للحصول على عملة صعبة.

ان على الدبلوماسيين الفرنسيين ورجال الاعمال والمستشارين التجاريين ان يتجهوا بصدق وبالسرعة الممكنة نحو الطريق الوحيدة التي تنقذنا وهي طريق القاهرة ودمشق والرياض .

كما يجب علينا ان نعقد السلام مع الدول العربية اذا اردنا التوصل الى (ايقاف النار) في الجزائر .

ونحن اذا تخلفنا عن انتهاج هذه الطريقة الواضحة المعالم التي تكفل انقاذنا من الوضع الاقتصادي المزري الذي تجتازه فرنسا اليوم لاسيما بعد تخفيض قيمة الفرنك ، فاننا سوف نخسر حتما وقتا ثمينا ، خصوصا وان الامريكيين والانجليز واقعون اليوم في مازق في الشرق الاوسط ، فعلينا الاستفادة من هذا الظرف ومصادقة العرب بدلا من معاداتهم .

ان سلامة الفرنك الفرنسي وارتفاع او انخفاض قيمته امر يعتمد فيه بالدرجة الاولى على مركزنا في الخارج او بعبارة ادق على سياستنا الخارجية وبوسعنا الان اغتنام الفرصة للتفاوض مع العرب وعقد اتفاقيات شريفة معهم نكفر بها عن اخطاء الماضي.

مدارس الشعر العراقي الحديث

قيثارة الوادي

بقلم عبد الجبار داوود البصري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٩ ـ

اذا ادانيت من زمني هناء تعجلني الزمان وفاء ديني
لامر ثم جردني سلاحي وقلده كليل المضربين
يمينا انها ظبة ... رمتها يمين مناجز ليمين قين

واقرأ قصائد الجواهري في المديح فلا اجد فيها الا صورا من الكفاح والسياسة كمديحه لبلاسم الياسين والدكتور هاشم الوتري وقصيدته في يوم التتويج .

ولعل القاريء يجد ان زمن ما نستشهد به من شعر الجواهري لا يقع بين الحربين ولكن لا ضير ، فالجواهري من ابرز الرجال المكافحين وهو ما زال يمثل مدرسته خارج زمنها كانه جزيرة في بحر المدرسة الجديدة الحرة .

والمدارس الادبية كالدول لها مجالها الحيوي ويجب ان تدرس في كل شبر وساعة من هذا المجال .

وبغض النظر عن القيم الفنية يمكن ان نستعرض شعرا علميا للزهاوي فنجد الروح الكفاحية تغلغلت في البحث العلمي وصبغته بالوانها .

فالزهاوي يتحدث عن النجوم السيارة ولكنه يختار صورة عسكرية كانها الخيل في البيداء . ويختار صورة اخرى لتشبيه الاثير مقتطفة من الافق الحكومي فهو كالديكتاتور الطاغية القاهر الذي يدحرج بعصاه الاكر .

ويتبين القاريء حين نعرضها كثرة الالفاظ الحماسية واختيار الوزن الذي لم يختره الا القليل للتعبير عن النظريات العلمية اذ ان المعروف كثرة تداول الرجز في المنظومات العلمية كالفية ابن مالك لقرابته من النثر .

تحوي السماء نجوما ذات انظمة من الشموس كثارا ليس تنحصر
تخالها ثابتات وهي مسرعة كانها الخيل في بيداء تحتضر
وكل شمس لها جرم بنسبته يجري الاثير اليها فهي تستعر
وهو الذي يوسع الاجسام قاطبة دفعا عليها به الاجسام تنهمر
وللاثير يد في الكون قاهرة تدحرجت بعصاها هذه الاكر
الجرم ياخذ منه بعض حاجته وللذي زاد عن حاجاته يذر
وعند ذلك يجري في جواهره كالماء قد صادفته جاريا حفر ..الخ

واذا وجدنا في قواعد النقد الادبي لابر كرومبي ، وموجز فلسفة الفن لبندتوكروتشه وغيرهما من كتب النقد مفاهيم فنية توصل اليها المفكرون بعد تحقيق واستنتاج ودراسات علمية ، وحاولوا ان يكتبوا وهم تحت تأثير عقلي بحت ، فان هذه المدرسة لم تقدم لنا مفاهيمها الفنية الا وهي منظومة على هيئة الشعر واكثرها ارتجالية ابنة لحظة .

ومن الامكان القول ان جميع الابواب الشعرية عند هذه المدرسة تصطبغ بصبغة الكفاح حتى في ابعد القصائد عن الكفاح واعني بها فلسفة الفن وشعر الطبيعة .

وكان مجال الكفاح ، المجتمع الذي يحيون فيه وما جاوره من اقطار شقيقة او محبة لمجتمعهم . كافحوا في هذا المجتمع الساسة الهدامين الذين يسعون الى مصالحهم الذاتية ، وكافحوا الاجانب المستعمرين الذين امتصوا اقوات الشعب وخيرات البلاد ومنافعه .

وكافحوا الانبياء الكذابين الذين استغلوا سذاجة الشعب وكافحوا ضد الرذيلة في سبيل الفضيلة والمثل العليا .

وكافحوا الامراض الاجتماعية : فحاربوا الفقر ودعوا الى انصاف الفقراء ، وحاربوا الجهل ودعوا الى فتح المدارس وتعليم الرجل والمرأة في المدينة والريف ، وحاربوا السقم ودعوا الى انشاء المستوصفات والمستشفيات والعناية بالصحة العامة .

وخلاصة القول انهم كافحوا في كل ميدان من ميادين الحياة حتى في انفسهم ، كافحوا الجبن والخضوع والذل وعاشوا اباة مجاهدين في سبيل الحق والخير والجمال .

ولكنهم مع الاسف لم يستطيعوا مكافحة الشعور بالالم فقد احسوا به وتظلموا واشتكوا منه حتى ملأ الانين كثيرا من اشعارهم . اما عن الاسلوب الشعري :

فقد تغلبت عليهم النزعة الفكرية ونستطيع ان نلمح ذلك من عناوين القصائد مثل : خواطر فلسفية ، نظرة في الحياة ، الايام ، تنازع البقاء اما عند الزهاوي فقد عنون القصائد العلمية بمصطلحات اكاديمية .

واستفادوا كثيرا من علم المنطق في طريقة النظم ، وبذلك جعلوا القصيدة مجموعة نظريات مبرهنة لا تجربة نامية في موسيقى منعشة .

وحاولوا التجديد واول مظاهره استعمال الالفاظ العصرية واخص بالذكر اسماء المخترعات كما استطاعوا ان يعيدوا صياغة بعض الابيات الشعرية القديمة باسلوب اكثر تلاؤما وانسجاما مع الذوق الحديث وتأثروا بالصحافة الى مدى بعيد ، وجميع ما ذكره الدكتور عبد اللطيف حمزه بشأن الشعر الصحافي ينطبق عليهم .

والملاحظ انهم تخيروا من القوافي ما تصلح لاحتواء اسم صاحب المناسبة كاختيار قافية السين في قصيدة توجه الى سركيس ، واختيار قافية الغين في قصيدة توجه الى جريدة البلاغ ، واختيار قافية الواو في قصيدة يحيا بها الزهاوي وهذا ما فعله الرصافي .

وكم افلتت من السنة هؤلاء الشعراء كلمات لا ينبغي ان تفلت كقول الجواهري لاحدى النساء : « عيني فدى قدميك سيدتي » وقول الرصافي لندره مطران : « اقبل من العبد جميل الثنا . »

ولم تمدح هذه المدرسة الافراد باعتبارهم انصاف الهة، ولكن باعتبارهم اخوة واصدقاء كفاح وعلى اساس خدمتهم المجتمع والسعي من اجل الشعب.

وطرقوا احيانا أبواب مدح مما لا يسمح للشاعر الحديث ، ولكنهم كانوا يحورونها تحويرا جيدا حتى لنعدها من قصائد الكفاح بالدرجة الاولى .

والملاحظ ان في ديوان الرصافي سفاسف، فهو يحتاج الى تنقية ، ويطيب للمرء ان يتساءل وهو يقرأه عن التناقض الموجود فيه . فبينما يندد بالساسة وهم في دست الحكم نجده يرثيهم واحدا واحدا على شواطيءالقبر .

والملاحظ انالرصافي يمثل المدرسة اصدق تمثيل، فالنظم العلمي موجود لديه بصوره قليلة ولكنه تضخم في شعر الزهاوي.

والشعر السياسي موجود لديه بكميةكبيرة ، ولكنه استحوذ على اغلب شعر الجواهري .

ووصف الرصافي شيئا من وقائع الحياة اليومية مثل الشارع في بغداد ، وعلى الخوان. وجاء الصافي النجفي فافرط فيه وتحول الى امواج ، وتيار ، ولهيب .

اما الزهاوي ، فاسرف في المنظومات العلمية حتى اشرفت ان تكتسح شهرته وتمحو محاسنه عند كثير من الشباب المتأدب، وكثر الحديث عن هذه الناحية حتى عند اكابر النقاد ودعتهم هذه الظاهرة الى تجاهل ابواب شعره الاخرى . والحق ان هذا الاسراف عوده على نثرية النظم وتفكك الموسيقى ، وانعدام العاطفة كما علقشعره باذيال العلم والعلم كل يوم هو في شان .

ومن الظواهر المعجزة في هذه المدرسة الشعر الارتجالي ، وامتاز به عبد المحسن الكاظمي ، ولعل دراسة الارتجالية في الشعر تهدينا الى نتائج لا تعود على صاحبها من الناحية الفنية بالخير العميم .

ويمتاز شعر الصافي ببساطة الموضوع، وسوقيته، وبالمفاجاة الفكرية، والنكتةوالفكاهة ، والنثرية في النظم.

والصافي يمثل تطورا لعدة ابواب وجدت عند افراد هذه المدرسة كباب الشعر الفكاهي ،وباب المقطعات القصيرة كاشعة ملونة وهواجس، واشتهر بترجمة رباعيات الخيام.

ويبدو بصورة عامة ان هذه المدرسةوعت كثيرا منحقائق الماضي ولاسيما جوهر الدين الاسلامي ولذلك طالبوا بتحرير المرأةواستقلال العرب ووحدة الشعوب الاسلامية وتخليص الدين من الشعوذة والخرافة.

وامتازوا بحب الطبيعة باعتبارها وجه الوطن الضاحك ، ومأواهم ، وارض الجدود ، ارض المعركة .

وكان لكل فرد منهذه المدرسة فلسفته الخاصة يواجه بها الحياة فالزهاوي نظر للحياة نظرة علمية ، والرصافي نظرة سياسية ، والكاظمي نظرة قومية جنسية Race والجواهري نظرة اشتراكية وغلب على جميع هذه النظرات طابعالكفاح .

ووجدت نواحي تقليدية لديهم ولكنه تقليد واع ويقلد الجوهر قبل ان يقلد القشور كماقد تجد شوائب تهريجية لا يعتد بها .

وشاركت هذه المدرسة في الحياة الاجتماعية وامتاز اكثر شعرائها بتفقد ابناء الشعب فالرصافي يتفقد الاملة المرضعة واليتيم في العيد وسواهما والجواهري يتفقد اللاجئين فيالعيدوالجنود العائدين من فلسطين.

وكان الكفاح عند هؤلاء يتخذ احيانا صورا اخرى كالخديعة والاغراء والهزل والسخرية واليأس.

وقادتهم فلسفتهم في الموت وماوراء الحياة الى شيء من الازورار عن الدين وجنى عليهم هذا الازورار فحورب الزهاوي محاربة عنيفة واضطر الرصافي في وصيته الى تأكيد اسلاميته ليبرهن ساحته .

ووقفوا من الحضارة موقفا يحمد لهم اذ رحبوا بكل ثمارها وامتدحوها كما رحبوا بمبادئها وافكارها وامتدحوا حملتها دون ان يجدوا في ذلك ما يناقض وطنيتهم او قوميتهم او ما يخدش عظمة تراثهم .

ومن ابواب الشعر عند هذه المدرسة العلميات والاجتماعيات والفلسفيات والوصفيات ، والحريقيات والمراثي والنسائيات والتاريخيات والسياسيات والمقطعات ..

واعتزت هذه المدرسة بانتاجها ودافعت عنه دفاعا حارا نثرا وشعرا الى حد السأم كما في دواوين الزهاوي.

اننا نحيي في هذه المدرسة كفاحها وننثر الورد على قبور من قضى نحبه منهم ونبلغ الاحياء اكبارنا وتقديرنا .

— ٤ —

اما السمة الغالبة على انتاج شعراء اليوم الشباب فهو الانطلاق ، ويبدو فيكل موضوع تناولوه فعبروا عنه.

والانطلاق الذي اقصده : تحرر من قيود الوزن والقافية ، وتحرر من القيود السياسية والفكرية ، وعمق في التحليل والتفسير والتأمل،والجدة والابتكار في التعبير والخيال وانتقاء اللفظة .

اما الثورة على المفاهيم الكلاسيكية او التحرر من قيود الوزن والقافية فتبدو في سيادة الشعرالحر Free Verse الذي يعتمد على تفعيلة واحدة تتكرر بدون انتظام واستبدال القافية الموحدة بالمزدوجة او المثلثة او العشوائية مثلا . ومن السهولة اننجد دواوين كلها من الشعر الحر .

ففي قصيدة لنازك الملائكة عنوانها ــ لنكن اصدقاء ــ تنطلق من قيود الوزن الرتيب والقافية المألوفة ، فتارة تأتي بتفعيلتين وتارة بثلاث واربع حسبما يحكم التعبير .

وفي القصيدة انطلاق من الذاتية المنطوية على نفسها وشوق الى مشاركة الاخرين في حياتهم ، وانطلاق من حدود الوطن والجنس الى مساحة اكبر هي الانسانية العالمية ، فلا تصادق العرب وحدهم ، ولكنها تطلب صداقة الاسكيمو في بحار الثلوج وصداقة الزنوج في الغابات الاستوائية وصداقة كل انسان في كل مكان .

وفي المقاطع التالية جماع ما قدمناه :

لنكن اصدقاء
نحن والظالمون
نحن والعزل المتعبون
والذين يقال لهم : مجرمون
نحن والاسرى
نحن والامم الاخرى
في بحار الثلوج
في بلاد الزنوج
في الصحاري، وفي كل ارضتضم البشر
كل ارض اصاخت لآلامنا
كل ارض تلقت توابيت احلامنا
ووعت صرخات الضجر
من ضحايا القدر.

واقرأ شعرا لبلند الحيدري تحت عنوان « نجوى » فاجد فيها انطلاقات

عديدة لا تمت الى التهريج او الكفاح بصلة ، مع ان القصيدة حافظت على وحدة البحر والقافية . انطلق الحيدري من المعاني الغرامية المبتذلة ، فلم يقل ابكاني الفراق،وهزلجسمي، وشحبلوني، وطال ليلي، ولكنه قال « لا تسألي القلب عن تاريخ اغنية رعناء جفت على قيثار ماضيه » .

ولم يقل اكاد اموت شوقا الى رمان الصدر وتفاح الخدود وليل الشعر الفاحم ، وسهام العيون ، ولكنه ابتكر تعبيرا جميلا رقيقا صادقا في رسم حالته النفسية اذ قال لها: ـ « جئت ابحث في عينيك عن حلم اعيش على نجوى امانيه » .

وفي هذه الابيات يلمس القاريء ايضا انطلاقا فكريا فهو يأبى ان يرزح بين اغلال الغرام او ان تستعبد تفكيره امرأة تعيش في دنيا مدنسة .

لا تسالي القلب عن تأريخ اغنية	رعناء جفت على قيثار ماضيه
لا تسالي القلبما فيه سوى خشب	تكاد تلمسه الذكرى فتوريه
اطلقته طائرا في قلب عاصفة	فما استقرت على شيء أغانيه
حتى استفاق على دنيا مدنسة	ونبه العار احساس اللظى فيه
فراح يحرق بالتفكير ما رسمت	انامل الاثم في رؤيا دياجيه
وجئت ابحث في عينيك عن حلم	هاد اعيش على نجوى امانيه

ويبدو ان عرف الفن في المجال السياسي لا يمكن ان ينطلق الشاعر من قيوده ، فهو مجبر على تقليد الرصافي والجواهري في حركتهما الوطنية ولكن الشاعر اليوم انطلق حتى في المجالات السياسية.

في قصيدة « رجل في الظلام » لموسى النقدي ينطلق من التعابير السياسية المعروفة والشتائم والسباب ، ولا يلجأ الى الالفاظ الحربية والطبيعة العسكرية ، ولكنه يصف ببساطة شريدا في الظلام جائعا عاريا يحب الحياة ويصيح اين هم الجناة . انه لم يعبر تعبيرا مباشرا ولكنه اكثر من الايحاءات والاشارة ، واكثر من الكلمات الرقيقة والتعابير الجديدة .

كما انه انطلق من الوزن والقافية ايضا ، وبحث عن طريق الانطلاق من يد الظلم والفقر والتيه والالم .

والشاعر الذي يحترم واجبه لا يمكنه ان ينطلق من الحياة الاجتماعية فلا يعالج موضوعاتها بل هو يعتبر هذه المعالجة من صلب اعماله .

فالرصافي والزهاوي والجواهري عالجوا كثيرا من المشاكل الاجتماعية وصوروا كثيرا من وجوه المجتمع ولم يستطع الشاعر اليوم التمرد على تراثه وواجبه ولكنه انطلق في تحليلهوتفسيره .

فرؤيةالفقير مثلا يفسرها الرصافي وامثاله تفسيرا اخلاقيا فهو رأى ارملة مسكينة فدعا الى الرأفة بها ومساعدتها واجتذب لها من جيب ملحفته دراهم كان يستبقى بقاياها ، ومر باليتيم في العيد فاشفق على حاله ورق له .

اما الشاعر المنطلق فتحرر من التفسير الاخلاقي ، فبدر السياب لا يفسر نعيم ـ حسناء القصر ـ عن طريق لاهوتي واخلاقي ولكنه يفسره على ضوء المبادىء العلمية الحديثة كمايبدو الانطلاق التفسيري من دراسة ملحمة « الاسلحة والاطفال » من شعر السياب ايضاء حيث يبدع في تحليل حملة شراء الحديد والنحاس العتيق .

ويمثل هذا الاتجاه قصيدة « انا وكوخي والشتاء » من شعر انور خليل، وفيها انطلاق منظم من الوزن والقافية وانطلاق من الموضوعات الارستقراطية وهبوط الى معالجة المشاكل الشعبية ومشاركة البسطاء في غدوهم ورواحهم . وفي القصيدة انطلاق في التفكير والتفسير فهو لا يطلب من القوم الرأفة والعطف بالفقير ولا اسداء اليد البيضاء المتصدقة ، ولكنه يعالج المسالة علاجا جذريا فالاغنياء هم مصوا دماء الفقير وتركوه منبوذا حرم عليه حتى الصياح .

ولقد انطلق الشعراء الشباب يفتشون عن موضوعات جديدة اضافة الىما توارثوه . واستطاعوا العثور على كثير كمناجاة المثل العليا ، والتحليل النفسي ، ورسم النماذج البشرية ، ونظم الاخبار الخارجية ا فعل عبد الوهاب البياتي :

اقرأ « اباريقه المهشمة »فاجده مراقبا سياسيا يتتبع اخبار الصحف وريبورتاجاتها الخارجية ونشرات الاذاعة ثم يغمس هذه البضاعة في بوتقة قريحته فيضيف اليها شيئا ويحذف منها شيئا وينظمها ويؤطرها فتكون قصيدة .

« فالملجأ العشرون » اخبار عن اللاجئين العرب ابتكروا لها اسلوبا رسائليا اذ اتى برسالة شعبية فنظمها كما هي بقلمها وجرادها ولكنه قطعها اربا اربا وحشى الفراغات الموجودة بين القطع باوصاف وتعليقات . هذا بغض النظر عن مصادر الهامها .

واقرأ قصائد « فيت مين » و « ماو ماو » و « كوريا فلا اجد فيها الا تعليقات واخبارا خارجية عن معارك الفيتنام مع الاستعمار الفرنسي، ومعارك البشرية السوداء المحترقة مع ذوي الوجوه المسلوخة.

اما قصيدته عن كوريا : فلم يزد على ان اختار جنديا من الصين وجنديا من تركيا وجنديا من امريكا وابتكر ترجمة حياة لكل منهم وجمعها في تفعيله مكرورة فكانت قصيدة.

ومن هذه الامثلة نتبين الانطلاق في البحث عن موضوعات جديدة واساليب جديدة وخطط وطرائق جديدة في الشعر ، ولا اجد عيبا فنيا في هذا الانطلاق ، ولكن احتمال العيب يبدو في النماذج التي تمثله .

وفيما يلي نستعرض ملاحظاتنا : ـ التي دوناها اثناء قراءة الشعر المنطلق .

امتازت هذه المدرسة بالواقعية ، ونعني بها تصوير الحياة بدقة وصدق وتفسيرها تفسيرا علميا يظهر الصراع والتناقض في كل مظهر من مظاهرها .

واهتمت هذه المدرسة بتوافه الحياة وتجميع الاشياء البسيطة وتدوين الحركات الساذجة لتعطي لقصيدتها جوا مؤثرا كما اكثرت من الايحاء والرمز لتعطي لقصيدتها نكهة لذيذة .

وكثرفي اشعار المدرسة المنطلقة التحليلات النفسية ، وتصويرالخطرات كما كثرت النماذج البشرية التي تعبر عن افكار مجردة او ترمز لمظاهر اجتماعية طبقية .

واستطاعت المدرسة المنطلقة ان تصوروجوه المجتمع المتعددة . فالبياتي صور الوجه السياسي، والسياب صور الريف العراقي متمثلا في جيكور ، وحسين مردان صور وجه المجتمع القذر المدنس .

ومن السهولة ملاحظة المؤثرات التي اثرت في المدرسة المنطلقة . فالسياب صدى اليوت الى حد ما ، وكاظم جواد تأثر باوركا وناظم حكمت، والبياتي عيب عليه تأثره بناظم حكمت وانور خليل تأثر بشعراء المهجر وتأثرت نازك بادكار الن بو وآخرين .

وأستقلت هذه المدرسة في انتاج شعرها : الاساطير والقصص الشعبية والتقاليد الجماهيرية ، والتاريخ.

ولم تكن القصائد التاريخية تعبر عن القدم الا بشكلها ولكن محتوياتها جديدة بكل معاني الجده . وقد ادى هذا الاستغلال الى اشاعة لون من الرمزية الشفافة .

وكان اسلوب احدهم مزيجا من الابيات الشعرية السائرة والامثلة المتداولة يضف اليها اسماء الشعراء وتشكيلة لفظية من احدث الموديلات الشائعة الرائجة حتى لو كانت مسميات لاحياء قذرة جدا . ويلاحظ ـ انهم استعملوا احيانا بحور الشعر العروضية دون محاولة جادة لتصفيتها من الشوائب . كما ان بعض المظاهر التهريجية تفصح عن نفسها هنا وهناك .

وقد عشقت هذه المدرسة الفن بجميع صوره ،وارادت ان تجعل سلوكها فنا ايضا ، ولذلك تنوعت اساليبهم في الحياة . ونستطيع تقسيمهم الى فريقين الحيدري والوتري ومردان واخرون انطلقوا في دروب المرأة ، وانور خليل وعدنان الراوي وعبد الوهاب البياتي والسياب الى حد ما انطلقوا في دروب الشعب والحرية .

اما نازك الملائكة فانطلقت في اكثر شعرها فيدروب الوهم والالم .

واستطاعت هذه المدرسة ان تتطلع الى الغد دائما ، حتى ان المستقبلية من الصفات المميزه لها .. انهم شباب متفائلون رغم الامهم يؤمنون بالغد ويثقون بالشعب .

وامتازوا بالنظرة الانسانية التي تتخطى الدم والحدود واللسان وعاشوا حياة كلها شعر وحاولوا ان يحولوا كل شيء اتصلوا به الى شعر، واكثروا من الاعترافات الذاتية الى حد الفضيحة .

ويسرنا ان ندون بعض المقارنات التي تربط المدارس الثلاث :

فكلهم اكبروا الانسان :

اما المهرجون فعظموه ذاتا فردية تتمتع بجاه او ثروة ، وعظمه المكافحون باعتباره ذاتا فردية جاهدت في سبيل الوطن والشعب او مجتمعا يمت الى الشاعر بصلة من القرابة والالفة . اما المدرسة المنطلقة فعظمت الانسان لانه انسان وتفنت بانتصاراته واوشكت ان تعتنق الانسانية باسلوب عقائدي .

وتطلعت المدرسة الاولى الى الماضي فاكبرت كل شيء فيه واستوحت واقتبست كثيرا منه واستمدت ثقافتها من ثقافته . اما المدرسة الثانية فاستوحت الحاضر بالدرجة الاولى .. وان كان الجواهري مؤلف عالم الغد وقالت اشعارها متاثرة بحركات الواقع ومظاهره وان لم تتعمق الى مسافات بعيدة . اما المدرسة الجديدة فاضافة الى استيحاء الماضي والواقع الحاضر استوحت الغدوتفنت بملامحه وحسبك ملحمة السماوي المعروفة .

وطرقت المدارس الثلاث باب الملاحم .

واختلفت الاساليب ، فالعمري خمس همزية البوصيري بكيفية اشبه بالملاحم الى حد ما ، وعلويات الحيدري ملحمة غير منظمة.

ووطنيات الرصافي ملحمة غير مقصودة وغير مبوبه ، اما ثورة في الجحيم للزهاوي فملحة توفرت فيها اكثر الشرط الفنية وكذلك عالم الغد للجواهري وتعتبر قصائده ملاحم قصيرة النفس.

وللمدرسة الجديدة عدة ملاحم كلحن مردان الاسود ، والمومس العمياء ، وحفار القبور والاسلحة والاطفال من شعر بدر شاكر السياب.

واذا اخذنا على المدرسة الاولى زيادة على ما ذكرناه نظم التواريخ ، فان المكافحين اكثروا من المنظومات العلمية بشكل معيب واكثرت المدرسة المنطلقة من نظم البرامج الحزبيه والهتافات الشعبية بشكل لا يرضي الذوق الفني.

ويلاحظ ان الحبوبي وانصاره حافظوا على التراث الشعري كما تسلموه فلم يضيفوا اليه شيئا ذا خطر ، هذا اذا لم ينقصوا . اما الرصافي وانصاره ففتحوا ابواب دواوينهم للبائسين والفقراء وجاء البياتي ورهطه فادخلوا حتى البغايا الشقر والمتسولين.

والتزمت المدارس الثلاث :

الاولى التزمت حيال قيود الفن وابواب الشعر القديمة التزاما لا يغفر لها ، والتزمت الثانية تجاه الوطن والمثل العليا التزاما يبارك لها ، والتزمت الثالثة تجاه الانسانية والشعوب الديمقراطية التزاما واجبا تستحق بسببه التقدير والاكبار .

اما عن اللغة :

كانت لغة الحبوبي واصحابه ارستقراطية منهارة ، وكانت لغةالرصافي واصحابه ارستقراطية تكيفت للظروف الجديدة وخدمة الاغراض البرجوازية . اما لغة البياتي واصحابه فهي ديمقراطية شعبية حتى قال انه يكتب لبسطاء الناس ، لاؤلئك الذين يصنعون الثقافة والتأريخ والورد والخبز والنور .

وانني اعطف على بعض شعراء المدرسة الاولى لما قاسوه وهم يقفون على عتبات الممدوحين . اما الشاعر المكافح فيحملنا على ان نعطف على هذا الفرد او تلك المرأة ، ولكن الشاعر المنطلق كان يقصد دائما اثارة عطفنا على مجتمع مظلوم وشعب يريد التحرر وتحطيم اغلاله.

والاحظ ان فلسفة المدرسة الاولى ـ ان صح القول ـ لاهوتية ، وفلسفة المدرسة الثانية سياسية اجتماعية ، وفلسفة المدرسة الثالثة فنية تحاول ان تتذوق الحياة .

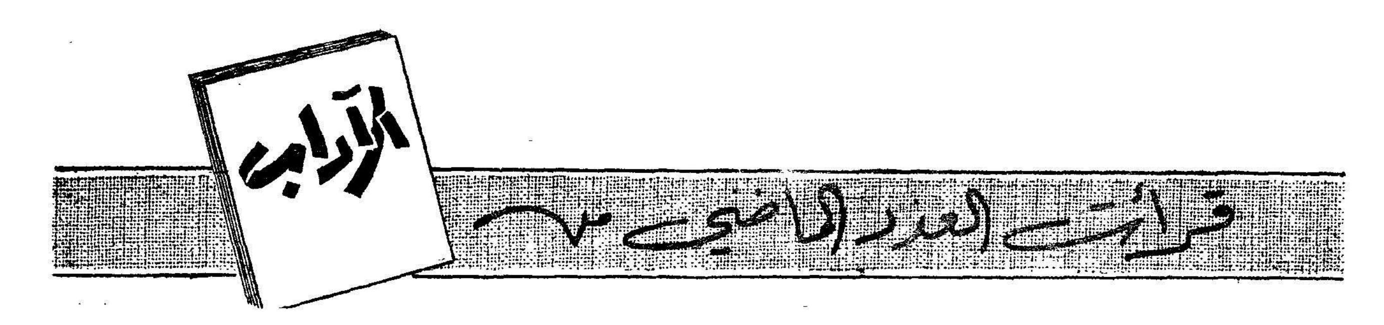
ولو نظرنا الى خارطة كل مدرسة نظرة مقارنة لوجدنا ان اكبرها رقعة المنطلقة ، واصغرها رقعة المكافحة ، ونعلل هذه الظاهرة بصغر رقعة الكفاح واقتصاره على العاصمة ووعورة الطريق ، بينما الانطلاق يستحوذ على اكبر رقعة ويمتد الىمسافات بعيدة بحكم طبيعته.

واذا كانت المدرسة الاولى مدحت ، ورثت مخلوقات بشرية كثيرة ، فان المدرسة الثانية وصفت ودافعت عن مخلوقات بشرية كثيرة . اما المدرسة الثالثة فاستطاعت ان تخلق نماذج بشرية كثيرة .

واخيرا ...

ان جلال الممدوحين وسمو مكانتهم الدينية والاجتماعية يعوق النقد فلا يقول قولته الصريحة في المدرسة الاولى ، وجلال الهدف وسمو الغاية والخوف من تهمة الخيانة يعوق النقد فلا يقول قولته الصريحة في المدرسة الثانية ، وحداثة المدرسة المنطلقة وجدتها تتطلب من النقد ان يتريث باحكامه الى ان تنضج مفاهيمها واثمارها .

عبد الجبار داود البصري — العراق ـ البصرة



الأبحاث

بقلم سامي الدروبي

سياسة العرب الخارجية

لا اوافق الاستاذ النقاش على « ان المباديء ضئيلة الاثر في تحديد السياسة الخارجية » لدولة من الدول ، رغم الامثلة الكثيرة التي ساقها بهذا الصدد . واذا كانت هذه النظرة تصدق على الماضي، قبل دخول الشعوب في التاريخ ، فانها لا تصدق على عصرنا هذا باطلاق القول . الم تتبدل سياسة بريطانيا ازاء الهند بوصول حزب العمال الى الحكم ؟ وحين وقفت يوغوسلافيا من الاتحاد السوفياتي ذلك الموقف المستقل ، الم تستلهم سياستها من نظرة مبدئية ؟ وموقف الهند من قضايا العالم ، اليس مستمدا من فلسفة ؟ واغلب ظني ان الاستاذ النقاش يقلل من قيمة موقف الحياد الايجابي الذي يقفه العرب حين يربطه بالمصلحة وحدها ، ولا ينتبه الى القيم الانسانية التي يشتمل عليها ، ويحتضنها ويصونها. ان سياسة سوريا ومصر سياسة انسانية ، عدا انها تضمن مصالح الشعب العربي في شتى اقطاره .

ويقول الاستاذ النقاش : « لو ادرك الغرب مصلحته حقا ، لساير الشعور العربي القومي ، ووضع يده في يد القوى العربية المتحررة ، وبذل لها العون الاقتصادي الذي تحتاجه ، وزودها بالسلاح، وعمل على حل مشكلة فلسطين والمغرب كله يومذاك حلا عادلا ... اذن لكسب صداقة العرب ، ولا خطر لاحد ان يتلفت نحو موسكو .»

يخيل الي ان الاستاذ النقاش ينظر الى الامور هنا نظرة ساذجة. انه ينظر الى الغرب بمعزل عن واقعه الاستعماري . انموقف الغرب من العرب تمليه بنية نظامه الاجتماعي ، ويصعب ان يتغير هذا الموقف ما لم تتغير تلك البنية الاجتماعية التي تفرض على الغرب سياسة معينة ازاء العرب . ان مصلحة الطبقات الحاكمة في الغرب تتفق كل الاتفاق مع سياستها الاستعمارية . وليست القضية قضية خطأ في الحساب ، ليست قضية سوء « ادراك » من الغرب لمصلحته ، ليست قضية « غلطات » يرتكبها الغرب .

وسامح الله الاستاذ نقاش اذ كاد يكرر ما تردده صحف الغرب كل يوم من ان الشيوعية اخذت تنفذ الى البلاد العربية على نطاق واسع ، وان نفوذ الاتحاد السوفياتي يطغي شيئا بعد شيء.

ومرة اخرى ينظر الاستاذ نقاش الى الامور نظرة ساذجة حين يعدد النتائج الحسنة والنتائج السيئة التي نجمت عن سياستنا الخارجية ، فيذكر في الثانية : انقسام العرب بشكل يؤدي الى تأخير وحدتهم ، فهل هو يقصد من الوحدة ذلك التوحيد الكاذب الذي تعد الجامعة العربية مثالا له ، ام هو يقصد الوحدة الحقيقية ؟ اذا كانت الثانية ، فنحن نرى ان هذه الوحدة لا يمكن ان تتم بدون انقسام .. انقسام يفضح الفئات الحاكمة المتواطئة في بعض البلدان العربية مع الاستعمار ، ويعزل هذه الفئات عن الجماهير العربية ، ليمهد لوحدة صحيحة يحققها الشعب العربي في سائر اقطاره حين يستلم مقدراته .

ومرة ثالثة ينظر الاستاذ النقاش الى الامور نظرة ساذجة اذ يظن ان الحكومات العربية متفقة على اسرائيل ، ومتفقة على ان المصلحة القومية العليا في الاتحاد !

ان اسرائيل صنيعة الغرب ، ومعبر للاستعمار وللرأسمالية الدولية والصهيونية ، وكل تحالف مع الاستعمار يوطد اذن لاسرائيل . فما قيمته ان تتبجح بعض الحكومات المتواطئة مع الاستعمار بمناهضتها لاسرائيل، في حين انها بسلوكها السياسي تمكن لاسرائيل ؟

ثم ان المصالح الشخصية والطبقية والفئات الحاكمة تقف بمصالحها في طريق الوحدة . وفي مصر وسوريا وحدهما ، حيث اصبح الحكم اميل الى تمثيل ارادة الشعب ، نجد اتجاها سليما في طريق التوحيد .

دلالة التكرار في الشعر

لو كنت اعرف ان لنازك الملائكة مقالة في العدد الذي كلفت بنقده من الآداب من قبل ان يظهر ، لما تعهدت بنقد هذا العدد في الظروف التي انا فيها الان . ذلك ان الكتابة عن نازك الملائكة « كحدث » كبير في تاريخ الادب العربي تراودني منذ مدة طويلة ، ولكنني كنت اتهيب دائما الاقدام على هذه الخطوة ، وارجيء ذلك الى وقت اتخيل انه سيجيء ، وقت يتاح لي فيه من صفاء الفكر واستجماع النفس ما يمكنني من محاولة الارتقاء الى حيث تقيم نازك الملائكة في قممها الشامخة .

ان نازك الملائكة حدث كبير في تاريخ الادب العربي . وان عبقريتها التي جمعت بين الغريزة الشعرية الخلاقة ، وبين الفكر العلمي الفلسفي العميق، لجديرة بان تحمل بعض المفكرين على اعادة النظر فيما ذهبوا اليه من ان غريزة الشعر يفسدها التفكير العقلي ، كما يفسد الرقص انتباه الراقص الى اجزاء حركاته ، بدلا من الاستسلام لانطلاقه المتدفق ، والانسياق مع الهامه الحر . ان الفكر الصارم والوحي الثر يتعانقان في عبقرية نازك اروع ما يكون التعانق . وما اجمل هذا التواضع بعد ذلك ... ان نازك تقدم مقالتها « بداية التكرار في الشعر » على انها محاولة لا بد ان تكون ناقصة .ولكن قيمة هذه المقالة لا تقدر بانها كاملة او غير كاملة وانما تقدر بانها شق طريق ، بانها استكشاف ، بانها محاولة رائد ، ان هذا البحث يضيف جديدا الى البلاغة العربية .

الكاتب لا يغير المجتمع

يصعب علي ان اصدق ان الاستاذ عبدالله القصيمي كتب مقالته هذه في العقد السادس من القرن العشرين لا في نهاية القرن الماضي، او مطالع هذا القرن ، حين كان دركهايم وليفي برول وسائر اصحاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية يبسطون نظريتهم السوسيولوجية ، ويجتذبون اليها تلاميذ يتحمسون لها ، بل يفوقون اساتذتهم في الحماسة لها ، ويمضون بها الى ابعد حدودها ، الى حدود لم يشأها الاساتذة انفسهم . فدركهايم الذي نظر الى الوقائع الاجتماعية على انها خاضعة لقوانينها الخاصة خضوع الحوادث الفيزيائية لقوانينها الخاصة سواء بسواء ، لم ينف امكان التأثير في المجتمع ، بالكشف عن قوانين الحياة الاجتماعية ، ومعرفة « الزائد » من تقاليد المجتمع ، والتنبؤ بزوال هذا « الزائد » وتعجيل ذلك الزوال . وكذلك فعل ليفي برول حين طبق النظرية السوسيولوجية على ميدان الاخلاق ، فقلب علم الاخلاق الى علم للعادات ، وهو علم نظري ثم قال ان هذا العلم النظري يشتق منه تكنيك اخلاقي ، او « فن اخلاقي عقلي » يتيح لنا ان نؤثر في الواقع الاخلاقي تأثيرا ناجعا . ويترتب على ذلك ان الكاتب الذي يستمد دعوته الاصلاحية من فهم للواقع الاجتماعي، لا من خيال جامح وامنيات ، يتنبأ بما سيكون ، ويستبق ما سيكون ، ويساعد على تعجيل تحقق ما سيتحقق .

كأنني بالاستاذ القصيمي اذن واحد من تلاميذ دركهايم الذين كتبوا في مطالع هذا القرن ، لا في هذا العقد السادس منه ، الذي مضت فيه بحوث علم الاجتماع في اتجاهات جديدة ، وشارفت افاقا من المعرفة الاجتماعية جديدة ، ملتقية مع مستكشفات علم النفس، معانقة مرة اخرى تأملات الفلاسفة ، منتهية الى ان مجرد « وعي » الواقع يبدل هذا الواقع . وايسر ما يمكن ان نذكره في هذا الصدد ان المصاب بمرض نفسي يشفى من مرضه كأنما بضربة من عصا سحرية ، متى « وعى » ما في اللاوعي من عوامل ولدت اعراض المرض . هذه كانت مساهمة علم النفس جاء بها فرويد .

ولست استجيب هنا لدعوة «الآداب» الى مناقشة فكرة الاستاذ القصيمي ، فلو اردنا المناقشة لطال الكلام ، وانما هي اشارة سريعة . ويحلو لي ان اسوق هنا بعض فقرات من محاضرة لجان بول سارتر ، تمثل الاتجاه الفينومينولوجي في معالجة هذا الموضوع ، والمحاضرة عن « مسئولية الكاتب » ، قال سارتر :

« هذه كاس على هذه المنضدة » . انا اقول انها كاس . انا اسميها لكم . يبدو ، جليا، ان الكاس لا يعنيها هذا ، وانها لم تتغير بالتسمية التي ذكرتها وانها بقيت تماما ما هي ، في مكانها ، هذا الهواء الذي خرج من فمي صوتا لم يحدث في الظرف اي تغيير على الاطلاق . وهكذا ، اذا صح حقا ان الكلام لا يغير الاشياء ، اذا صح حقا ان الكلام جمع كلمات لا تبدل الظروف ، كان في وسع الكاتب ان يتكلم دون ان يكون مسئولا . وما دام الادب لا يستطيع ان يغير الكاس اذ يتحدث عنها ، فهو لا يستطيع ان يعمل الا شيئا واحدا هو ان يحاول نقلها بالكلمات على احسن نحو يستطيعه ، كالرسام الواقعي الذي ينقلها بالالوان ، اي ان يحاول تصوير التأثيرات المختلفة التي تولدها الكاس . وهكذا لا يكون الكلام الا تكوين عالم من المعاني على هامش العمل والواقع ، يصور الواقع دون ان يبدله ، ولا يكون الادب الا كالشعور ، حادثة ملحقة .

« ان هذا المفهوم يستند الى خطأ مشئوم نستطيع فضحه بسهولة ، شريطة ان نرجع اولا الى النظر المباشر في حقيقة اللغة ...

« صحيح انني اذ اقول : كأس ، لا اغير في الظاهر شيئا . ولكن الواقع هو انني اذ اسمي الكأس اخرجها من الظلمة بالنسبة الي وبالنسبة الى جاري الذي لعله لم يرها ، والذي لعل ادراكه كان ادراكا اجماليا يضيع الكأس في المجموع . وعلى هذا فانني منذ اسميتها قد اوجدتها بالنسبة اليه وبهذا تغير عالمه ، مهما يكن هذا التغير طفيفا . فثمة الان بالنسبة اليه شيء يوجد ، وكان من قبل غير موجود . لقد اسميت له هذا الشيء، وحين اسميته صار يشعر ان هذا الشيء جزء من عالمه وان له معه الآن شأنا .

« ... ان وعي شيء من الاشياء هي تبديل لهذا الشيء .

« كيف هذا التبديل ؟

انه اولا ، في عالم من المعرفة الانسانية والشعور والثقافة ، نقل الشيء من الفعل الى الوعي . اننا جميعا نقوم بطائفة من الاعمال نريد ان نجهلها لاننا نريد ان لا نكون مسئولين عنها . فنحن نفهمها دون ان نتنبه اليها ، وندعها في عالم الصمت . وتنقضي حياتنا هكذا : ندع لعالم الصمت اعمالا بعينها لاننا نريد ان لا نسميها . وان ندعها لعالم الصمت فمعنى ذلك اننا نفعلها دون ان نشعر بها شعورا واعيا ، دون ان نعود اليها لنراها : فنحن نعمل ولا نرى انفسنا تعمل .

فاذا اسميت احد هذه الاعمال كنت اسلمه لصاحبه رأسا ، قائلا له : « هذا ما تفعله انت الآن . دبر حالك « فالشيء الذي اسميه هكذا يتعرى من براءته ، فاللغة تعري ، ان صح التعبير ، انها تعري الفعل ، وتضع الشخص ، في الوقت نفسه ، امام مسئولياته .

« ليس اضطهاد الزنوج شيئا ما لم يقل احد الناس : الزنوج مضطهدون. والى ذلك الحين لا يدرك احد ذلك ، وربما لم يدركه الزنوج انفسهم . ولكن تكفي كلمة واحدة حتى يصبح لهذا الامر معنى .

« ومنذ اللحظة التي اسمي فيها لجاري سلوكه يعلم جاري ماذا يفعل. ويعلم فوق ذلك انني اعلم ذلك . وموقفه مني يتغير تبعا لذلك . انه يعلم ان اخرين يعرفون ماذا يفعل، او يمكنهم ان يعرفوا ذلك ، فيخرج عمله من الذاتية ، ويدخل في الفكر الموضوعي .

« وقوام الادب ، لانه من النثر ولانه يسمي ، هو ان ينقل الظاهرة التي لم يتناولها الوعي والتي لعلها كانت مجهولة ، الى افق الوعي والفكر الموضوعي .»

هكذا تكلم سارتر بلسان الفينومينولوجيا التي يتعانق فيها علم الاجتماع وعلم النفس والنظر الفلسفي . وبهذه اللغة نفسها يتحدث علماء هذا العصر ومفكروه . اما مقالة الاستاذ القصيمي فهي تتجاهل مستكشفات نصف قرن من البحث العلمي والتأمل الفلسفي.

على ان ترداد هذه النغمة من حين الى حين قد لا يخلو من فائدة ، اذ يذكر الذين يدبجون كتابا وهم يتخيلون انهم سيقلبون به المجتمع رأسا على عقب ، يذكرهم بان الامر اعقد من ذلك واخطر . هذا وان في المقالة ، مقالة الاستاذ قصيمي ، لجمالا فنيا ، وان لطريقته في التعبير، هذه الطريقة التي تعتمد على ال Contraste والـ Para dox لكثيرا من الروعة . تذكرت ، وانا اقرؤها خطبة الجبل « قالوا لكم ..واقول لكم ..»

الشعر الغزلي الفرعوني

ان يترجم الاستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد اغنيات غزلية من الشعر الفرعوني ، وان يكتب مقالة في شرح هذه الاغنيات وفي اظهار روعتها ،

فهذا كله جميل ومفيد. اما ان يبرر عمله بان الشعر المصري الحديث يعاني ازمات خطيرة ، وان احد جوانب الخروج من هذه الازمات ان يطلع الشعراء على الشعر الفرعوني ، علهم يطورون شعرهم نفسه ، فذلك ما ليس به اليه حاجة . لقد ذكرني الاستاذ مجاهد بصديق لنا نشر ذات يوم كتابا عن رامبو ، وقدم له بكلام يشعرك انه بنشر هذا الكتاب يسهم في انقاذ الامة العربية مما هي فيه من تخبط .. لقد ضحكت يومئذ .

وانتقل الى الكلام على الترجمة ، فاسال الاستاذ مجاهد ، لماذا حرص على نقل هذه الاغنيات « شعرا » ؟ غفران الشعر ، ان اسميت هذه الترجمة شعرا ، على ما اراد الاستاذ مجاهد ، حين صدرها بقوله « الصياغة الشعرية » ! كنت اوثر لهذه الاغنيات ان تنتقل الى العربية نثرا ، اذن لاحتفظت بجمال فقدت كثيرا منه في هذه « الصياغة الشعرية » موسيقى الشعر عندي جناح ينقل اليك المشاعر والصور والمعاني خفيفة رشيقة ، فتدخل الى قلبك من اذنيك كانها النسيم او الطف . اما ان تكون الصياغة الشعرية مركبة تقرقع ، فتذهلك عما تحمله من ازهار ذات عبق ... فهذا هو المركب الصعب . وصدق كروتشه حين قال ان المرء ليحتمل النثر الرديء ، ولكنه لا يحتمل الشعر الرديء .

من اجل ثقافة « أفريقاسيوية »

في بحث مالك بن نبي مغامرة فكرية لا اعرف ما الذي يدفعه اليها من الدوافع التي تثوي احيانا في قرارة اللاشعور ، ولكنني احس انها مغامرة محفوفة بالمخاطر مهما يتسلح لها بثقافة واسعة ، وفكر قوي . وقد خيل الي حين قرأت الفقرة الاخيرة من بحثه انه تعب هو نفسه من المغامرة ، فتنازل عنها ، او زهد بها ، اذ قال : والذي نعنيه هو ان تبتعث المشكلة من مؤتمر للثقافة الافريقاسيوية يجد مبدأه فيما عبر عنه في منشور باندونغ الختامي تحت عنوان « التعاضد الثقافي . »

فبعد ان كان يتحدث مالك بن نبي عن الانسان الافريقاسيوي ، وعن الحضارة الافريقاسيوية ، وعن الثقافة الافريقاسيوية، تواضع فكاد يكتفي بتعاضد ثقافي بين الدول الاسيوية الافريقية المشتركة في مؤتمر باندونغ. وواضح ان التعاضد الثقافي شيء ، واللون الثقافي الواحد شيء اخر .

والسؤال الذي يطرح : هل هناك لون حضاري واحد يشمل جميع الشعوب الافريقية الاسيوية ؟ او هل هناك انسان افريقاسيوي ، على تعبيره ؟ نحن نرى ان هناك انسانا ، وان هناك الى جانب هذه الصفة الانسانية الشاملة ، انسانا عربيا واخر هنديا او صينيا او غيره.

على ان الكاتب يطرح المشكلة كلها على صعيد نضالي ، انه يفترض مبدئيا ان هناك انسانا افريقاسيويا ثم يتساءل عن السبيل الى انشاء ثقافة افريقاسيوية واحدة الى خلق عنصر الثقافة التي تنزع الى تبديل شروط وجود الجماهير الافريقية الاسيوية وهو يستشهد على هذا بالثورة الصينية التي غيرت الانسان، بتغيير وسطه الثقافي، وذلك بخلق بيئة جديدة. والفرق بين نظرة الاستاذ مالك بن نبي وبين نظرتنا ، هو ان الثورة الصينية لم تكن خلقا ، بل كانت بعثا . فالانسان الصيني موجود قبل الثورة الصينية ، ولكنه كان غافيا، فجاءت الثورة بتحقيق الشروط الجديدة، تهيء له ان يُبعث وان يعبر عن نفسه تعبيرا جديدا . هذه هي المشكلة التي يكاد يتهرب الكاتب في مقاله كله عن اثارتها : مشكلة البعث القومي . ان الرابطة التي يتصورها بين الجماهير الافريقاسيوية هي رابطة المنطقة الجغرافية (وهل يصح حقا الحديث هنا عن منطقة واحدة !) ناسيا النزوع الحديث الى تعاون الامم بثقافاتها المختلفة في تكوين انسانية واحدة تعبر فيها كل امة عن اصالتها وطابعها ، وتحمل اليها كل امة لونها الحضاري . لقد تجاوز العالم طور حضارة المدنية وطور حضارة المنطقة ، واصبحت الحضارة تمثل مستوى لنزعة انسانية شاملة تساهم فيها كل امة بشخصيتها ذات الطابع الخاص، وحين تلتقي شعوب مؤتمر باندونغ على صعيد مناهضة الاستعمار ، فلا يمكن ان يعد هذا « رسمالا » لحضارة، وليست هذه المناهضة للاستعمار وقفا على الشعوب الافريقية الاسيوية .

وبعد ، فان هذا التخبط كلهما كان ليقع فيه الكاتب لو شعر وهو يكتب ، بانه ليس كاتبا فحسب ، بل كاتب ينتمي الى حضارة عريقة هي الحضارة العربية .

عار « وليامز » الخصوصي

لا ادري هل للاستاذ محي الدين محمد عناية خاصة بالادب التمثيلي ، ولكن هذه المقالة الممهورة بتوقيعه تشعر بان كاتبها قد قرأ مئات التمثيليات على مسارح فرنسا وانجلترا والمانيا وامريكا .. وتشعر بان كاتبها من المتخصصين في الادب المسرحي بل وفي فن المسرح . واذا كان الامر كذلك ، فلست اجرؤ على القطع برأيي فيما تأتينا به المقالة ، لانني لست ممن اتيح لهم التعمق في دراسة الادب المسرحي، رغم ما اتيح لي من شهود عدد كبير من المسرحيات في جميع عواصم اوروبا . على انني احس احساسا غامضا بان المقالة تمتاز بعمق النظرة وشمول الثقافة، فضلا عن ان صياغتها جميلة ، لولا بعض العبارات التي تشم فيها رائحة الترجمة الحرفية . ولا اكتم القارىء انني تساءلت بعد ذلك : هل تلبي هذه المقالة حاجة لدى القارىء العربي ، وهل تعالج مشكلة من مشكلات الفكر العربي المعاصر ؟!

قصة السرطان

يحب صديقي الدكتور منذر الدقاق ان يكتب مقالات يبسط فيها حقائق العلم والطب ليسيغها جمهور كبير من القراء . ولكنني لا ادري هل يرضى هو نفسه ان تنزل مقالته هذه في منزلة « بحث الشهر العلمي » رغم ان قراءتها تهيء ما لا سبيل الى انكاره من فائدة ومتعة .

دمشق — سامي الدروبي



بقلم احمد عبد المعطي حجازي

ليست لي رغبة في مقدمة طويلة ، لانها قد تنحرف بي عن غرضي ، ولان الداعي لها قليل ، فالمطلوب مني الآن ببساطة ، ان اقرأ شعر العدد الماضي ، وفي العدد الماضي تسع قصائد ، وان اضع على هوامشها ملاحظاتي ، ثم انقل هذه الملاحظات على ورق ابيض ، وابعث به الى الآداب .

والحق ان هذا الذي يطلب مني ببساطة ، يصعب علي تنفيذه ، فانا اقرأ اغلب شعر الاداب باستعداد المتلقى ، فليس لي صبر على ارتداء ثياب النقاد الوقورة واصطناع مشاعرهم المتأنية التي ترضى بقدر وتسخط بقدر .

ا قاريء متحمس اهلل او العن ، وانا اجد في ذلك سعادة هي سم الاستجابة المباشرة لشعوري ازاء الابداع في شكل من اشكال الفن او الحياة .

لكن الامر الآن يختلف .. اختلافا بعيدا ، فقد حرمت بطلب التعليق على شعر العدد من امتلاك هذا الحق .. حق الحماسة والاستجابة المباشرة لاول انطباع . ولا مفر من التأني واستشعار وجود كل شعراء العدد معي ، اثناء القراءة ، والكتابة ، بل واستشعار وجود كل قراء الاداب والمهتمين بشؤونها وفيهم اساتذتي ورواد المدرسة التي ما زلت انا تلميذا في بناياتها الشاهقة .

نعم ...

انه شيء يستحق مني الاهتمام ، ولكني اعتذر لنفسي بخصلة من خصالي فانا ارحب بالعمل ما دام عملا مخلصا .

وها أنذا اكتب بعد ان قرأت كل قصيدة مرات عدة ، واستشعرت الحب لكل شاعر اشترك في هذا العدد باسم الزمالة في الوهبة وفي السعي نحو حضارة جديدة على ارض العرب .

يبدو فعلا انني كتبت شيئا يشبه المقدمة !

ويبدو انه لا مفر من هذه المقدمات ، انها تشبه التمنع الذي تصطنعه فتاة شرقية راغبة لكي تتصرف بعد ذلك بحرية .

والآن لنتصرف بحرية .

المجوس في اوروبا – خليل حاوي

اول ما يطالعنا في هذا العدد ... وجه عربي اصيل ، لم تستطع كمبردج في انجلترا ان تسرق منه ملمحا واحدا ، لا النغمة ، ولا الارتباط العميق بقومه في المشرق . ومنذ ان بدأت « الآداب » تنشر قصائد خليل حاوي وانا اتتبعه بحب واعجاب واعتقد ان قراء الآداب يشاركونني هذا الشعور ، ربما كان مرد ذلك لنفس الملاحظة التي اوردها الزميل نزار قباني في تعليقه على شعر العدد الماضي ، فالقالب الشعري عند خليل حاوي اقرب ما يكون الى العمود القديم ، بل ان في قصائده ابياتا عديدة جاءت في حدود البحر ، لكن الاستاذ نزار لم يتتبع الظاهرة حتى علتها فهذا الشاعر مرتبط ايضا بطريقة الشعر التقليدي في الاداء . ان قصيدته غالبا تحمل رأيه في التجربة ولا تحمل التجربة ذاتها ، وهي الطريقة التي يثور عليها معظم الشعراء الشبان . فالتجربةفي هذه الطريقة لا يمنحها الشعر الا الشاعر نفسه وهي تصبح خطبة اذا لم يكن صاحبها شاعرا ... ومعنى هذا ان للطريقة التي تعرض بها التجربة دخلا كبيرا في كشف منابع الشعر فيها . فالتجربة احيانا تتناول وهي في وضع يضيء زواياها الشعرية الكامنة فيها ويمكن للشاعر استغلالها ، وقد توضع التجربة بشكل يخفي هذه الزوايا وعندئذ يصبح على الشاعر وحده ان يعطيها الشعر بواسطة حذقه وطول ممارسته للكتابة ، اي ان اختيار الطريقة نفسه عمل من صميم الشعر . والشاعر خليل حاوي يتبع في معظم الاحيان الطريقة الاخيرة مدفوعا بحبه للتنغيم والارتباط بالموسيقى القديمة المألوفة ، ولكن شاعريته الكبيرة تحميه دائما من الخطر الذي نخشاه .. وهو في هذه القصيدة يسخر من الحضارة الاوروبية الزائفة التي تميع الفكر وتقتله في عيد المساخر وضباب الفحم ... في اوروبا .

ليلة الميلاد ، لا نجم
ولا ايمان اطفال بطفل ومغاره
ليلة الميلاد ، نصف الليل ،
شارع يفرغ ... ضحكات حزينه .

وعندما تكون الضحكة حزينة ، اي عندما يتعكر العمل الانساني بعمل اخر يضاده ، لا تكون الحرية ولا الامن ، وانما تكون حضارة زائفة ميتة ، ومع ذلك فما زال عندنا في الشرق من يسجدون لها .

نحن من بيروت ، مأساة ، ولدنا
بوجوه وعقول مستعاره
تولد الفكرة في السوق بغيا
ثم تقضي العمر في لفق البكاره
اخلعوا هذي الوجوه المستعاره .

بحيرة الزيتون – يوسف الخطيب

انا مرتاح جدا للنغم المتأني الحزين ، الذي يسيل في هذه القصيدة الحزينة ، وانا احس انني في حاجة دائما لترتيلها كما احس احيانا انني في حاجة ماسة للبكاء ، ولا ارحب ان يدفع هذا الكلام واحدا من المتحمسين ليقفز في العدد القادم ملقيا علي انا وعلى الشاعر خطبة في فضائل التفاؤل والايمان بالنصر . لانني جد متفائل ، ولا يشوب ايماني بالنصر ذرة شك وكذلك الشاعر ولا شك ... بل كذلك قصيدته هذه الحزينة ذات النغم المتأني الحزين . وليوسف الخطيب شاعر مأساتنا في فلسطين نذكر هذا الفضل ، فضل جعلنا دائما في حالة حضور مع مأساتنا :

تظل جدائل الزيتون طول العام مرخيه
على دار لنا في وحشة الاطلال منسيه
يلوح ركامها المهجور اشباحا ضبابيه
... وفيما يسقط الزيتون في الريح الخريفيه

. . . .

تفيض بحيرة مسحورة الاضواء قدسيه

تصور ، لقد اعطى الشاعر ارتخاء جدائل الزيتون صفة العمل الارادي ، فصارت مرخية بارادتها .. انه فيما هو يصور حزن الزيتون ويشركه في الشعور بالمأساة ، بكلمة « مرخية » يضع شيئا اكثر من ذلك .. يجعلك تحس ان الزيتون فعل ذلك بارادته من فعل « تظل » وعندئذ تخرج من هذا البيت الحزين بشعور رائع هو ان نفس الشاعر تتوهج بالحيوية والتوثب والاستعداد وحب الارض التي تضم الزيتون والريح الخريفية والبحيرة المسحورة ... ومن ثم تنتقل لك هذه المشاعر فتهتف معه وانتما تنظران الى القرية المحتلة من خلف الاسلاك الشائكة :

اقريتنا ، بلاك ، بلا تراك الخصب ، من نحن ؟
تكاد خيامنا – حتى اليوم – بريبها الظن !

سوى انا ، وان طال الزمان ، وشاخت السن .

ففي ارحام نسوتنا ، بذور الثار نجتن .

والبيت الاخير رائع ، ان الرجل والمرأة العربية يخصبان لهدف ابعد من اللذة : للثأر !

وبعد .. فانا لم اتحمس لطريقة البناء في القصيدة .. ان الاغاني التي يترنم بها الصقر ، والنجم ، لم تكن في حاجة الى مقدمات يقول فيها الشاعر انه سأل الصقر والريح فقالا كذا .. وانه سأل النجم فقال كـذا ....

ثم ... هذا البيت ... لم خرج عن الوزن المفروض ؟

تحوم على جدار .. كان للاحلام ، كان .

رسالة من القرية الشمالية ـ يوسف الصائغ

ليست فيها ـ وانا آسف ـ الا

من الحقول ـ حيث لا حقول في الشمال .

انا اشد بسمتي اليك .

اغنية خضراء ـ صلاح عبد الصبور

صلاح عبد الصبور ، شاعر مجتهد يتعب ويعرق من اجل الحصول على كلمة هو ، وهوفي سبيل ذلك دائم الرحلة في الكنوز التي تعطي للثقافة العربية في مصر عبيرها الخاص ، الاغاني الموروثة ، الف ليلة وليلة ، حوانيت الجدة ، القرآن، كل ذلك من مصادر صلاح عبد الصبور شكلا وموضوعا ، وقصيدة « اغنية خضراء » فيها من هذه الكنوز خيران كثيرة . انها اولا تجربة الجيل المثقف الذي يضم صلاح والذي خرج للحياة ليفتح عينيه على مثالين جديدين للحب والمجتمع ، وهو لذلك يشعر بقسوة الجفاف والجدب الذي يحيط به في مجال العاطفة وفي مجال الحياة ، ان جيلنا يضيع عمره في الليالي المتخمة بالاوزار والافكار ، انه يتمزق لانه يمارس ما لا يعتنقه ، ويعتنق ما لا يستطيع ان يعبر عنه ، شيء واحد سلم لجيلنا .. الامل والتغني به ....

ومجال صلاح في هذه القصيدة عالمان .. الاول عالم الغربة التي نفي اليها الشاعر وهو يعبر عنها في القصيدة تعبيرات مختلفة .. التيه ، الصحراء ، الليل ، الاوزار ، الايام الجائعة .. والعالم الثاني اخضر ، والخضرة تتردد في القصيدة كثيرا .. الاغنية خضراء ، والمحبوبة فيروز . وهي خضراء العينين بلون الامال .

فليشملني ظل العينين الخضراوين

ولتخضر الكلمات بروحي

ولترقد ليلاتي في بحر السعد الاخضر

ولتورق خضراء الاصباح

خضراء بلون الفيروزه

وبين هذين العالمين تسبح اغنية صلاح من الشوق الى الليل الى وفود الملكين (الشعر والحب) واخيرا الطرق على باب فيروزه .

انها دعوة مخلصة لاننا ظماء حتى البكاء ولكننا نعرف ان اجداب عصرنا مصطنع ، وان امكانيات الخصب المخبوءة فيه كبيرة ، ونحن كذلك نعرف اقدارنا .

فلتفتح لي الابواب فقد اقصاني الحجاب

ومكاني لم يملاه غيري انسان

يا حـبي

فلتفتح لي الابواب ، انا الشادي الفارس

اشعاري ورد البستان

تمر الركبان على الوديان

وانا من فتيان القريه

اوفاهم في الحب

وشجاعة قلبي مرويه

انها من انجح قصائد صلاح عبد الصبور ، كل شيء فيها مختار مقدر ، ومنذ ان اخرج صلاح ديوانه الاول وهو يبدأ مرحلة جديدة يسعى فيها نحو ايجاد المصطلح الذي يلتقي فيه مع قرائه بسهولة ـ كما نبهنا الى ذلك بدر الديب صاحب مقدمة ديوان «الناس في بلادي ».

ان صلاح عبد الصبور بعد ان حطم في ديوانه الاول المصطلح القديم يسعى كما نسعى جميعا لاكتشاف المصطلح الجديد . واول ما يمكن عمله في سبيل ذلك ، هو تفجير القوى النغمية في الشكل الجديد ، ولهذا العمل فائدة كبرى ، فمعرفة الشاعر بهذه الامكانيات ودراسته لها وترويضها على اعطاء نفسها له يضع يده على اول الطريق للوصول الى المصطلح الجديد .

ملاحظة واحدة احب ان اوجهها لصلاح ، هي انه وضع مفتاح عالمه الشعري في يد الكلمات البخيلة ، كل كلمة بمفردها ، وقد جعل هذا رحلة القاريء العادي في القصيدة شاقة وربما مؤنسة .. كنت سأدعوه الى تجربة وسائل اخرى كالمشهد الواقعي المقتطع من الحياة اليومية ، والحوار ، ولكني تذكرت ان هذه القصيدة لا تحتمل ذلك لانها أغنيـة .

شاطيء نهد ـ صفاء الحيدري

تنهدات صوتية ملونة ليس فيها شيء مربوط الصلة بالكلمة التي وضعت بجانب اسم الشاعر السعيد .. « بغداد » . ان هذه الكلمة بجانب اسم عبد الوهاب البياتي وعدنان الراوي ، وبدر السياب لها طعم آخر !..

اغنية للصامدين ـ ناجي علوش

انا أكره الماكياج خاصة ذلك الماكياج الثقيل الذي لا تكاد الملامح الحقيقية للوجه تظهر من تحته ، وقصيدة الاخ ناجي علوش برغم احساسي بصدق الشاعر وسمو الهدف الذي يدفعه للكتابة لا تكاد تظهر من تحت المحسنات التي تثقل ملامحها ..

الليل يثقله الانين

وانا وانت حكايتـــان

تتوهجـــان

ان هذه الصفة التي احتلت مكان بيت كامل زائدة ولا تفيد الا تنغيما مفتعلا لا حاجة لنا به ، وكذلك يفعل شعراء كثيرون .. والشاعر الذي لا يستطيع ان يشكل البيت بحيث يستوعب الموصوف والصفة شـاعر عاجز الا اذا كان يفعل لضرورة فنية ..

وهذه الصفة :

حلمت بها ايـامنا **العفنات** ... ايام الهوان

انها تستعمل بكثرة ، وهي هنا في غير موضعها ، فالعفن يفيد فساد الشيء ذاته وايامنا ليست عفنة وان كان فيها اشياء عفنة ، ولقد كان يمكنني ان اقبل هذا البيت دون ان اتحرى هذه الدقة الموضوعية لو انني متأكد ان هذا الوصف يوضع دون تحديد ودون قصد ، ان الشعراء يلقونه في قصائدهم وهم يعبرون عن ضيقهم بالحياة ..

وغير ذلك ، فالقصيدة مثقلة بالصفات التي لا داعي لها الا رغبة الشاعر في تنفية انفعالاته القوية التي لم يستطع ان يعبر عنها بواسطة الصور تعبيرا يضع عواطفنا تحت تصرف وهجها ..

فالليـل مختنق الشكاة

ولصوصه .. يتدافعون .. ويبحثون ..

عن معقل .. يسع الجناة (يقصد « يسعهم ») فالجناة هم اللصوص)

عن معقل .. لا تستطير اليـه .. ريح المنفوان

وتضج فيـه مقلتـان

تتوقـدان

وتمزقان .. رؤى (اللئيم) رؤى (الاثيم) .. رؤى الجبان

ان القصيدة تتأرجح بين الصياغة الكلاسيكية وبين الصياغة الجديدة تبدو فيه كل منهما غير جيدة .. ولكن هناك تعبيرات اعجبتني وهي التي تشير الى ان ناجي علوش زميل موهوب مثل :

من قبر والدك الذي دفنوه في عـين الزمـان

لترى ارتعاش النور في « وهران » اغنيـة السنين

عذابات الليـل ـ كمال عمـار

تجربة صادقة جدا نحسها كلنا وهي نفس تجربة صلاح عبد الصبور ، وهي نفسها تجربة لي كتبت فيها قصيدة « الى اللقاء » التي ربمـا نشرتها الآداب قريبا ✱

ان كمال عمار مثل كل الشبان المثقفين يخشى النهار ويحب الليـل لان فيه الاصدقاء ، وفيه الكلام عن تجاربنا العاطفية ، وفيه الهروب من المواقف المذلة الموجودة في جو العمل بالنهار .. انها تجربة حية لكن بعض تعبيراتها ما زالت غير واثقة بنفسها..

كالعائد من تشييع صديق وارته الارض

ما الداعي الى « وارته الارض » . ان تقديس الارض والاشـادة بها لا يدعونا لحشرها في كل تعبير ، وهناك ملاحظة اخرى احب ان اوجهها الى كمال والى زملاء آخرين يجربون الاستفادة من الاسلوب الحديث العادي ، وهي ان هذه التجربة لا تعني ان نترجم التعبير كاملا الـى الفصحى ثم نلصقه في قصائدنا لان ذلك ينقل التجربة من الابـداع والتجديد الى حضيض الاسفاف !

واخيرا .. كنت احب ان لا يستطرد الشاعر ويتحدث عن ضوضـاء النهار .. لقد فتتت ذلك الجربة وقلل من تأثيرها ..

(✱) هذه القصيدة منشورة في هذا العدد (الآداب)

احلام صياد صغير ـ حسن فتح الباب

حسن فتح الباب شاعر صديق هيأت له تجربة حياته كضابط بوليس ان يتعرف على الحياة الحقيقية التي يحياها معظم مواطنيه ، ومعظم قصائده التي كتبها عن الصيادين تحمل فعلا تجارب صادقة صادفها بنفسه اثناء جولاته في الليل والنهار كضابط وكشاعر في احدى قرى المنوفية (اقليم من اقاليم مصر العليا) .. لكن هذه القصيدة بالذات لم تعجبني وانا ارى مستواها اقل كثيرا من عدة قصائد رائعة قرأتهـا واسمعني اياها وكلها تدور حول حياة الصيادين الفقراء المتناحرين على السمك الصغير الراقد في اعماق بركة كبيرة تقع عليها القرية التي كان يحكمها الشاعر ..

واول ما الاحظه على هذه القصيدة انها بلا تجربة ، وهذا ما دعا الشاعر الى بعثرة طاقته في كتابة مقدمة طويلة قبل ان يتحدث عن الصيـاد الصغير ..

ثانيا .. الاحظ نفس الملاحظة التي اوردتها اثناء الكلام عن قصيدة ناجي علوش ، وهي ان التجميل الخارجي يثقلها بشكل ملفت ..

والملاحظة الثالثة هي ان قصيدة عبد الوهاب البياتي في نغمها وطريقة بناء صورها تسربا الى هذه القصيدة في غفلة من الشاعر ..

واخيرا .. وانا اعرف حق المعرفة شاعرية حسن فتح الباب واصالته اؤكد ان هذه القصيدة فرت من بين يديه بعد كتابتها مباشرة دون مراجعة!

رقصات اشبيلية ـ عبد العزيز عبد الفتاح محمود

ليس في هذه القصيدة الا بيت :

افق الشرق يطل على السـور

ولكل الشعراء العرب تحياتي .

احمد عبد المعطي حجازي

القاهـرة



بقلم محمد صدقي

لا اعتقد انني اتواضع اذا ابتدأت حديثي مع اصدقائي قراء مجلة الآداب وانا استهل حديثي اليهم في مناقشة قصص العدد الماضي بقولي .. انني لست بناقد ..

لكنني لكي احقق رغبة « الآداب » في مناقشة قصص العدد الماضي.. ارجو ان يكون واضحا ان السطور التي سأكتبها حول تلك القصص ليست نقدا ادبيا فنيا متكاملا .. بقدر ما هي علامات طريق لاحظتها وانا استمتع بقراءة هذه القصص .. اسجلها وانا ادرك تماما ان رسالة النقد فـي رأيي انما هي عملية بناء مقومة وليست عملية تقويض وهدم .. عمليـة ليس لها من هدف حقيقي الا الرغبة الصادقة للمساهمة في البنـاء ... المساهمة التي يتوخى الناقد معها استكشاف الجوانب الرائعة المزدهرة المضيئة في العمل الفني .. قبل ان يبحث عن جوانب الضعف فيه ..

وابدأ بتناول الفصل الثاني من رواية الدكتور سهيل ادريس الجديدة .. الفصل الذي يحمل عنوان « الليل والعمامة »

انه يعرض بطل القصة سامي وهو يبيت ليلته الاولى خارج منزله .. حين يدخل المعهد الديني من اجل ان يحقق رغبة والده في دراسـة امور الدين ..

والدكتور سهيل ادريس مع انه هو الذي يقدم لنا بطل القصة على

لسان الغائب .. الا انه مع ذلك يدع سامي يجتر احساسه بالعالم الجديد حوله في استقراء داخلي لنفسه ..

فهو حين يصفه يشعر بالليل والوحدة من حوله .. حين يقدم لنا بطل القصة وهو يجتر شعوره في غربته بين تلك الجدران الاربعة التي ينام داخلها لليلته الاولى بعيدا عن اهله .. يملأ وجداننا بمقدرته على عرضه لاستشفاف وجدان سامي للصور والعواطف الاهلية السابقة على دخوله المدرسة .. والتي يبني عليها الدكتور سهيل ببراعة فنية استقباله للحدث الجديد الذي يعيش لحظاته ..

لقد حاولت امه - ام سامي - ان تثنيه عن دخول المعهد الديني ... لقد قالت له .. ان ذلك سيكون قاسيا عليه .. وانه قد لا يحتمل الحياة الدينية وهو بعد صغير في مثل تلك السن ..

ويواصل الدكتور سهيل ادريس اضاءة الجوانب الداخلية في نفس سامي خلال اجتراره للاحاديث التي دارت بينه وبين امه .. وبين امه وابيه .. حول التراكمات العقائدية التي تدور احداث القصة في مجالها وحول وصف تأثيرها على تلك الاسرة حين يتحرك في مدارها ابطال القصة .. والتي تستهدف القصة خلالها مناقشة قضية البعث في الاسرة العربية .. البعث الذي تمور ارهاصاته في نفسية سامي .. تحت ركام سميك من المحاولات المتنوعة التي يعانيها سامي خلال الفصل الاول والثاني من الرواية ..

فحدث لبس العمامة والجبة الذي يتعرض له هذا الفصل يعبر بأكثر من وسيلة فنية ونفسية عن وضع علامات كثيرة على طول الطريق الذي سينتهي بالبعث الذي اعتقد ان نفس سامي ستنبهر له في نهاية القصة ...

ندرك ذلك ونحن نعيش بين سطور الفصل الثاني مع سامي .. وهو يصحو من نومه في ليلته الاولى ليقفز من سريره ليصلي الفجر في ذلك الجو الديني الجديد عليه ، هنا على الرغم من استشفافه لروحانية ذلك الجو واحساس التواجد بينه وبين وجدانيات علاقاته بأبيه حين كان يصلي الفجر في تلك القرية التي كانوا يصطافون فيها منذ عام ..

ويصلي سامي الفجر مع زملائه الطلبة كما يهبط معهم بعد ارتداء ملابسهم الى قاعة الدرس ليبدأوا حفظ القرآن ..

ومن خلال ذلك الوصف الرائع لحجرة المذاكرة وسامي بين زملائه في الفصل يستمع لشرح المدرسين مواد الدين والعلوم واللغة الفرنسية وشعور القربة قد بدأ ينجاب عن نفسه قليلا ليملأ قلبه باحساسات جديدة تنساب الى وجدانه كلما هبط الليل وحن الى اخوته ورفاقه في الحي .. حتى يقبل ابوه بعد ثلاثة ايام يزوره مع احاديث الشوق فتدمع عينا سامي وهو يحدثه .. كيف اشتاق هو الاخر الى منزلهم ، والى امه ، حتى اوشك ان يهرب من المعهد ليراهم .. ثم يطول الحديث بينه وبين ابيه حتى يغادره بعد ان يعطيه طعاما كان قد احضره له في صرة قبل ان يلحق به ويستوقفه بسؤاله :

- انك لم تقل لي متى سيلبسوننا العمة .. والجبة ..؟

والعمة والجبة رمزان هامان يعبران عن اشياء كثيرة في القصة وتدور حولهما احاديث واوصاف واحداث تشكل فيما اعتقد نمو ارهاصات قضية البعث الذي يعالجه موضوع القصة .

وحين يجيب الاب على سؤال سامي بأن الخياط السوري سيصل بالجبب بعد غد ... « وانني قد اوصيت بك الناظر خيرا ... ولكنهم يفكرون في انك لا زلت صغيرا ... وانه يحس تأجيل الباسك الزي الى السنة القادمة او التي تليها ..»

حين يجيب الاب بذلك الجواب على سؤال سامي .. يعرض لنا مؤلف القصة لحظات نفسية معبرا عنها بغاية الجمال في ادائه الفني ... مصورا تلك اللحظات الانسانية التي تتأزم فيها نفسية سامي حتى يصل الى قمة الاحساس بذلك الحدث الانساني في اعماق بطل القصة وهو يقول لابيه « .. اذا كان الامر كذلك فاني لن ابقى في هذا المعهد يوما واحدا ..»

ويدور حوار بين سامي وابيه .. ينتهي بأن يطمئنه ابوه بأنه قد تحدث مع الناظر طويلا .. وانه لا بد سيلبس العمة والجبة ..

وتمضي الايام بسامي في المعهد الديني ..

الطلبة ينتظرون معه الخياط الذي سيأتي بالجبب في صبر نافد حتى يسمعوا من الناظر ان الخياط سيأتي غدا .. فلا يكادون يصدقون كأنما دمشق التي يقطنها ذلك الخياط في اقصى الارض ..

لكنهم بعد ان يفرغوا من دروسهم يتناولون طعام الغداء في ذلك اليوم ثم يعودون الى فصولهم الدراسية يفاجأون بالخياط في وسط القاعة الكبرى وقد احضر معه ثلاث حقائب جلدية كبيرة فيها جببهم جميعا ...

ويبدأ الخياط يلبس زملاءه واحدا واحدا جببهم حتى يأتي الدور اليه فيرتدي جبته ثم ينتقل الى مدرس التفسير الذي اخذ على عاتقه ان يلف العمامات للطلبة يمد له يده بطربوشه ليلف له عليه العمامة ..

غير ان مدرس التفسير ما كاد يفرغ من لفها حتى انفرطت من بين يديه فعاد يحاول لفها من جديد لتنفرط مرة اخرى .. فيعود يلفها لثالث مرة وهو يقول له :

- انت منحوس .. ستكون شيخا منحوسا ..

وينظر زملاء سامي لقامته القصيرة في الجبة والعمامة حتى يضحك منه احدهم فيضحك معه باقي الطلبة ويغضب منهم الناظر وسامي يفكر .. ترى لماذا يضحكون ... ألانه صغير السن ... ام لان قامته قصيرة؟!

ويشغل هذا السؤال بال سامي .. حتى يسمح لهم الناظر بأن يذهبوا الليلة للمبيت في بيوت عائلاتهم ، حيث يقصد الى منزله تحت المطر تستقبله امه على باب الدار دون ان تعرفه في لباسه الجديد اول الامر .. حتى تلحظه عينها اخيرا مع فرحتها بلباسه الجديد تسأله وقد بلله المطر :

- لكن ما هذه الدموع التي على عينيك ووجنتيك .. لماذا يا حبيبي.. اتبكي لانك اصبحت شيخا ... لماذا يا ..

تسأله ذلك السؤال .. وزوجها يقبل متعجبا منها .. يخبرها ان ما على وجهه انما هو قطرات من المطر وليست دموعا .. بينما اخذ يساعده في خلع عمامته وجبته باسما في وجهه يدعو له .. وسامي يقف امام المرآة يمسح وجهه ثم يتطلع الى المرآة هائما يفكر .. لا يدري ان كان حقا يمسح عن وجنتيه قطرات من المطر او دموعا ..

هكذا ينتهي الفصل الثاني من الرواية .. متشابك النسيج النفسي.. ملتحم العلاقات العاطفية بين ابطال القصة .. مصورا احساسا نفسيا متجاوبا في تصاعد هارموني ينسق علاقات ابطال القصة بعضهم ببعض في اداء سليم .. يؤكد في حدود ما نشر من الرواية حتى الآن .. ان التجربة الفنية اوالمعاناة النفسية عندكاتب الرواية من حيث هي مصدر لمادته الفنية في انتاجه قد تكاملت بشكل سليم .. كما اعطت هذه التجربة الفنية واللاشعورية خلال المراحل التي مرت بها تلك التجربة

التي مر بها سامي بطل القصة حتى الآن ..

القمر خلف الجبل

والقمر خلف الجبل قصة للاستاذ مطاع صفدي تصور تجربة فتاة عربية تحيا الواقع الشرقي الذي يسور حياتها بسور سميك من القهر التقاليدي .. لا تستشعر معنى لارادتها .. ولا تمارس اي مدلول حقيقي يعبر عن وجودها .. لان قضية الاختيار في حياتها حق لم تكسبه بعد .. حتى تخوض هذه التجربة التي تفسرها قصة القمر خلف الجبل .. تجربة فتاة صغيرة جميلة .. في الرابعة عشرة من عمرها تصحو لصباها ذات يوم لتسمع لامها تحدثها اثناء اصطحابها لزوج لا تعرف عنه شيئا .. لم تره ولم تحبه ولم تقل فيه رأيا على الاطلاق .. لتتزوجه .. هكذا .. بالامر .. بلا احترام لحرية اختيار او اعطائها فرصة لممارسة عواطفها ...

ويسرد لنا الاستاذ مطاع صفدي قصته مبتدئا بلقاء بين بطل القصة وبطلتها عن طريق احدى صديقاتها في نزهة سيارة حيث يتعرفان على بعضهما حين يختليان ببعضهما في تلك النزهة خارج ضواحي دمشق ... فيعرف انها قد تزوجت في الرابعة عشرة ثم طلقت من زوجها بعد سنوات دون ان تستجيب لرجل مهما كانت ميزته .. حيث ظلت عذراء .. عذراء الروح والجسد ..

لكن هذه العذراء .. هذه المرأة .. يحدث لها الامر الذي يحدث عادة لكثير من النساء فتحب بطل القصة .. وتتواعد معه منذ لقائهما الاول به ليلتقيا سرا ... وليأخذها الى منزله .. حيث يصف لنا الاستاذ مطاع صفدي ما حدث بينهما في حجرة النوم فيقول :

« ومن بصيص سيجارته وهو مستلق على السرير .. كان جو الغرفة ما يزال عميق الظل .. وعندئذ لم يبق للاءة النوم ثمة وجود .. فقد اصبحت اشبه بالهباب الاثيري المغلف دون غلاف لقامة انثوية صغيرة من لهب مرصوص .. » ثم يصف كاتب القصة لنا في نصف صفحة ما يحدث في حجرة النوم ابتداء من « وبلغت حافة السرير واستلقت على ظهرها الى جانبه » .. حتى كان القمر ما زال خلف الجبل .. وقد انهار الصمت والرمز والمجهول الحلو الذي غلف كل شيء في هذه الغرفة الضائعة من خارطة الوجود فقد زعقت اميره بصرخة مرعبة جعلت رفيقها يقبض على خصرها ويضمها الى جذعه بقوة شيطانية خارقة .. »

ولا اريد ان استمر في عرض بقية القصة .. لان هذا يمكن ان يعبر عن نهايتها ..

ولكن الذي يستوقفني من علامات طريق هذه القصة ثلاث علامات .

اولا .. المفهوم البنائي الانساني الذي يكمن وراء ابعاد حكاية القصة .. وجلال ما يعبر عنه واقع الفتاة العربية التي من حقها ان تعطش للحب .. لحنو الرجل .. حتى تندفع في غير طريق بناء حياتها حين لا تمارس حقها في اختيار اخص خصائص وجودها .. وهذا هو ما احب ان يكون جوهر التجربة التي عاناها الصديق كاتب القصة .. بصرف النظر عن منهجيته او تخطيطه لاحداثها ..

اما العلامة الثانية فهي المزج الرائع الاداء بين وصف الجو وتحريك ابطال القصة من خلال الزمان وقمة الانفعال بالحدث مع استبطان الخواطر والاحاسيس التي كانت تمور في وعاء بطلي القصة الداخلي .. وهذا طبعا لا يلغي رأيي في ان المؤلف قد اضفى على الحوار بين بطلي القصة جوا فلسفيا اعتقد ان الوصف في القصة ونتائج الحدث نفسه كانت تغني عنه ..

اما العلامة الثالثة التي كنت احب ان تفسر لي .. فهي كيف كان بطل القصة يود ان يبدأ مع بطلتها شيئا جديدا .. شيئا حقيقيا .. وكيفية افتراس الواقع لها وهي في الرابعة عشرة من عمرها .. ثم معنى ان ينتفض قائلا لها انك ستبقين عذراء .. انك حرام على كل رجل .. ثم يتشبث بها ثانية .. حتى تدرك الفرق بينه وبين كيس اللحم صاحب الذهب والبنادق الذي هربت منه ..

هذه العلامة التي كنت احب ان تفسر لي كل ذلك هي نوعية نسيج العلاقات الاجتماعية .. او نوعية عمل بطل القصة او المضمون الطبقي لكل منهما .. اوحت شيئا عن اسرة البطلة او افكار البطل الخاصة ... لان مثل هذه العناصر في بناء القصة الفني يمكن ان تعطي للقارئ افكارا تحدد موقفه من القصة .. كما تعطي استجابات معينة لبعض مواقفها كما قد لا تعطي اقتناعا اطلاقا بأي تصرف من تصرفات ابطال القصة مهما قيل ان فكرة القصة تعبر عن ازمة امرأة ورجل .. فهذا ما ارفضه .. رغما عن اعجابي باسلوب عرض القصة الذي كان يمكن ان يكون رائعا في رأيي لولا حكاية الكاميرا القلمية التي استعملها الكاتب في حجرة النوم ...

اثنتان وثلاثون طلقة

اما قصة « اثنتان وثلاثون طلقة » قصة الاستاذ عثمان سعدي فهي قصة مقاومة بطل جزائري ..

جندي جزائري يحارب في سبيل تحرير الجزائر .. تبدأ القصة في تقديمه لنا جريحا مغمى عليه في الجبل ..مصابا بطلق في فخذه واصابة اخرى في اذنه .. يصحو لنفسه من اغماءته يشكو شدة الالم .. وهو يتذكر لماذا يوجد هنا ..

انه يجتر صورا وافكارا كثيرة عن واقع حياته ووجوده ملقى هكذا .. وكيف اصيب في معركة بينه وبين الجنود الفرنسيين بعد ان غادر صفوفهم وانتقل ليحارب مع ابناء وطنه الجزائريين من اجل تحرير الوطن ..

والجندي صالح بطل القصة حين تبتدئ سلسلة خواطره تمر بذهنه يحكي لنا في تسلسل فني موفق كيف انه لا يزال يذكر ذلك اليوم الذي

دفعته فيه انفته من ان يعيش عالة على ابيه الى التطوع في الجيش الفرنسي .. ثم كيف ذهب الى الهند الصينية ليحارب في صفوف فرنسا حتى عادوا به الى الجزائر وقالوا له ولمن معه انكم ستحاربون « الفلاكة » .. وادرك ان الفلاكة هم جزائريون مثله عرب ومسلمون ... وكيف هرب مع بضعة بنادق وقنابل الى صفوف المجاهدين الجزائريين ابناء وطنه يقاتل بينهم اعداء بلاده حتى يقع اسيرا في احد المعارك بين يدي احد الضباط الفرنسيين الذين يعرفونه معرفة جيدة فيسبه ويلعنه ويرفع رشاشه ليفرغ كل خزائنها في رأسه ويتركه جنود فرنسا حيث نلتقي به في اول القصة مصابا في الجبل غائبا عن رشده ... قبل ان يفيق ..

اما ملاحظاتي على هذه القصة الرائعة المضمون .. فهي ملاحظات عابرة يمكن ان نلخصها في الآتي :

١ ـ اساس الحادثة يحمل بين طياته افتعالا ظاهرا .. اذ ليس من المعقول ان يضرب البطل برشاشة معبأة باثنتين وثلاثين طلقة من ضابط مفروض فيه اجادة الهدف اثنتين وثلاثين طلقة دون ان يصاب الا بطلقة واحدة في طرف اذنه .. في الوقت الذي كان كاتب القصة يستطيع ان يتحاشى ذلك الافتعال بجعل بطل القصة يصاب بطلقة واحدة ثم يهرب من الجنود الفرنسيين ..

٢ ـ طريقة العرض لحادثة القصة محشوة بالفاظ ضخمة غير طبيعية .. المقصود منها فيما اعتقد هو اشعال نار الحماس في نفس القارىء .. وقد كان من الممكن الاستغناء عنها بما تحمله القصة فعلا من امكانيات الاثارة وصور البطولة التي اجاد الكاتب التعبير عنها بشكل اخر ..

٣ ـ الاجترار النفسي للصور والاحاديث عند بطل القصة وهو ملقى مصاب في الجبل في اول القصة .. كان من الطبيعي ان يحمل الى ذهن بطل القصة صورا من مكان وجوده .. او صورا ذهنية قريبة منه .. او بعيدة مشوشة .. وليست واضحة هكذا .. ومنطقية بعيدة الغور ... ذكية .. ومزدهرة بالوجدان الوطني هكذا ..

٤ ـ الحوار بين بطل القصة والاطفال الذين انقذوه لم يكن طبيعيا .. في السرد او الموضوع .. ويبدو لي ان الكاتب قد حمل الاطفال وواقعهم حماسا اكثر من اللازم .. وانا لا انكر وجود بطولات اطفال عرب كهذه البطولة .. لكن البطولات تحدث بسيطة .. وعادية .. وساذجة احيانا كثيرة .. وتحمل في نفس الوقت ضخامة عظمتها ..

٦ ـ شيء آخر احب ان اشير اليه .. ذلك هو اعجابي بالوصف والسرد الرائع خلال عملية التقاء صالح بزملائه المناضلين الجزائريين حين هرب اليهم صالح .. ثم موقفه من الجندي الحارس الذي اخذه الى مكان قيادة المناضلين الجزائريين .. لقد كان هذا الجزء من القصة يمثل قمة جلال الروعة في الاداء الفني عند الكاتب .

وبعد ...

فهذه مجرد اشارات لعلامات قابلتني في طريق هذه القصص الثلاث من عدد الاداب الماضي .. ارجو ان يتقبلها اصدقائي كتاب تلك القصص وانا خفيف الوزن على قلوبهم .. ولهم اطيب التحيات ..

القاهرة   محمد صدقي

سوريا

صدى المهرجان في المعرض

لمراسل «الآداب» الخاص

نهضة بدون فن ..!

اعتاد موسم المعرض ان يخصص جزءا كبيرا من نشاطه لعرض بعض اللمحات الفنية على مسرح المعرض الكبير، الذي ادخلت عليه بعض التحسينات الضرورية هذا العام .

والظاهر ان القائمين على النشاط المسرحي في المعرض قد اخذوا بمبدأ تنويع الاستعراضات الفنية حسب الاذواق المختلفة ،فمن فرق الرياضة الفنية (الالعاب البلهوانية) الى فرق التمثيل المسرحي ، الى الفناء الشرقي الى الموسيقى السمفونية الى المنوعات الفنية من رقص وغناء ومرح... واستعد الجمهور في الحق لان يمتع حواسه واذواقه المختلفة بشهر غني من الابداع الفني .

لقد بقي جمهورنا العربي ، في سوريا وفي اكثر الاقطار العربية الاخرى، مجردا من حق امتاع حواسه وتنمية ذوقه بالانتاج الفني طيلة نهضته الحديثة .. وظل الكتاب والسينما ، في وقت متاخر ، هما الوسيلتين الوحيدتين لصلة الجمهور بالفن . ولكن ثمة انواع من الفنون كالمسرحية التمثيلية ، والمسرحية الموسيقية (الاوبرا والباليه) والعزف السمفوني الحي والغناء الحي كذلك ، لا تجدي في نقلها السينما او الكتاب .

ويضطر الجمهور المتذوق لمثل هذه الفنون ان يتابع انتاجاتها بشكل مجرد غير حي، سواء بملاحقة اخبارها او بالقراءة عنها ، معروضة خلال الكلمة ومثل هذه الحال تبقى الجمهور في حدود الانفعال السلبي الذي يؤدي به غالبا الى تناسي حاجاته الفنية والى الدور في تفاصيل الحياة اليومية الفردية ، الغارقة بالمصالح وبصراع المصالح، دونما بهجةحقيقية ودونما مشاركة اجتماعية في مثل هذا المستوى من الاثارة الفنية الانسانية.

وفي الواقع فان الحياة الفنية متقلصة الى درجة مريعة من الفقر والجدب والرتابة حتى لم يعد ثمة وسيلة لارواء ما تبقى من النزوع الجمالي الا الكلمة او الادب بشكل عام . والادب هو نفسه لا يستطيع ان يعطي كامل مردوده الفني، وانيتطور وينمو بصورة طبيعية ، ما دام معزولا عن باقي الفنون. ولعل من الاسباب الاساسية في سطحية ادبنا او في تعثره خلال التطور والنمو، وفي عدم مساسه مباشرة بالحاجة الانسانية عند القراء لان يصبح الادب والفن بشكل عام ضرورة حياتية كالمصلحة المادية سواء بسواء ، انه ادب بدون فن يأخذ منه ويعطيه ، يتفاعل في مؤثراته النفسية والاجتماعية معبقية مؤثرات الفنون الاخرى في نفس الجمهور المتذوق .

فالادب عمل فردي ، ويعرض ضمن شيء جامد غير حي هو الكتاب ، ويتذوقه القاريء بمفرده وهو في غرفته وابان راحته وفراغه . ومن هنا كان الادب يقطع الصلة التفاعلية بين المبدع وجمهوره ، أو على الاقل يطامن ويضعف من حدة هذه الصلة ومن تواترها المتبادل بين الطرفين.

بينما نجد على العكس في الفن العرضي ان هذه الصلة تقود الى درجة التواجد والاندماج بين الجمهور والممثلين ، او بينه وبين العازفين والمنفذين .

فالمسرح يقضي على المسافة ، وينقل الفن من حدود التصور الخيالي المائع الى ابعاد مكانية مجسدة مباشرة . ويجعل منتجات الفن وقائع ، بكل ما لهذه الكلمة من ثقل حياتي ومباشرة حسية . وفي لحظات التمتع الجمالي بثروات الانتاج المعروض ينصهر المجتمع داخل المسرح ويتأهب كله لان ينفعل الانفعالة الواحدة ، ولان يكتسب الاثر ضمن هذا التوتر الجمالي الجمعي ، فيساعد على تفاهم الافراد ، وعلى انتظام وعيهم ضمن مكتسبات التربية الفنية ، ويرفعهم من قوقعات منافعهم وعنعناتهم الفردية الى مستوى الشفوف الانساني والتربية الجمالية السامية .

واذا ما حفل واقع الحياة الاجتماعية بهذه الاعطاءات الفنية ، من تمثيل وموسيقى وغناء ومعارض فنية ومحاضرات ثقافية واجتماعات شعرية وادبية ، فان هذه الاعطاءات جميعها ، فضلا عن اغنائها لبعضها ، تستطيع ان تؤصل الحس الفني عند الشعب ، مما يساعد كل فن على حدة لان يكون مطلوبا كحاجة من الحياة اساسية لا يمكن الاستغناء عنها ، وان يجعل لقاعدتنا في الواقع المادي قاعدة انسانية اخرى تعجل في تفتح امكانياتنا الحضارية التي تحتمها علينا مرحلتنا الانبعاثية الحاضرة (1)

ولنعد الى مهرجان المعرض الفني فنقول : لقد لا حظنا جميعنا كثافة الاقبال على جميع حفلات المهرجان من قبل مختلف طبقات الامة . وكل هذا يقيم الحجة على شدة حاجة جماهيرنا لمعايشة الانتاجات الفنية المختلفة وعلى ان تطورنا الحضاري قد بلغ درجة اصبح فيه من الاجرام في حق جيلنا ان نحرم تربيتنا الخالقة من روائع هذه الفنون التي كانت دائما اساسا لتاريخ كل حضارة حقيقية .. ففي دمشق وحلب وبيروت وبغداد وغيرها من الحواضر العربية لا يكاد يشهد المرء مجالا لارواء ميوله الفنية الا في دور السينما بما تعرض من افلام ان خلت ، في ندرتها ،من اثر التوجيه القومي او الاخلاقي المنحرف ، والتهجين الفكري والكياني ، فان فعاليتها الفنية تظل بأردة غير خلاقة ضائعة تحت الوف الهيجانات الغريزية التي تشحنها جسد المشاهد ونفسه .

1) في رسالة قادمة سنعالج اثر السينما على ذوقنا وحياتنا ببحث افضل

النشاط الثقافي في الوطن العربي

وكذلك نحن لا نشهد بين الوف المدارس التي تبني سنة بعد سنة في المدن العربية مدرسة حقيقية لتمثيل او موسيقى او رسم ونحت .. كان الثقافة هي في العلم دون الفن . وكان اعداد العالم يسبق اعداد الانسان وبعث الانسان في كميائنا المكدسة من الافراد الفريزين .

رغم ان حفلات المهرجان كانت متفاوتة من حيث الجدية الفنية والقيم الابداعية ـ اذ مالت بعضها الى تسلية الجمهور وازجاء وقته اكثر من هز روحه الفنية ـ فانه كان يمكن للحاضرين ان يكتشفوا فيما يقدم اليهم متعة جديدة ونشوة فنية ما. وكان من اطرف هذه الحفلات المهرجان الرياضي الفني الذي قدمته الفرقة الصينية في بداية موسم المعرض . فلقد مزج ابطالها في نفوس النظار الهلع بالشعور بالعظمة والعبقرية والتحسس الفني الجميل . فمن المجازفة بالحياة ، الى الرشاقة في الحركة ، الى روح الابتكار في ايجاد انواع من اللعبات الخطيرة الصعبة الجميلة في الوقت ذاته .. كل ذلك جعل الجمهور عبد لحظات من الروعة قلما عاناها .

ولقد كشفت الصين في فرقتها هذه امام الجمهور العربي ، مع ما كشفت عنه في معارضها وفرقها الاخرى ، عن مثل اخرى للابداع في الحياة . وهنا الرياضة تمتزج بالروعة وبالرشاقة والقوة فتحقق صورتها الكاملة التي سعى اليها الانسان منذ العاب الاولمب اليونانية .

وقدمت الفرقة السوفياتية نماذج من الفنون في بلادها من الرقص الشعبي الى الرقص الكلاسي في الباليه الى بعض الاغاني .. حتى العربية ، الى بعض الالعاب الرياضية كذلك . ولقد برهنت في كل ما قدمته عن قوة التصميم والتنظيم لجعل جميع قوى الحياة من مادية وانسانية تتقدم في ذات السرعة وذات القوة والثروة الحضارية ، بحيث تخلق التكامل في جمهورها المنسجم بارادته وفعالياته .

وحبذا لو اننا متعنا حقا بفرقة كاملة من الباليه الروسية التي هي من اعرق تقاليد روسيا الفنية ، وبفرقة غيرها من الرقص الشعبي ، هذا الفتح الجديد في عالم الفنون الجمعية الذي الحت عليه دول الاشتراكية الديموقراطية كسبيل للكشف عن عفوية الشعب وثروته التعبيرية الايقاعية ، وسبيل لتقوية التعاضد والتحابب بين افراد الشعب الواحد ، وبين الشعوب جميعها .

وهذه المحاولة المتكاملة تذكرنا بالجواب البديهي الذي علينا ان نطلقه لحل مشكلة بداية الفن الجديد في بلادنا .. من اين نبدأ .. وفي الفن نبدأ كذلك من الشعب !

وقدم المعرض كذلك أم كلثوم لحفلتين بيعت تذاكرها في السوق السوداء .. فلا عجب اذ ان ام كلثوم وعبد الوهاب يشكلان قضية قائمة في ذاتها من قضايا الفن في بلادنا ..!

فالسهرة التي تمتد مع آهات ام كلثوم اربع او خمس ساعات ، الصوت واحد ، وتعابيره واحدة ، وجمهور غارق في أساه وطربه ، هذه السهرة رمز عن السديم العربي الذي نناضل للخروج منه للتشكل فوق سدوره ورتابته وجحيمه الانحطاطي .

نحن نجتر ام كلثوم وعبد الوهاب ، وام كلثوم تجتر بضع نغمات من الشرق العتيق منذ اربعين سنة ، وتتجاوب آهاتها من العباسية الى بردى مع حنجرة ام كلثوم الخارقة .

ام كلثوم ظاهرة من حياتنا الفنية يجب ان نتأملها بآهة طويلة كذلك انها ايقاع رتيب لنغمة التثاؤب والتخيل والصبوات الوهمية . ومع كل ما تملكه من كنز حقيقي في الصوت القوي الاصيل ، وفي النغمات الشرقية العريقة وفي اسلوب الاداء الخارق ، فان سهرة ام كلثوم يجب ان تزول من حياتنا كمرض من امراضنا .. ككابوس من الانحطاط العربي لا نزال نرزح تحته ...

ازالة ظاهرة ام كلثوم لا يكون الا بتنظيمها ، بجعلها تدخل دورها الطبيعي في حياتنا الجديدة. انها تراث ، كالرقص الشعبي سواء بسواء. يجب حمايته ولكن بعد ان يخلص من شوائبه الفنية والاجتماعية معا .

وشاهد الجمهور كذلك فرقة نجيب الريحاني التمثيلية . انها فرقة من مستوى المسرح المصري فلها اذن كل عيوبه . ولكنها تنتصر على جزء من هذه العيوب ، بما خلفه لديها الممثل العبقري الوحيد ، الذي عرفه المسرح العربي الحديث ، المرحوم نجيب الريحاني . فرقته تحمل اسمه، وتمثل من مؤلفاته ، وتنفذ بحسب اساليبه ، التي لا ندري كم هي اليوم بعيدة عنه او قريبة منه .

ومصر ، وان كانت سبقت بقية اقطار العرب بالمسرح والاوبرا والسينما الا ان الخطوة الاولى التي خطتها في هذا المضمار ما زالت تراوح في مكانها ، وان كانت السنين عقدتها اكثر . وهذا ينبهنا الى خطر عزل التقدم السياسي عن التقدم الصميمي لروحية الشعب في فنه وثقافته. وما دامت احداثنا السياسية الكبرى ، التي هي كيانية شاملة فيحقيقتها

لا تسايرها كذلك احداث اخرى في روحية الشعب من نوع انقلابيتها فاننا نخشى على انفسنا من الانتفاخ الخارجي على تجويف داخلي .

وكان الحدث الاكبر في هذا المهرجان ولا شك هو فرقة مينابوليس السمفونية - واحدة من اكبر فرق الموسيقى العالمية في امريكا - لولا ان الظروف السياسية جعلت هذه الفرقة تحيي جزءا من حفلاتها في قاعة اليونسكو ببيروت بدلا من مسرح معرض دمشق ، مما حدا ببعض محبي الموسيقى ، خوفا من ان تفوتهم هذه الفرصة ، الى الاستماع للفرقة ببيروت .

وفي الحفلة الاولى (٢٨ ايلول) عزفت الفرقة افتتاحية «اوبرون» لوبر ، والسمفونية الخامسة لبيتهوفن وقطعة « روحيات » لغولد وقطعة La miraculeuse mandarine لبارتوك ، وقطعة « دفني » لرافيل . وكانت الفرقة بقيادة المايسترو المجري « انتال دوراتي » . وفي اليوم الثاني عزفت لروسيني وموزارت وفليحان وكويل ودبوسي .

ولقد برهن رئيس الجوقة على جدارة خلاقة . وابدعت الاوركسترا خاصة في المعزوفات الحديثة . وفشلت في الحركة الاولى من السمفونية الخامسة لبيتهوفن . ولعل مزاج العازفين الاميركيين ما كان بمستوى التعبير العنيف الذي قصده بيتهوفن من تسمية كبرى سمفونياته بعد التاسعة باسم سمفونية القدر . ولقد برز انتال دوراتي كموسيقي مجري أصيل عندما عزف لرائد الموسيقى المجرية بيلا بارتوك . هذا المبدع الذي نظم للموسيقى الشعبية كيانها ومنحها روعتها من خلال الاوركسترا السمفونية ، دون ان ينال شيئا من ميتافيزيك الشعبية .

كان حضور حفلتي هذه الاوركسترا جله من الامريكيين الذين تغص بهم فنادق بيروت وشوارعها الحديثة ، ومن جمهور آخر من المتحذلقين المتأمركين الذين صبروا على مشقة الكلاسيك حتى يثبتوا وجودهم تلقاء اسيادهم . ولم تخل الحفلة طبعا من بعض الهواة الاصيلين الذين لم تساعدهم جيوبهم لدفع اسعار الدرجات الاولى ، وقبعوا في الدرجات الاخيرة قانعين بفوزهم بهذا النصيب المتواضع .

ومن هنا فان تأثير هذا الحادث الفني ظل تقريبا معدوما في الاوساط الشعبية ، ولو قدر للجوقة ان تقدم برامجها على مسرح المعرض ، لكان حدثا جديدا رائعا بالنسبة لالوف الناس الذين لم ينسوا حلاوة الاستماع لاوركسترا فيينا في العام الماضي ، فظلوا يترقبون جوقة اخرى ، تؤكد لهم ثقتهم بذوقهم وبقدرتهم على فهم اروع ما انتجه الانسان في الفن .

ولكن جمهور المعرض اتيح له ان يعوض قليلا في مشاهدته لحفلات فرقة الباليه (روزاريو) الاسبانية . وهي فرقة اسستها امرأة حاولت ان ترتفع بموسيقى اسبانيا من مستوى العفوية الشعبية الى مستوى الرقص الكلاسي المعقد المنظم .

ولقد شاهد المتذوقون في هذا الرقص فرعا اوربيا متطورا من رقص عربي اندلسي بما فيه من حرارة وقوة تعبير ، وشمول في الحركات من الرأس الى اليدين الى القدمين واستمعوا من خلاله الى ايقاع مباشر هو من مخلفات ضربات الدفوف العربية ، ولعلعت الصنوج في ايدي الراقصين ... تلك الصنوج المصاحبة دائما لحفلات الطرب العربية القديمة .

ولكن لاحظ المشاهدون كذلك كيف يمكن للرقص ذاته ان يسمو عن اثارة الغرائز وان يتحول جسد الانسان معبرا عن روحه ، عن جملة من دقائق المواقف العاطفية والمعاني الحياتية ، عن قصة كاملة .

وهكذا انقضى موسم المعرض باضوائه وصخبه وافراحه ، وعادت المدينة من فرحتها هذه الى هدوئها القديم العميق ، والى حياة رتيبة حافلة بالجد والثقل .. منتظرة موسما خامسا في ايلول القادم .

م. ص.

المغرب العربي

لمراسل « الآداب » في مراكش

مؤتمر اقليمي لليونسكو

يستعد المغرب لاستقبال وفود الاقطار العربية المنخرطة في اليونسكو وذلك في اواخر شهر يناير ١٩٥٨ حيث سينعقد مؤتمر اقليمي لليونسكو في مدينة فاس عاصمة المغرب العلمية . وسيضم هذا المؤتمر اللجان الوطنية العربية . ومن المعلوم ان المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو سينعقد في باريس في غضون السنة المقبلة ـ ولكن المؤتمر الاقليمي الذي سينعقد في المغرب ستكون له فوائد جمة حيث يساعد على توجيه الاتجاه العام للاقطار العربية في موقفها من هذه المنظمة الدولية ، فلا شك ان هناك مآخذ على هذه المنظمة التي لا يستفيد منها جميع المنخرطين بقسمة متساوية رغم ان بعض اعضائها فقير جدا وفي حاجة ماسة الى اختصاصيين في كافة الميادين . الا ان هؤلاء الاختصاصيين يرسلون الى دول اخرى ليست في اكيد الحاجة اليهم وبذلك تبرهن منظمة اليونسكو على أنها ليست منظمة عالمية تهتم بمصالح كافة اعضائها وانما هي منظمة « اورو انجلو امريكان » تخدم مصالح الدول العظمى والدول التي تسير في فلكها .

والمؤتمر الاقليمي الذي سينعقد بفاس عاصمة المغرب العلمية سيكون فرصة مواتية لوفود الاقطار العربية الشقيقة لكي يراجعوا الحساب مع هذه المنظمة . كما سيساعد ـ وهذا اهم ما سينتج عن هذا المؤتمر ـ على التعريف بالنشاط العلمي والثقافي والفني في الاقطار العربية ، وما يمكن ان تقدمه الاقطار العربية لبعضها من اختصاصيين في مختلف الميادين .

ويرجع الفضل في عقد هذا المؤتمر الى الوفد المغربي في منظمة اليونسكو الذي قدم اقتراحا في هذا الموضوع واستعمل كافة جهوده ليخرج الاقتراح الى حيز الانجاز . وبذلك برهن المغرب البلد الفتي الحديث عهد بالاستقلال على حيويته ونشاطه في الميدان الدولي .. فبهذا المؤتمر الذي هو اول مؤتمر دولي عربي ينعقد بالمغرب بعد حصوله على الاستقلال والسيادة سيلفت المغرب انظار العالم الذي ما يزال يتخيل المغرب كما تصوره الدعايات الاستعمارية بلدا موحشا قفرا اطبق عليه الجهل وخيم عليه الظلام .

وقد تم اخيرا اجتماع بوزارة التهذيب الوطني تحت رئاسة معالي الوزير الاستاذ محمد الفاسي حضرته اللجنة الوطنية المغربية لليونسكو . وقد وقع النقاش حول جدول المؤتمر الاقليمي . ووقع في الاخير تعيين عدة لجان للتحضير للمؤتمر وشرعت هذه اللجان في تهيئة اعمالها تحت اشراف معالي الوزير وهذه اللجان هي كما يلي: لجنة التعليم ولجنة العلوم ، ولجنة التربية الاساسية ، ولجنة الآداب والفنون ، ولجنة حركة الشبيبة ، ولجنة التبادل الثقافي ، ولجنة الصحافة والاخبار ، ولجنة السينما والراديو .

كلية القرويين ونظم التعليم الجديدة

تعتبر كلية القرويين بفاس اقدم كلية عرفها العالم الاسلامي فقد بنتها سيدة تدعى فاطمة ام البنين وذلك سنة ٣٤٥ هـ. وقد حملت مشعل الهداية الاسلامية عدة قرون كانت فيها نبراسا ينور طريق الضالين ، وقبسا تستنير به امم العالم الاسلامي . وأثناء الحروب الصليبية وأثناء الغزو التتري والمغولي واثناء الاحتلال التركي كانت كلية القرويين وحدها ترسل انوار الهداية . والذي حفظ كلية القرويين من الضياع وابقاها عدة قرون تؤدي رسالتها هو عدم احتلال الترك للمغرب . فالمغرب الاقصى هو البلد الوحيد في العالم العربي والاسلامي الذي لم تستطع تركيا احتلاله رغم وجود جيوشها على مقربة من حدوده . فقد كانت كل محاولاتها تبوء بالفشل الذريع لما تجده من شدة شكيمة الجيش الوطني المغربي الذي كانت تهابه اعظم الدول اذ ذاك كاسبانيا والبرتغال وانكلترا .

في كنف هذه العزة البطولية المغربية كانت كلية القرويين تفتح ذراعيها مرحبة بالطلاب من كافة انحاء العالم . مصر ، طرابلس، تونس ، الجزائر، الاندلس ، انكلترا الخ.. وكانت كافة العلوم تدرس بها .. من طب ، وهندسة ، وجبر ، وفلك ، وتشريح .. وحتى الموسيقى . فقد كان الشيخ محمد الايراري يدرس اصول الموسيقى لطلاب من كافة انحاء العالم الى اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر . وكلية القروين فخورة بأنها قدمت للعالم علماء افذاذا استفادت الانسانية من علمهم وخبرتهم مايما استفادة امثال : الشيخ الحكيم محمد بن سليمان الروداني مخترع كرة الدوائر الفلكية المشهورة به والذي توفي وهو يؤدي واجبه العلمي في الشام ١٠٩٥ وعبد الله اليفرني الحيسوبي المتوفى سنة ٨٥٦ وابن البناء الفلكي الشهير والمهندس الفلاحي الكبير والفيلسوف الذائع الصيت المتوفى سنة ٧٢٣ وابو الحسن ابن عبد الواحد صاحب المؤلفات العظيمة في الطب والتشريح والمتوفى سنة ١٠٥٣ وغير هؤلاء من علماء المسلمين الذين كانوا يحجون الى كلية القرويين في عهودها الزاهرة فيكرعون من حياضها وينهلون من مناهلها الثرة ويرجعون الى اوطانهم غانمين . ولن اترك الحديث عن كلية القرويين قبل ان اذكر احد طلبتها وهو « البابا سلفستر » الذي ادخل الى اوروبا الاعداد العربية . ولكن أين هي الآن كلية القرويين التي نتحدث عنها ؟! لقد امست كشمطاء شوهاء تحاول عبثا اخفاء قبحها وراء المساحيق . فعندما دخل الاستعمار الى ارض المغرب بحث عن الطاقة التي تكمن فيها قوة المغرب فلم يجد غير كلية القرويين فأوحى الى سماسرته فمنعوا دراسة العلوم واكتفوا بالقشور ، بالجدال العقيم، بالمنطق السخيف ، بالبلاغة ذات الجناسات الباردة والتوريات المفضوحة ، والتشبيهات القمئة ، وبشيء سموه ادبا وما هو من الادب في شيء ... وانما هي سخافات تنطق بها شفاه لا تعي معناها ولا مدلولها .. وبين عشية وضحاها تحولت كلية القرويين ذات المجد العظيم الى ميدان

النشاط الثقافي في الوطن العربي

للهذيان . فدراسة احوال اعراب « ما » يستغرق شهرين ، ودراسة تشبيه زيد بالاسد يحتاج الى وقت طويل قد يستغرق عدة شهور وهكذا .

ولطالما حاولت الحكومة المغربية اثناء السيطرة الاستعمارية ان تطبق بعض الاصلاحات على هذه الجامعة فكانت دائما تجد معارضة شديدة.

وكيف لا الم يقل الماريشال ليوطي لأحد اعوانه : اذا تم لفرنسا القضاء على القرويين فقد ضمنت لنفسها الخلود في المغرب . ولا غرو فقد كان طلبة القرويين دائما وابدا شجى في حلق الاستعمار يذيقونه الوان العذاب . فما من حركة سياسية الا وهم زعماؤها وما من حركة اصلاح ديني او سياسي الا وهم في مقدمتها . وهذا ما جعل المستعمرين الفرنسيين يعارضون في كل اصلاح لنظام القرويين زيادة في تطبيق برنامج تجميل المغرب الذي كانت تسير بمقتضاه للعودة بالمغرب عشرين قرنا الى الوراء .

والآن وقد استقل المغرب وصار الامر بين يد ابناء الوطن المخلصين فقد اتجهت انظار جلالة الملك وحكومته الى اصلاح هذه الجامعة لتستعيد شبابها ولتستطيع مسايرة تطورات العصر ونهضات العلوم والفنون ، ولنفس هذا الغرض استقدمت وزارة التهذيب الوطني عدة اساتذة من الشرق العربي وخاصة من مصر .. وقد وضعت برنامجا يشرع في تنفيذه ابتداء من السنة الدراسية الحالية . فعسى ان تنهض القرويين من كبوتها لتمحو العار . وعسى ان تستطيع التحرر من الذين سيموتون وهم يعرفون كلمة « مات » كما جاء في رواية « كنلورث » !

حصاد سنين

هذا الركود الادبي الذي يعيشه المغرب لم يسبق له ان شاهد مثيله . فحتى في أيام الاستعمار كانت هنا حركة ادبية نشيطة تتزعمها طائفة من الشباب عادت من الخارج بعد ان استكملت معدات ثقافتها وشاهدت النهضات الادبية التي تعيشها دول العالم . وعندما عادوا الى بلادهم حاولوا خلق وايجاد نهضة ادبية تواكب نهضات الامم الاخرى . وهكذا ظهرت مجلات ادبية مثل « رسالة المغرب » و « الثقافة » و « السلام » الخ.. وشجع هذا النشاط الادبي بعض الادباء فأصدروا دواوين شعرية ونحن نأسف ان نقول ان الذين اصدروا هذه الدواوين الشعرية لم يكونوا هم زعماء النهضة الادبية في ذلك الوقت . وانما هم شبان لم يفهموا معنى التجربة الشعرية ولم تكن لهم امكانيات فنية تخول لهم اصدار دواوين شعرية . وهكذا من بين عدة دواوين راجت في سوق الادب لم يكن هناك ما يستحق النشر غير قصيدة واحدة او قصيدتين في ديوان « باقة شعر » لعبد المالك البلغيثي . اما « احلام الفجر » لعبد القادر حسن وديوان عبد القادر المقدم ، فلست ادري ماذا اقول في شأنهما وحسبي ان اكرر في شأنهما ما قيل في العقاد وشعره : « انه يحلق به في أجواء عالية بأجنحة جبارة ولكن ما اثقل جناحيه ».

اما « ديوان مكوار » فهو محاولة مجرمة للرجوع بالادب الى عهود الانحطاط الادبي والخلقي .. عهد امثال ابن سكرة والعسكري الذين صوروا بأدبهم الماجن ذي الغزل الشاذ الوقح ما كان يعانيه مجتمعهم من انحلال خلقي . واذا كان امثال ابن سكرة واصحابه لهم عذر فلا عذر للسيد محمد مكوار اذ ان مجتمعنا المغربي الاسلامي المحافظ لا يرى أي صورة له في هذا الديوان البذيء الا اذا كان هذا الشاعر يصور مجتمعه الذي كان يعيشه صحبة اقرانه .

وهكذا كان حصاد هذه السنين عبارة عن محاولات صبيانية لا تمت الى الادب بصلة .

والآن ، ماذا وراء هذا الركود الادبي ؟ الظاهر ان مستقبلا زاهرا ينتظر الادب العربي في المغرب فقد سمعنا ان عدة ادباء حقيقيين من زعماء الطليعة سيصدرون دواوينهم ، وسيكون من بين هذه الدواوين « مروج عبقر » و « المزامير » للشاعر ادريس اللجائي .

ذكرى شاعر الحمراء

نشرت جريدة « العلم » الغراء التي تصدر بالرباط خبرا مفاده ان جمعية ادبية قررت اقامة ذكرى لشاعر الحمراء السيد محمد بن براهيم وشاعر الحمراء هذا شهرته اكبر من فنه . فهو يمثل آخر حبة في عنقود شيوخ الادب الذين انفرط عقدهم في الخمسين سنة الاخيرة . ولم يكن شاعر الحمراء يعيش لوطنه او حتى لنفسه . كان يعيش لاهوائه وملذاته . كانت الحياة في عرفه : طعام ومدام و ..

وقد التمس من مجتمعه أن يوفر له هذه الملذات . ولكن المجتمع المغربي كان يعيش المعركة ، معركة التحرر ، ولم يكن له الوقت الكافي للبحث عن رغبات شاعر ماجن . وعندما شاهد ابن ابراهيم ان مجتمعه لا يمكن ان يحقق له ملذاته ولى وجهه نحو احد كبار الاقطاعيين الخونة الذين عرف العالم اجمع مواقفهم المخزية ضد اماني وطنهم . لم يكن هذا الاقطاعي غير الكلاوي لعنة الله عليه . كان شاعر الحمراء نديمه. يتمسح على عتبته ، ويمدحه بما يمدح به الملوك . ولا ينسى ان يذكر في مديحه حتى الميداليات الفرنسية التي علقت على صدر هذا الاقطاعي الخائن .

واذا كانت هناك حالات خاصة كان شاعر الحمراء يرجع فيها الى نفسه فيستغفر ربه حين يتذكر البؤرة النتنة التي اوقعه فيها الجري وراء تحقيق ملذاته الخسيسة ـ اذا كانت هناك حالات خاصة فلا ينبغي الاستدلال بها على طيبة شاعر الحمراء . لقد قدر لي مرة ان اتعرف لشاعر الحمراء منذ نحو الست سنوات فماذا سمعت منه ؟ كان يتصور مجتمعه الذي يخوض معركة الحرية مجتمعا ساقطا سافلا رجعيا لا يعرف معنى الحرية . وهو ينادي بمبادىء لا يعرف عنها شيئا . ولما حاولت اقناعه بفساد نظرته الى المجتمع اجابني قائلا : وما لنا وهذا الحديث الفارغ ؟ دعنا نعيش:

انما الدنيا طعام ومدام وغلام
فاذا جاءك هذا فعلى الدنيا السلام

النشاط الثقافي في الوطن العربي

هذا هو الشاعر الذي تحاول جمعية ادبية احياء ذكراه . والعجيب أن جل المعجبين بشاعر الحمراء لا يعرفون عنه سوى خفة روحه وسحر نكتته وطول لسانه وحضور بديهته . اما شعره فلا يعرفون عنه الا ما له ارتباط بنكته وطرائفه . فليت هذه الجمعية الادبية احتفلت بذكرى أبي العلاء المعري شاعر الانسانية الخالد والذي سيحل يوم ذكراه قريبا او ليت هذه الجمعية تقيم ذكرى للشاعر العاطفي ابي القاسم الشابي هذا الشاعر الذي قضى في عمر الزهور وقبل ان تفرغ كأسه . او ليتها احتفلت بأديب آخر من الاحياء وفي المغرب والحمد لله الكثير منهم ممن يستحق هذا الاحتفال .

عيد العرش

يعتبر يوم ١٨ نوفمبر يوم ذكرى جلوس جلالة الملك سيدي محمد الخامس على العرش وبهذه المناسبة تقام مسابقات ادبية بين الشعراء المغاربة الذين قد يسكتون العام كله حتى يحل عيد العرش فيتقدمون بحولياتهم في عجرفة وكبرياء ليتسقطوا الجوائز . ونحن لا نعيب غليهم ظهورهم في عيد العرش فقط حتى اصبحوا يدعون شعراء مناسبات .. فعيد العرش هو العيد الوطني الاول للشعب المغربي . أليس هو عيد تولية محرره جلالة سيدي محمد الخامس ؟ شعراؤنا قد استلذوا تسميتهم بشعراء المناسبات لذلك فلن نعيب عليهم سكوتهم طول السنة ولكننا نريد منهم أن يجددوا حتى في « حولياتهم » فلا يجتروا افكارهم القديمة او افكار من سبقوهم . ثم ينبغي التخلي عن ذكر السخافات التي تجعل من شعرائنا حواة وسحرة يبسطون الارض خدودا . او يضفرون الشمس اكليلا .

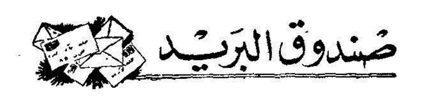
ان جلالة الملك سيدي محمد الخامس غني عن هذه الحماقات التي تحاول ان تجعل منه اسطورة . لماذا لا يتحدث شعراؤنا عن موقف من مواقف البطولة آلتي وقفها جلالة الملك .. وحياة جلالة الملك البطولية غنية بالمواقف المجيدة التي وقفها بجانب الشعب ضد المستعمر الفاشم وقفات اين منها وقفة « ميرابو » في تاريخ الثورة الفرنسية ؟ وقفات لو وجدت يد فنان صناع لكانت درسا في البطولة الوطنية ستحفظه الاجيال على تعاقب الجديدين .

اذاعتنا الوطنية

منذ ان استقلت البلاد المغربية وتولى ادارة محطة الاذاعة الوطنية الاستاذ قاسم الزهيري وهو يبذل جهوده للنهوض باذاعتنا حتى تصبح اهلا لان تمثل المغرب البلد العربي المستقل . وهكذا ابعدت بعض العناصر التي كانت ابواقا للمستعمرين ايام الاحتلال الفرنسي وادخلت الى الاذاعة عناصر جديدة من الشباب المغربي الحي .

وقد طلعت الاذاعة علينا في شهر اوكتوبر الحالي ببرامج جديدة طرب لها الجمهور المغربي واعجب ببراعة منسقيها . وهي برامج تتعلق بالادب ، والفنون والقانون والفلاحة وركن العامل وركن الطبيب وركن الشباب الخ.. الشيء الذي جعل الشعب يثني على جهود العاملين في الاذاعة الوطنية وعلى رأسهم مديرها الحازم الاستاذ قاسم الزهيري .

فاس ــ المغرب **ادريس ابن جلون**



تطور المرأة العربية

تعد الشاعرة المعروفة السيدة سلمى الخضراء الجيوسي بحثا عن « التطور الاجتماعي في العالم العربي » سوف تلقيه في مؤتمر طلبة الابحاث العليا العرب الذي يعقد في اكسفورد في شهر ديسمبر القادم. وستعنى بتطور المرأة العربية بصورة خاصة .

والمرجو ممن يملك معلومات واحصائيات تفيد في معالجة هذا الموضوع ان يكتب الى السيدة الجيوسي في اقرب فرصة على العنوان التالي :

S.K. JAYYUSI 110 Latymer Court LONDON W.6

اخطاء مطبعية

في مقالي « رسالة الغفران » الذي نشر في العدد الماضي من «الآداب» وقعت اخطاء مطبعية وسقطت بعض عبارات هي :

ص ٣٧ عمود ٢ سطر ٨ وردت كلمة « فراد » وصحتها « خراد » بالخاء

س ٣٨ عمود ١ سطر ١٤ وردت عبارة « واختار ضبطهم بالضم » وصحتها « واختار ضبطها بالضم ، والصغار – بالضم – »

وفي نفس العمود سطر ٢١ سقطت بعد عبارة « وليست صيغة اترص» العبارة الاتية : « بهمزة وصل متعدية كما قالت المحققة وانما هي لازمة ، والمتعدى اترص »

وفي ص ٣٨ عمود ٢ سطر ١ سقطتكلمة « نصب » قبل الفعل «أحضر»

وفي نفس العمود سطر ٦ سقطت بعد عبارة « على ذلك كالكوفيين »العبارة الاتية : « – وهو ما استنتجته المحققة – فلا يمكن اخذه من العبارة ، لان مجرد السماع لا يعني اجازة القياس فقد يكون المسموع قليلا .. »

وفي نفس العمو سطر ١٤ سقطت كلمة « مضاف » بعد كلمة « ملك »

احمد مختار عمر

ملاحظات

جاءتنا من الفنان الاستاذ جواد سليم رسالة يصحح فيها بعض الهفوات التي وردت في مقالة الاستاذ جليل كمال الدين عن « معرض جمعية الفنانين العراقيين » المنشورة في العدد الثامن من «الآداب» فيذكر انه لم يصور جدران سينما الخيام ، وان نموذجه الذي رفضته ادارة السينما قد عرضه في معرض جماعة بغداد سنة ١٩٥٦ بعد افتتاح السينما المذكورة باسابيع ، وانه لم يشر احد من الكتاب والصحفيين الى النماذج ولا الى طريقة رفضها من قبل مسولي بناء السينما وتفضيلهم نماذج مصور ايطالي قام بعمل الصور الجدارية الحالية .

ويذكر الاستاذ جواد سليم ايضا ان الصور الوحيدة التي زينت المقال في نقد اهم معرض قامت به جمعية الفنانين العراقيين ليست من روائع الفن الفارسي ، وانما هي نماذج رديئة من الفن الفارسي الحديث . اما النماذج التي استلهمها هو في تصاميمه للسينما المذكورة فهي تنحصر بين القرن الثالث عشر والسابع عشر .

نحو تجربة قومية

وقع في عنوان مقال الاستاذ مطاع صفدي المنشور في هذا العدد خطأ مطبعي ، فالعنوان هو « **نحو** تجربة قومية » لا « **نمو** تجربة قومية » ، فنعتذر للكاتب والقراء

وثيقة اجتماعية هامة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ـ

يمتلك ناصية « التعبير الشعري » فطرة وسليقة ، وشعره أكثر من شعر اي من معاصريه ، يكشف عن سهولة في اداء التعبير المبتكر لا أثر **للعمل** فيها او **للدرس** فكأن الكلمات تخلق وتتدفق قبل ان يعيها عقله .

ولنجرب ان نتبين موقف نزار من حياتنا المعاصرة .

ان لكل شاعر ، حتما ، موقفا من حياتنا العربية المعاصرة ولعل اسهل تقسيم لمواقف الشعراء المختلفة هو ان نقسمهم الى نوعين ـ الاول هو تلك الفئة الراضية بالواقع القابلة لحياتنا التقليدية، والثاني هو تلك الفئة الرافضة لهذه الحياة الثائرة عليها وكلا الفريقين لا يشذ عن ان يكون نموذجا لجمهرة من الناس نعايشها وتعايشنا .

فاما فئة الراضين بالواقع فقد كان نزار من ابرز المعبرين عنها في دواوينه الاولى . صدرت « سامبا » سنة ١٩٤٩ وكانت ثالث كتبه ـ وصدرت « انت لي » وكانت رابع كتبه سنة ١٩٥٠ ولم يكن في كل من الديوانين ذكر للنكبة القاصمة التي سبقت صدورهما بوقت قصير . كان موقف نزار من الحياة العربية موقف قبول كلي ولا مبالاة بالاحداث، على الاقل في شعره .

موقف نزار هذا لا يدهشني مطلقا . فانني ما زلت الى اليوم ، وبعد ان ثار نزار نفسه بسنوات ، التقي افرادا عربا يقبلون بأسوأ الواقع بكل ما وسعهم من رضى ـ فنزار لم يكن شاذا ولا نابيا عن روحية جزء من مجتمعنا العربي .

ولكن بعد « انت لي » بقليل ، ثار ، وانضم في عدد من قصائده الى الفئة الثانية من شعرائنا .

وعند هذه الفئة يجب ان نقف وقفة اطول . فان ثورة الشعراء الشباب ، كثورة الجيل نفسه ، اخذت مواقف مختلفة لا بد من محاولة تحديدها . ان الثورة رفض دائما، ولكن هذا الرفض عند مجموعة الشعراء الثوار اتخذ مظاهر متلونة يعكس اختلافها اولا اختلاف طبيعة الشاعر النفسية ، وثانيا تباين البيئات العربية والاجواء المعاصرة في البلدان العربية المختلفة .

هناك اولا فئة الشعراء الذين كانت ثورتهم رفضا كاملا للوضع وانكارا كليا لطبيعة الحياة العربية او للمشكل الحي الذي تعهد معالجته في قصيدة معينة . وانه من اللطيف جدا ان نرى نزارا الذي كان يقف موقف القبول الكلي يطل علينا في باكورة ثورته غاضبا صاخبا ورافضا رفضا باتا لاخفاء المشكل الذي يتحدث عنه .

جميع قصائده الاجتماعية تنطوي على الرفض الكامل وهو يحكم على متهمه حكما قاسيا صارما لا تردد فيه . ففي « حبلى » و « اوعية الصديد » و « الى اجيرة » و « رسالة من سيدة حاقدة » ، نراه يسلط الاضواء على نذالة الرجل وانانيته وموقفه من امرأة ضعيفة ـ وهي ثورة للمرأة ، لنوع معين من النساء ـ لا احتقار لها ، واحساس منفعل بمأساة ضعفها المحزنة .

ولعل رفضه الكامل وحكمه القاطع يظهر بصورة اعم واشمل في « خبز وحشيش وقمر » وهي اول تعرض منه لحياتنا الاجتماعية القومية على نطاق عام ، فسلط في قصيدة واحدة أضواء لاهبة على واقع الحياة العربية بطولها وعرضها ، على بلاد البسطاء ، ماضغي التبغ وتجار الخدر ، اولئك الذين يعيشون ليستجدوا السماء

ما الذي عند السماء
لكسالى ضعفاء
يستحيلون الى موتى اذا عاش القمر
ويهزون قبور الاولياء
علها ترزقهم رزا واطفالا ..

وفي القصيدة انكار لبعض اركان الدين الاسلامي

يتسلون بأفيون نسميه قدر
وقضاء ...

ثم

والملايين التي تركض من غير نعال
والتي تؤمن في اربع زوجات وفي يوم القيامة !

حتى تجاه الدين فانه لم يعان البلبلة التي يعانيها جزء كبير من جيله ـ بل اتخذ له موقفا جازما منكرا .

ولكن نزارا لم يستمر ، ولم يكن ممكنا ان يستمر على هذا الموقف الانكاري الكاره ، فانضم في « راشيل شوارزنبرغ » وفي قصيدة « رسائل جندي من المعركة » الى فئة أخرى من الشعراء الثوار ـ تلك هي فئة المبشرين بالبعث المؤمنين به . وقد كان في ايمانه بالبعث ايضا واضح الموقف جارفا في هذا الايمان ـ واذ بشر بهذا البعث في « راشيل » على يد جيل من الصغار ، فانه في رسائل

الجندي المصري عاد الى الايمان بأن البعث لا بد ان يتم على يد هذا الجيل ، جيل نزار نفسه .

ان نزارا في انكاره للواقع العربي اولا ثم في ايمانه بالبعث يعكس شخصيته الحازمة دائما ، العارفة تماما لما تريد . ان موقفه دوما محدد واضح المعالم – لا يظهر في شعره – تقريبا – شيء من عدم الاستقرار ومن القلق الذي تزخر به قصائد غيره من الشعراء الثوار . ولعله اشبه بفدوى طوقان في هذا المضمار (على اختلاف مضمونهما الشعري). فثورة فدوى وايمانها ببعث المرأة الاجتماعي يتخذ موقفا محددا واضح المعالم – وهي اذ تؤمن بحق المرأة في الحب والانطلاق تراها تندفع في شعرها واضحة وقوية ودافقة لتخبر الجميع بأنها وجدت نفسها ، وجدتها .. حيث اضعناها نحن !

بدر شاكر السياب في رأيي ، يعبر اكثر من اي شاعر آخر عن القلق الحي الحائر الذي اصبح لعنة العصر . ما اقدر بدرا على الحزن الرجولي الثائر . انه في شعره يعكس تمزقا نفسيا وحيرة عميقة وحزنا وتحرقا شفافا نتعرف عليه في نفوسنا – ومأساته هي مأساة الضياع التي اذهلت فريقا كبيرا من جيلنا وارهقت اغوار نفسه .

اود لو عدوت اعضد المكافحين
اشد قبضتي ثم اصفع القدر ! (النهر والموت)

انه يود ان يصفع القدر – وهذا ما نوده نحن ، وما ابلغ تعبيرك يا اخي بدر !

وبدر يصيح من قاع القبر ولكنه يبشر بالبعث دوما

بشراك يا احداث حان النشور
بشراك في وهران أصداء نور
سيزيف القى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على الاطلسي
آه لوهران التي لا تثور .

ولكن شاعرا آخر ، يعبر عن لسان فئة ثالثة من شعرائنا الثوار ، لم يستطع ان يبشر بهذا البعث الذي يبشر به بدر واخوانه ومن جملتهم نزار مؤخرا بقصيدتيه المذكورتين، ولا ان يسلط الانوار الكاشفة على العلل بدقة نزار « الحسابية » وآرائه الواضحة . انه بلند الحيدري . بلند يتزعم فئة الشعراء الذين وصلوا في ثورتهم الى درجة الكره اليائس ، والرفض العاجز عن اي نوع من الايمان . انه اشبه بالشعراء الغربيين المعاصرين منه بشعراء عصر البعث عندنا واراه سابقا لاوانه – فكأن قصتنا قد انتهت عند بلند . ولعل موقف هذا الشاعر الشاب كانت نتيجة كرهه الفكري والعاطفي لمجتمع « وحنط » لا يخلو من فساد كثير يعرفه هو اكثر مما يتسنى لبدر واخوانه الآخرين ان يعرفوه وهم المنبثقون من قلب الشعب . لقد وصل بلند في شعره الى درجة اليأس والبرم والملال . ولهذه الظاهرة خطورتها في المجتمع – فما دامت هناك ثورة عارمة وتحرق ، كان هناك امل واستبشار . عندما سلط نزار اتهاماته الصريحة في « خبز وحشيش وقمر » للمجتمع ، لم يقرر المصير ، وان كان لم يبشر بأنه لم يوح بعدم امكانية البعث – لقد وقف بعيدا وسلط الاضواء على العيوب من الخارج . اما بلند فانه يعيش في قلب المدينة الميتة التي ترمي ظلالها الشاحبة على نفسه فترهقها وكأنه يوحي في شعره باستحالة الحل ، بالنجاح المزهق سلفا ، فالموت والكآبة وفقدان الحيوية تجعل بعض شعره ينقل الينا ، بواسطة الرموز والاوصاف ، جو العجز الذي يكاد يقتنع بضآلة المسعى .

هذه الفئة الثالثة من الشعراء الثوار ، والتي يتزعمها بلند الحيدري ، لن ترى من نزار يوما ما مشاركة ، على ما اعتقد ، بل اني اميل الى الظن بأن نزارا سوف يظل بمنجى من كثير من القلق المعاصر الذي انهك بدرا ، لانه كما يخيل الي لا يحتمل القلق ، والجواب المعلق ، والتساؤل – بل هو انسان واضح دائما في كل ما يريد وفي كل ما يكتب .

لندن **سلمى الخضراء الجيوسي**